

S A R A ' S S I N

NOVEL

رواية

نجم والي

إثم سارة



إثم سارة

Sara's Sin

نجم والي

الطبعة الأولى: بيروت - لبنان، 2018

First Edition: Beirut - Lebanon, 2018

© جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق



لبنان - بيروت / الحمرا

تلفون: +961 1 345683 / +961 1 541980

بغداد - العراق / شارع المتني عمارة الكاهجي

تلفون: 07830070045 / 07810001005

✉ daralrafidain@yahoo.com

📘 dar alrafidain

✉ info@daralrafidain.com

📖 Dar.alrafidain

🌐 www.daralrafidain.com

📧 @daralrafidain_1 دارالرافدين

تنويه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

رواية

إثم سارة

نجم والي



«الرحمة لنا نحن الذين نقاتل دوماً على الحدود، الرحمة لأخطائنا
والرحمة لخطايانا»

غيوم أبولينير (من قصيدة: المرأة
الجميلة ذات الشعر الأصهب)

«الشار ثاري، وأنا أريد أن أقتص»

آنا كارينينا، ليو تولستوي
(الجملة الاستهلاكية للرواية)

الفهرس

7	الإهداء.....
9	نهاية الإثم.....
21	إثم سارة.....
23	الفصل الأول: سارة التي فيها كل ما يسرّ.....
65	الفصل الثاني: كابوس سارة.....
89	الفصل الثالث: معرفة ناصر المولع باختراع إنسان آلي سعودي.....
159	الفصل الرابع: زواج سارة.....
175	الفصل الخامس: ليالي الأنس في لندن.....
199	الفصل السادس: نهاية الإنسان الآلي السعودي.....
211	الفصل السابع: في عودة سارة واكتشافها كتاب «إثم سارة».....
227	عودة إلى نهاية الإثم.....
243	ملحق.....

الإهداء

إلى سين باء وسين ألف ورفيقاتهم الأخريات
وهن يقاتلن الصخر بجسد من زجاج في مملكة الغبار هناك...
بدون أو مع «إثم سارة».

نهاية الإثم

ذلك هو، يرقد على سريره هناك، لا يفصله عنها غير قطعة قماش بيضاء شفافة، عليها فقط التقدم قليلاً، لكي تزيحها من مكانها وتصبح عند رأسه تماماً، لكنها أزاحت الفكرة الآن، فضّلت الانتظار، البقاء على مسافة قصيرة، ما زال أمامها بعض الوقت لتعاينه أكثر، كأنها أرادت التأكد أكثر من أنه هو الذي رقد أمامها على السرير بلا حراك وليس أحداً غيره، أو ربما لم تكن قررت بعد حتى تلك اللحظة الطريقة التي اختارتها لموته، ما زالت هاوية مقارنة به وبغيره، أن تقتله هي بيديها ولا تترك أمره لمشئثة أحد آخر، ربه الذي يؤمن به مثلاً، ذلك أمر انتهت منه وأكد، لكنها تحتاج بعض الوقت لكي تصدق، أنها وصلت إليه بالفعل، بهذه السهولة والسرعة، كانت أوقفت السيارة عند موقف السيارات أمام البوابة الرئيسة للمدينة الطبية، وحتى مغادرتها لها، كان الأمر بالنسبة لها أقرب للخيال، ليس لتراه ميثاً أمامها كما حلمت ليالي عديدة وحسب، بل لتختار هي ولا أحد غيرها طريقة متقنة للانقراض عليه، منذ أن تأكد لها، أنه يرقد هنا في غرفة الإنعاش، هيأت كل ما تحتاجه من عدة لكي تنجح فيما نوت عليه، حضّرت نفسها جيداً، أن تأتي إليه في وقت الظهيرة بالذات، كم ترتفع درجة الحرارة؟ خمس وأربعون درجة مئوية؟ خمسون؟ لا يهم، المهم في هذا الوقت، وقت القليلولة عادة، سيكون الجميع قد ناموا، وإذا ظلوا يقطّين، فتكون الحرارة قد جعلتهم خامدين، نصفهم يقط، ونصفهم الآخر يكافح النوم. لا يهم، إنها هي الأخرى ستلتظي، فهي قد عقدت العزم، لا حرارة تمنعها، تنكرت بعناية، على الأقل هذا ما ظنته، لبست باروكة، ارتدت ملابس رجال، وضعت على رأسها قبعة بنمية، غطت عينيها بنظارات شمسية عريضة، داكنة اللون ماركة راي بان، بالضبط فعلت ما

يفعله جنود القاعدة الأميركية، المارينز في الصيف، سارت بخطوات واثقة باتجاه
بناية المدينة الطبية، صفت لحناً شائعاً مانحة الانطباع، أنها تتصرف بصورة
طبيعية، تجنبت التوجّه إلى مناوب الأمن في منطقة الاستعلامات في المدخل
الرئيس لاستلام بطاقة الزيارة، كما نصت التعليمات الرسمية التي تواجه زوار
المدينة، والتي كُتبت بخط كبير على القطعة المعلقة عند المدخل، وللتمويه
سارت أولاً باتجاه المجمع الترفيهي في المستشفى، قطعت الطريق الذي يمر
بالعيادة الخارجية رقم واحد، والعيادة الخارجية رقم اثنين، دون أن تنظر ناحية
اليمين أو الشمال، ليس كأنها تعرف هذا المكان وحسب، إنما كأنها تعمل هناك
منذ وقت طويل، رغم أنها لم تزره سوى مرة واحدة وكان لها من العمر تسع أو
عشر سنوات بصحبة أبيها.

لم يتغير من المبنى شيء، هو نفسه كما تذكرته من زيارتها تلك، وعندما
وصلت إلى عمق البناية، وقبل أن تصل إلى قسم الطوارئ، انحرفت إلى الشمال،
باتجاه المدينة الترفيهية، وبالضبط عندما أصبح المتحف التاريخي للمستشفى
ومركز الحرف اليدوية خلفها، وقبل أن تصل إلى المسبح والكوفي شوب الإيطالي،
توجّهت مباشرة قبالتها، لتأخذ المصعد الذي يقود إلى الطابق الثالث للعيادة رقم
3، أرادت الوصول إلى المكان الذي يرقد فيه من جهته الخلفية، و فقط عندما
انفتح باب المصعد، ورأت أمامها الممر الطويل الذي كان عليها قطعه حتى
النهاية حيث الغرفة التي رقد فيها، غرفة الإنعاش، شعرت بضربات قلبها تدق
بسرعة ضخمة، ونبضها يزداد، خلعت قبعتها ومسكتها بيديها، لتضغط بها على
صدرها، المهم ألا تعرق، ألا ترتعش يداها، عليها ألا تثير الانتباه، ربما ترددت
لثانية واحدة أو اثنتين، لكنها عندما رأت مجموعة من الممرضات الهنديات
أو اليمينيات تدخل إلى المصعد، يلقين عليها التحية «سلام عليكم دكتور»، كم
شعرت بالخوف، بقلبها يدق، هل يعني أنها لم تتنكر بشكل متقن؟ كل الذين

مرّوا بها في الممر ألقوا عليها التحية، كأنها طيب يعمل هناك ويعرفونه، من عاملات التنظيف الثلاث اللواتي حملن أكياس الزباله إلى شاب بسمرة داكنة، هندي أو سيريلانكي لبس الملابس التي يلبسها عمال الكافيتريا، بل حتى الدكتور الذي كما يبدو هو المسؤول عن الردهة التي رقد فيها «مريضها»، ألقى عليها التحية وهو في طريقه إلى المصعد، كأنه يلقي التحية على زميل، هل ظنوا أنها شخص يحب المزاح؟ الممرضات مثلاً، لم يستطعن كتمان قهقهتهن مباشرة بعد مغادرة المصعد، أصواتهن وهنّ يتهامسن وصلت مسامعها، لكن لماذا تظن أن القهقهات لها علاقة بها، فهنّ حتى عندما حدقن بها عند صعودهن المصعد، ألقين عليها نظرة خاطفة وحسب، تعرف خشية الممرضات الأجنيات وتجنهن إثارة المشاكل مع السكان الأصليين، ثم بالتأكيد كنّ هنّ الأخريات تعبات، كل ما كان يشغلهن هو تبديل نوبة عملهن، مغادرة ردهة المستشفى والذهاب إلى عنبر النوم، فلماذا تقلق، المهم أن كل شيء يسير حسب ما خططت له، المهم، أنهن والطبيب والعمال تركوها بسلام، قالت لنفسها، وهي تخطو بثبات، وعندما أصبحت في الغرفة تنفست بعمق، أغلقت الباب وراءها بهدوء مثلما يفعل طبيب يزور مريضه لمعاينته، ولو قال لها أحدهم حتى ذلك اليوم، إنك ستنجحين بالوصول إليه، لما كانت صدقته، مثلما لا تصدق، أنها مسألة وقت، وسيصبح كل شيء في عداد الماضي، مثلما أصبحت كل حياتها، هذا إذا كان لها حياة، كل السنوات التي تركتها وراءها ماضٍ بعيد.

«من أين أبدأ معك؟»، همست مع نفسها، وهي تنظر صوب الرجل الراقد هناك، بالتأكيد لم يظن هو الآخر، أنه سيرقد بهذا الشكل على سرير الموت في غرفة الإنعاش، رثاء وقلبه تتنفس بصورة اصطناعية، مصيره ستقرره هي، قبل أن يقرره ربه كما يعتقد، أو في أحسن الأحوال كما يقرره الأطباء، تعرف أن إعادة الحياة له هو أمر يقترب من المستحيل، «له علاقة بالمعجزات»، كما ما صرّح

الأطباء للصحافة، «حالته ميئوس منها، نزع كثيراً»، من الصعب على شخص مثله أن يعيش، ثلاث طلقات استقرت في جسمه، اثنتان في رتته اليمنى، وواحدة في رأسه، إخراجها يعني موته فوراً، لقد نزع كثيراً، ولا أحد يفهم، لماذا تركه القاتل يتعذب، كان بإمكانه الإجهاد عليه، كما أجهز على ضيفه. ضابط مباحث كبير كان في زيارته في ذلك اليوم، كانت أبواب الفيلا مغلقة، وكان على الشرطة أن تستغرق وقتاً طويلاً لكسر الأقفال لكي تدخل إليه، كان القاتل يملك الوقت الكافي للانتهاج من جريمته، لكنه بدل ذلك هرب، وترك ضحيته، إحداهما ماتت مباشرة، والأخرى ملقاة على الأرض تننّ تحت جروحها البليغة، على الأقل بتلك الحال عثرت الشرطة عليها، لأنها ستدخل الغيبوبة بعد دقائق من حملها في سيارة الإسعاف، وشكراً للمكالمة التي تلقتها الشرطة من مجهول، وإلا لكانت بالتأكيد ماتت في ذلك اليوم، لم تلقِ الشرطة القبض على القاتل (أو القاتلة؟ لم لا؟) حتى الآن، لا بدّ وأن يكون أحد الإرهابيين، كما كتبوا في الخبر الذي قرأته في الصحيفة وهي في الطائرة في طريق عودتها من لندن، ذلك هو ديدنهم، قالت لنفسها، دائماً يستخدمون هذه الكلمة الغامضة: "إرهابي". طريقة مثلى من جانبهم بتجنب الذهاب في التفاصيل، أو - وذلك هو المؤكد - لكي يبعدوا التهمة عن أنفسهم هم.

كم بوّدها التعرف على من حاول قتله، بالتأكيد ستثني عليه، بل وستكافئه بالنوم معها إذا استدعى الحال، المدة التي يشاء وبالطريقة التي يشاء، حتى إذا كانت امرأة! شكراً له، إنه ترك لها فيه بقية من حياة، قرابة ثلاثة شهور وهو في الكوما، في الغيبوبة، ربما هي عنايتها بأبيها، هو ما جعلها تُرجئ قرارها في البداية، إذا لم يكون بسبب رغبتها هي الأخرى بتركه يتعذب، كما أراد القاتل له، وإلا لذهبت إليه في سريره في غرفة الإنعاش مباشرة بعد وفاة أبيها، وإلا لما قالت في نفسها: «القبر سيكون استراحة له، لا غير». وأولاً عندما قرأت في الصحافة وسمعت في الراديو، تصريحات طبيبه الخاص وهو يتحدث عن

«المعجزة الإلهية»، التي جعلت «الشيخ يتحرك ويخرج بعض الأصوات»، وأنهم يركزون الآن على تغذيته لاستعادة قواه بالتدريب، فقط عندما عرفت بذلك، فكرت أن الوقت قد حان، لم يعد هناك ما يثنيها عن قرارها، ماذا تبقى لها؟ الدراسة التي بدأتها قبل شهرين؟ تستطيع أن تنساها، الوظيفة في شركة آرامكو التي حصلت عليها بسهولة قبل شهر، ربما بسبب لغتها الإنكليزية الطليقة، أو ربما بسبب مكانة أبيها هناك؟ تستطيع أن تنساها، ماذا تبقى لها؟ الجلوس في البيت الكبير ساعات طويلة وكتابة قصة حياتها؟ كلا، عليها أن تنسى ذلك كله، لا حياة لها، لا فرح وسعادات، لا لذة وبهجات، طالما ظل هذا الممدد في سريره هنا، جاثماً على حياتها مثل كابوس، وحده وجوده ينغص عليها حياتها، حتى وهو في الكوما، في الغيبوبة، فكيف إذا حدثت «معجزة إلهية» وجعلته يستعيد الحياة؟ لا بدّ وأن يختفي، ستقضي عليه هي بيديها، ولن يمنعها أنه يرقد في مستشفى فخم من الدرجة الأولى، أصلاً هو لعلاج العسكر.

في النهاية لا أحد يستطيع مساعدته بعد الآن، ربما تركوه يرقد هناك لأن لا أحد أصلاً أراد تحمل مسؤولية موته، ربما أنهم يأملون بحدوث معجزة بالفعل، بالتأكيد، ظن هو أيضاً، في لحظة وعي قصيرة منه، أو وهو يفكر بصمت، أنه سيشفى، وسيعود إلى الحياة، دون أن يدري، أن الأمر انتهى بالنسبة إليه، عليها فقط أن تختار الطريقة اللائقة بموته، هل تقتله خنقاً بالمخدة التي استقرت تحت رأسه، أم ببساطة برفع كمامة الأوكسجين عن وجهه، أم بسحب سلك الكهرباء المربوط بجهاز الإنعاش؟ ولكي تُنهي على ترددتها وتختار، لا تحتاج غير أن تسترد أنفاسها، أن تغمض عينيها وتتنفس بعمق، ثم تتقدم منه، تزيح قطعة القماش الشفافة، عليها فقط أن تشيح بوجهها لكي لا ترى لحيته الطويلة التي ما زالت بقايا الحنة عليها، اللحية التي كرهتها ربما لصبغها بشتى الألوان، لكي لا ترى صلته الكبيرة التي ظهرت بعريها أمامها الآن، ولكي تبعث في نفسها العزيمة أكثر، ولكي تنفّذ ما كانت

عزمت عليه، عليها فقط، أن تظل محافظة على عينيها مغمضتين ثواني قليلة، وتردد مع نفسها، أنها لا تفعل ذلك لها هي وحدها، بل ستفعله باسم الجميع، باسم توأمها أو قريبتها آرامكو التي اعتادت اختراعها وهي طفلة لكي تحتمي بها كلما أنبوها على فعل شيء، تقول: هذا فعلته آرامكو، باسم أختيها الكبيرتين، باسم أخويها اللذين حتى الآن لا يعرفان ما جرى لها على يديه، باسم العائلة التي عاشت على طريقها سعيدة ذات يوم مثلها مثل عوائل أخرى وتعيش الآن في شتات، باسم أبيها الذي لقي حتفه بطريقة لا تليق، باسم أمها التي قتلها الغم، باسم شريكها بالياس والمصير، ناصر الذي كان قدره أن يكون ابنه، وانتهى إلى سجن بعيد، باسم صديقة طفولتها الهنوف التي لا يعرف أحد المصير الذي انتهت إليه، باسم الخدم «الجاوة»، بكل ما أطلق عليهم من تسفيه وإهانات، نعم تفعله باسم الجميع، لكن قبل شيء أيضاً باسم عمته التعيسة، أخت أبيها التي كانت بلا أطفال، حتى عثرت ذات نهار على طفلة متروكة نصف ميتة تقريباً في الصحراء، وقفت عند رأسها عنزة، أطلقت العمه على الطفلة موضة، كما سمعت سارة، سلواها الوحيدات لما تبقى لها من حياة، ولو ترك الأمر لها، لوأصلت العيش إلى جانبهما، تعيش الحياة التي يحييانها، تنتقل معهما من وادٍ إلى وادٍ، وليكن وطنها الجديد الصحراء، باسم زوج عمته الذي أحبته العمه حتى الموت، تركت عائلتها وبيتها، لكي تلبى نداء القلب لا غير، كما أخبرتها في أول لقاء معها، لم تظن العمه يوماً أن ظل الموت هذا سيلحق بهما إلى الصحراء، سيأتي على شكل أخيها، غازي الجاسي، والد سارة، سيصلهما إلى أبعد مكان لجأ إليه في الصحراء.

«باسم كل البنات المجهولات ضحاياك»، رددت سارة بصوت حازم، وهي تتقدم نحوه بهدوء، «لكي أحرر نفسي إلى الأبد، طالما بقي عندي نبض في الحياة»، وعندما أصبحت عند رأسه، رآته يتطلع إليها، كانت نظرتة باردة، متجمدة، لم يكن فيها شيء من التوسل، لم تحو على طلب للرحمة، كانت نظرة

متجمدة، شاحبة، نظرة قاتل بالأحرى، لا ندم فيها أو خوف، وكان على سارة أن تجمع قواها ثانية، أن تكبح جماحها، لكي تحافظ على حركة يدها اليمنى هادئة، إنها ثوانٍ وحسب، وينتهي من كل شيء، لن يهتما أصوات الإنذار التي سيطلقها الجهاز، ستصرف بطريقة ما، ستهولول بسرعة، أو ليكن ما يكون ويلقون عليها القبض، لا بدَّ وأن تنجز ما نوت عليه، لبرهة وضعت يدها اليسرى وهي تمسك القبعة على صدرها، أغمضت عينيها، وفي اليد الأخرى رفعت عن وجهه كمامة الأوكسجين، لم يبدِ أية مقاومة أو حراك، وعندما فتحت عينيها، شعرت بصدرها يهبط، وبتنفسها ينتظم، شعرت بنفسها خفيفة، مثل من أزاح ثقلًا جثم لسنوات طويلة على الصدر، الآن تستطيع التحرك، العودة بثقل أخف، أعادت كمامة الأوكسجين إلى وجهه، كأن شيئاً لم يحدث له، واستدارت لتخرج.

لبرهة فتحت الباب، خرجت بطريقة هادئة مثلما يفعل طبيب عادة، يغادر الغرفة بعد فحصه مريضه، في البداية خافت قليلاً، كانت أصوات الإنذار ما تزال تُسمع في الممر، قادمة من غرفة الممرضات، ظنت أنها ستسمع أقداماً مهرولة بسرعة ووجوه مذعورة تأتي لتعائين ما حصل لجهاز الإنعاش أو لقلب المريض، بالضبط كما يحدث في الأفلام، لكن لا شيء من ذلك، كل شيء يشير، أن لا أحد هناك، أو أن لا أحد يعنيه الأمر، باستثناء أصوات الإنذار المتقطعة، خيِّم الصمت على الممر، كان وقت القيلولة، وقت تبديل نوبات العاملين في المستشفى، من أطباء وممرضين، لم تكن على عجلة في سيرها، لن يكتشفوا موته قبل وقت زيارة الطبيب الجديد المناوب له، أو على أقل تقدير إلى حين وقت الزيارات، إلى ذلك الحين ما زال أمامها ثلاث ساعات، وقت كافٍ في الحقيقة، ليس لقطع الطريق نفسه الذي جاءت منه، فهي لا تحتاج للسير من العيادة رقم ثلاثة وحتى موقف السيارات رقم باء أكثر من عشر دقائق، بل وقت كافٍ ويزيد لقطع الستين كيلومتراً التي عليها تركها وراءها، المسافة التي تفصل بين بوابة

مدينة الملك خالد بن عبد العزيز العسكرية الطبية وحتى مدينة حفر الباطن، هذه المرة بدا المستشفى أكثر فراغاً، ضحكت في نفسها، وفكرت، أن ما يثير الريبة الآن، هو شعورها بأنها الوحيدة التي كانت يقظة في ذلك الوقت، باستثناء شخص بدشداشة وغترة مرقطة بنقاط حمراء ملثم جزئياً رآته واقفاً في نهاية الممر الذي يقود للغرفة قريباً من المصعد، كأنه كان بانتظارها هناك، ربما تطلع بها قليلاً أو هذا ما ظنته، لكنه في كل الأحوال هبط السلم بسرعة، باستثناء هذا الشخص الذي اختفى مثل طيف عابر، لم تلتق بأحد لا في الممر فوق، ولا في المصعد، ولا عند نزولها في المصعد، وحتى الأشخاص الذين لمحتهم خلف الزجاج المجاور للمصعد في المسبح، لم يجعلوها تتردد في سيرها، أو تخفي وجهها، كانوا عمال التنظيف، واضح من الشبكات التي مسكوها بأيديهم، فقط من الكوفي شوب الإيطالي وصلتها بعض الأصوات، لكن حتى هذه الأصوات التي اقتربت من الوشوشة ضاعت تحت صوت الموسيقى الكلاسيكية التي انبعثت من السماعات المعلقة في الممرات، موسيقى كونسيرتو آرانخويث، كم بدا لها المشهد مضحكاً، كأن الجميع احتاجوا تلك المقطوعة ليس لكي يناموا بل ليحلموا بهدوء، إنها ساعة نوم الجميع، فقط حارس الاستعلامات كان يقظاً، وإن كان نصف يقظ، لمحتة من زاوية عينيها، كيف أنه بدا يجاهد النوم، يكافح لإبقاء عينيه مفتوحتين، وعندما وصلت إلى موقف السيارات صعدت إلى السيارة، رمت القبعة إلى المقعد الخلفي، شغلت الماكينة، رفعت من درجة حرارة التبريد، تدرجت السيارة أولاً ببطء، وعند المنعطف أولاً، عندما استدارت إلى الطريق الرئيس، وتركت بوابة المدينة التي بدت لها مثل حصن عسكري كبير، تنفست بعمق أكثر، وعندما لامست العجلات إسفلت الطريق السريع، تطلعت في المرآة، لم تتعرف على نفسها، برود غريب سيطر على ملامحها، برود حيادي أثار الريبة عندها قليلاً، كأنه لا يعود لها، كأن التي تقود السيارة الآن، فتاة تتعرف إليها

للمرة الأولى، فتاة من الصعب العثور على اسم لها هذه المرة، فتاة، حارت كيف تخاطبها، وستحار أكثر لو استوقفها في الطريق رجال شرطة المرور أو الأسوأ لو استجوبها رجال الحسبة، رجال الهيئة، كما يطلق الناس هنا على رجال الشرطة الدينية، بالتأكيد سيظنون أنها شبح لا غير، ليس لأنها لا تحمل أوراقاً تعرف بها، ولا أوراقاً للسيارة، بل أكثر لأنها ذاتها لا تعرف كيف ستجيب، لو سألوها عن اسمها وهويتها، أي الأسماء ستختار؟ آه لو كانت طفلة، لاحتمت بتوأمها آرامكو التي كم اخترعتها لحماية نفسها في تلك الأيام، لكن لا هي عادت طفلة، ولا المطوعة سيتقبلون منها اللعب معهم أو المزاح، لبرهة أغمضت عينيها، وبدل أن تشغل نفسها بالعثور على اسم، ضغطت على دواسة البنزين، طريق سعته الأفق، غبار ورمال، لا شيء غير غبار ورمال، أمامها.

إثم سارة

سارة التي فيها كل ما يسرّ

قبل ولادتها بستة شهور، وقبل أن يعرف أحد جنس الطفل الذي سيولد، أراد أبوها أن يطلق عليها: آرامكو، ففي اليوم الذي أخبرته فيه زوجته بحملها، فكر بأن لا اسم أكثر لياقة وحادثة منه، «مودرن»، سواء كان المولود الجديد ذكراً أم أنثى، كما خاطب نفسه، فيما كان يقود سيارته الـ«جي. أم. سي.» للتوّ باتجاه مدينة الظهران. لا اسم آخر أثار إعجابه، ليس فقط، لما يحمله من لكنة غريبة تختلف عن بقية الأسماء المعروفة حوله، بل أيضاً لأنه منذ أن فتحت الشركة السعودية الأميركية، آرامكو، مكاتبها في مدينة الظهران وهو يرى «كيف أن الخير بدأ ينهمر عليه مثل أمطار غير متوقعة»، كما أضاف وهو يتمم مع نفسه، كيف أن حياته تحسنت بشكل ملحوظ، البيت الصغير الذي حوى حتى سنوات قريبة طابقين فقط، ارتفع بناؤه إلى ثلاثة طوابق، إذا لم يشأ الحديث، عن البيت الجانبي الذي بناه للخدم الآسيويين «الجاوة» كما يحلو لشركائه بالمواطنة تسميتهم، رغم ذلك كان المكان حزيناً، لم يبقَ له سوى «العمل على مولود إضافي جديد»، يطرد عنه وحشة البيت، كما صارع زوجته قبل عام في محاولة منه لإقناعها بترك عقاقير منع الحمل التي كانت تصنعها عرافة هندية تعمل في طب الأعشاب تقيم في الثُّقبة، خصوصاً بعد أن كبر أطفالهم الأربعة، الولدان دخل أكبرهما إلى الجامعة، والثاني دخل المدرسة الثانوية، أما البنتان، فقد

تزوجت الكبرى من ابن عمها، والأصغر منها دخلت المدرسة الثانوية، لكنه عندما رأى البنت التي حملتها القابلة المأذونة له إلى صالون البيت، بعد أن غسلتها ولفتها بمنشفة بيضاء بعناية، تذكر، كيف أن القابلة المأذونة العجوز الآن، حملت قبل خمسين عاماً وعندما كانت ما تزال شابة أخته الصغيرة بالطريقة ذاتها، وكيف أن أباه، طبع قبلة على جبهتها، وقال حينها: «كل ما في البنت هذه يبعث على السرور، سنسميها سارة»، «يا سبحان الله»، تتمم غازي الجاسي بينه وبين نفسه، إنه هو الآخر لم يستطع أن يخفي دهشته، ربما لأنه لا يعرف، أن ما يراه هو تخيل منه أم حقيقة، فهو لا يحتاج للتطلع طويلاً لوليدته الجديدة، لكي يثبت له، أن البنت هذه لا يمكن أن تُسمى غير سارة، ليس لأن فيها مثل أخته كل ما يسرّ، من شعرها الأسود الطويل الذي غطى رأسها الصغير، إلى عينيها السوداوين الكبيرتين، وعدم رغبتها الصراخ على الأقل في ذلك اليوم، مثلما يفعل المواليد الجدد عادة، إلى وزنها الخفيف، كلا، ليس لأنها بدت له صورة طبق الأصل من أخته الصغرى سارة التي لم يرها منذ سنوات، كأن الله بعثها هدية تعوّض له عن أخته الوحيدة التي أحبها حتى العبادة قبل أن تكبر وتختار العيش مع زوج ليس فيه ما يثير الفخر، اختارته هي من دون بقية الرجال فقط لأنها تحبه، بل قبل كل شيء أطلق عليها سارة، لأن كل شيء فيها يسرّ، ابتسامتها المفاجئة، هدوؤها، حركة يدها الصغيرة حين لمسها، كأنها أرادت مفاجأته أيضاً، أو كأنها أرادت أن تقول له: «أنا فألك الجديد في الحياة»، وأن عليه ألا يتردد، ألا يصغي للصوت الذي يجعله يشك ولو قليلاً. يحذره من تسميتها بهذا الاسم، لأنه بهذا الشكل سيحكم عليها منذ البداية بالسير على طريق عمتها: أن تختار الحياة التي تشاء.

وُلدت سارة في ساعة مبكرة من صباح يوم 22 سبتمبر 1980، في ذلك اليوم كان على أبيها، غازي الجاسي الخروج مبكراً لتوقيع أول عقد لصفقة تجارية كبيرة حصل عليها في حياته، صفقة تجهيز وحدات الطيران العسكرية الأميركية التي

حلّت قبل أسبوع من ذلك التاريخ على القاعدة العسكرية الأميركية في الظهران، ومعها حلّ سرب طائرات أواكس، لكنه وقبل أن يخرج من البيت، صاحت به زوجته، أن ينادي على القابلة المأذونة، قالت له، إنها تطلق، «أمر غريب» قال لها، لأن تطابقاً مع حسابه هو، ما زال هناك أمام ولادة الطفل شهران آخراً، لم يكن أمام الزوجة في حينه غير أن تنظر إلى زوجها بدهشة، ابتسمت رغم الآلام التي استحوذت عليها، إنها المرة الأولى التي يحسب فيها زوجها معها أيام الحمل، فمتى اهتمّ بذلك؟ أربعة أطفال ولدت حتى الآن، لم يعنه الأمر كما هي الحال الآن، مرتين أو ثلاثاً ربما، لم تعد تتذكر، ظلت جالسة وحدها مع القابلة المأذونة، ثلاثة أيام أو أربعة تنتظران قدومه من رحلة تجارية، لكي تسجل الاسم الصحيح للطفل، لكي لا يثور ويغضب، كما فعل معها عند ولادة ابنتها الثانية، آنذاك لم يكن في البيت، انتظرت عودته أسبوعاً كاملاً، وعندما يئست من عودته مبكراً، سمتها حُدام، فما كان منه إلا أن غضب، «حُدام»، لماذا لم تسجلها باسم «جدام»، وعندما ردّت عليه، أن عليه أن يسكت، لأن حُدام هي إحدى زوجات النبي، مثلما هي إحدى زوجات الملك، لم ينبس بكلمة، والآن، لا يفاجئها، بأنه حسب كل يوم وكل ساعة، ربما كل دقيقة، لكي يعرف يوم ولادتها وحسب، بل لم يعترض على الذهاب بنفسه إلى القابلة المأذونة العجوز، مزنة، بدلاً من ذهابه إلى عمله.

لم يكن بيت القابلة المأذونة قريباً من بيتهم حقيقة، يحتاج على الأقل نصف ساعة حتى يعود بها، ولو رفض تلبية طلبها لتفهمت الأمر، فالصفقة التي سيوقعها اليوم هي صفقة العمر، ثم إنه على يقين، أنها في شهرها السابع، وربما ظنت، أنه كان يمزح معها، أو أنه سيتركها وحدها مع طلقها كما حدث في المرات السابقة، لو لم تره يعود ربما بعد عشرين دقيقة أو أكثر، كأنه هو الآخر مثل الطفل الذي بدأ يرفس في البطن، مستعجلاً ولادته أيضاً، لم تشعر كم من

الوقت مضى عليها في استلقائها على الصوفا الكبيرة وسط صالون البيت، فعندما فتحت عينيها، رأت القابلة المأذونة، وهي تخاطب خادمتين هنديةتين، أن تغسلا الطفلة بعناية ثم تلفها وتخرج بها، قالت لها، ستريها إلى زوجها قبل أن يذهب إلى عمله، كان بوّدها أن تأخذ الطفلة قليلاً، لكنها كانت مرهقة، لا قدرة لها حتى على إخراج صوت ولو تُرك الأمر لها لنامت في تلك اللحظة، لبرهة رأته يدخل عليها وفي يديه الطفلة، رأته يبتسم أيضاً، ويمسك يدها، لا تدري لماذا بكت، ربما لأنها افتقدت ذلك في ولاداتها السابقة أو ربما، وهذا على الأرجح، رأته ذلك في أحد الأفلام الأميركية وأرادت تقليده، كما فعلت في مناسبات أخرى، قال لها: «سنسميها سارة»، ولكي لا يحصل سوء فهم بينه وبين زوجته، تنحنح وعلق: «ليس لأنها ستحمل اسم أختي، بل لأن كل شيء فيها يبعث على السرور، مثلما يقول اسمها»، ثم ناول الطفلة إلى مزنة وقال: «صحيح ما أقوله يا مزنة؟»، وقبل أن ينتظر جواباً، ودّع غازي الجاسي زوجته وخرج.

ليست تلك هي المفاجأة الوحيدة التي حملتها سارة، فهي الوحيدة من إخوانها وأخواتها التي وُلدت قبل مجيء القابلة المأذونة وبمساعدة خادمتين هنديةتين فقط، أم وابنتها، ففي مساء يوم 22 سبتمبر، في يوم ولادتها اندلعت الحرب العراقية الإيرانية، ومن تكهن في ذلك اليوم بأن الحرب تلك ستنتهي بعد أيام أو أسابيع أو إذا طالت فلن تطول أكثر من شهرين، كان سيعرض نفسه إلى سخرية غازي الجاسي، فهو عرف أن الحرب تلك ستطول وستطول وأن لا نهاية ستكون لها في الأفق القريب، ولماذا عليها أن تكون بغير ذلك؟ فكلما طال الحرب طال عقود عمله، وزادت ثروته، ذلك ما عرفه من الحركة العسكرية المكثفة في القاعدة العسكرية، طائرات تقلع، وأخرى تهبط، سيارات عسكرية تنقل معدات مختلفة، مدافع مضادة للطائرات، وسيارات أخرى تنقل مجموعات كبيرة من الجنود، بل حتى جلسة العمل هناك قالت له كل شيء، إن هذه

القاعدة رديفة للحرب، الكل يعرف أنها أكبر قاعدة عسكرية جوية بناها الأميركيان في المملكة، هو الآخر أيضاً، كانت معرفته لا تختلف عن معرفة بقية سكان المنطقة الشرقية، لكنه عندما دخل إلى القاعدة للمرة الأولى قبل ستة شهور، من أجل التفاوض مع العسكري الأميركي المسؤول عن شؤون التموين الخاصة بالقاعدة، دانييل بروكس، اكتشف أن عليه أن يترك كل ما سمعه عن القاعدة عند مدخلها، سواء ما سمعه من الآخرين ليس سكان مدينته وحسب، بل من عموم سكان المملكة، وفي مناسبات عديدة، أو سواء ما سمعه من العسكري الأميركي نفسه، الذي سبق وأن تعرف عليه في ميناء الدمام، ففي كل زيارة له في مكتب شركته، شركة الأحلام للاستيراد والتصدير، أو تلبيته لدعوته إلى الغداء معه في أحد مطاعم المدينة الفاخرة أو في الميناء، لم يخف هذا الرجل الطيب من تمنياته له، بأن يراه مقاولاً كبيراً من طراز اللبناني رفيق أبو ديغول، أو على الأقل مقاولاً في القاعدة العسكرية في الظهران، «ذه موذر أوف أول ذه باسيس وات وي هاف إن ذه كينغ دام»، قال له، ربما منحته تلك الجملة بالذات تصوراً عاماً عن القاعدة، لكن الصورة الحقيقية لها ظلت غائمة بالنسبة له، ولماذا كان عليه أن يشغل نفسه بها، طالما أنه لا يقوم بتجهيزات المؤونة هناك.

لقد فاقت القاعدة العسكرية كل تصوراته، بكبرها وحجمها بحركتها، بطريقة بنائها، ببناء المكاتب والبيوت في داخلها، إنها أقرب للحصن وإنه فخور بدخوله إليها، منذ مغادرته الحصن في تلك المرة وهو يحلم بدخولها مرة أخرى، ها هو حلمه يتحقق، بل وأكثر، فهو لا يدخلها كزائر مثلما فعل آنذاك، بل في هذه المرة كشريك، وشكراً للويتنانن دانييل بروكس، الذي وفي بوعده مباشرة، جاءه ذات يوم، وقال له، بأنه سينتقل إلى القاعدة الجوية في الظهران، رغم أنه أحب العمل في الميناء، بل وأحب المدينة كلها، العدامة وحي الزهور وسوق عيال ناصر، لكنها الأوامر، ماذا عليه أن يفعل، لكنه على الأقل، يريد أن يقدم

هدية لصديقه غازي الجاسي بمناسبة ولادة ابنته سارة، وإذا كان لم يستطع مساعدته أو التعاقد معه للتموين في القاعدة البحرية في الدمام، بسبب وجود متعهد آخر، فإنه سيفعل كل ما في وسعه لكي يحصل على مقاولات التموين في القاعدة العسكرية في الظهران، وهذا ما حدث بالفعل. أيّ فال حسن جلبته سارة إذن مع ولادتها؟ شريكه السابق الذي ورث حصته في الشركة من أبيه الذي كان شريكاً لوالد غازي أيضاً، قال له، إن رجلاً مهماً، شيخاً في الهيئة، هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أخبره أن الصفقة جاهزة تماماً، وقعها الضابط الأميركي عن الأميركان وهي تنتظر توقيع الطرف السعودي هو، ولو كان القانون يسمح لوقعت الهيئة بنفسها ذلك العقد، لأن من غيرها يستطيع الإشراف على سلامة التجهيزات، وخصوصاً تجهيزات المواد الغذائية، لكن القانون لا يسمح لهم، هم شرطة دينية وحسب، هو سيوقع باسم الشركة وهم سيأخذون النسبة التي اتفقوا عليها، - حصتهم - ، ربما كان قلقاً بالفعل، كأن يكون خشي مثلاً أن يغير الأميركان رأيهم في اللحظة الأخيرة، لكن ولادة سارة قلبت الأمور رأساً على عقب، وهو منذ أن رآها لا يستطيع، إلا أن يفرح، إنه يشعر بنفسه ملكاً، لا داعي لأن يتلفت يميناً ويساراً، فهو يتحدث مع نفسه، لا أحد يجلس معه هناك، سيسمعه وسيشي به بسبب مقارنة نفسه بالملك.

نصف ساعة استغرق الطريق من بيته في الحُبْر وحتى الظهران على غير عادته بسبب ازدحامه بالسيارات العسكرية، لكنه لم يشعر بها أبداً، كان رأسه ممثلاً باسمها هي فقط، سارة، وعندما أصبح عند باب مكتب مقرّ القاعدة، فكر وقبل أن تطأ قدماه عتبة المكتب، بأنه ما إن يعود إلى البيت، سيقول لزوجته، مشاعل: «اسمعي، حان الوقت لأن أبدأ بترميم سطح البيت، سنبنى غرفة كبيرة لابنتنا، لا بدّ لها أن تعيش بشكل مودرن، عصري على راحتها هناك». ربما جعلته كلمة «مودرن» نفسها، يبتسم، لأنه رأى العسكري الشاب،

يستطيع أن يقول صديقه، اللويتنانت دانييل «بروكس»، يتسم هو الآخر، ويقول له: «شور، يو آر فيري هيبي توده؟»، سعيد جداً اليوم؟ أي سؤال؟ «طبعاً، طبعاً»، أجاهه غازي الجاسي متلعثماً، قبل أن ينتبه ويصحح جملته، بأنه يقف في مكتب العسكري الأميركي، «دانييل بروكس»، المسؤول عن تجهيزات القاعدة العسكرية في الظهران، وأن عليه الحديث معه بالإنكليزية: «أوه، أي مين، يس ماي فرند»، صحح غازي جملته، ثم أضاف: «يس، تانكيو، أي أم، فري هيبي، ماي فرند»، فأجاهه: «دزنت ميتير»، ثم صافحه وأضاف: «ذات أز ماي جيفت فور يور نيو كد».

حتى القابلة المأذونة مزنة لم تخف دهشتها، قالت لمشاعل: «جميع أطفالك السابقين ولدتهم بيدي، لكن بنتك هذه تختلف عنهم جميعاً»، ليس ذلك وحسب، بل أخبرتها، بأنها طوال خبرتها في التوليد لم ترَ طفلاً مثل هذه الطفلة، ولم تسمع من زميلاتها المولدات بقصة ولادة شبيهة، هذه البنت، قالت لها، كانت مستعجلة، تريد الخروج من بطنها بسرعة، اليوم قبل الغد، ابتسمت مشاعل، لا حاجة لأن تقول لها مِزنة ذلك، فهي تعرف ذلك، لم تنتظر بنتها طويلاً، فما إن بدأ الشهر السابع من حملها حتى بدأت ترفس في أحشائها، في اليوم الأول من الشهر السابع، ولم تصدق مشاعل ذلك للوهلة الأولى، فكرت، أنها آلام عادية تأتي إليها وتذهب، لكن عندما بدأت الركلات تزداد في اليوم التالي، عرفت، أن الطفل في بطنها هو الذي فعل ذلك، وأن ساعة ولادتها حانت، وعندما أوت إلى فراشها تنتظر مجيء القابلة المأذونة، لم تعتقد أنها ما إن ترمي بثقلها على الفراش وتمدد فخذها، حتى تشعر بضغط أكبر أسفل البطن، ضغط جعلها ترمي بلبساها الداخلي بسرعة، وفتحت فخذها على سعتهما، وحتى في حركتها تلك، لم تمهلها الطفلة الوقت الكافي، ولحسن حظها كانت حاضرة الذهن بشكل كافٍ لأن تصرخ بالخادمة الهندية أن تأتي إليها، كان رأس الطفلة يطل من فرجها،

عندما جاءت الخادمة راكضة مع ابنتها، وعندما طلبت الخادمة من ابنتها أن تجلب لها طشت ماء، كانت الطفلة قد دفعت بجسمها كله خارج مهبل أمها، لم تكتفِ الطفلة بذلك، بل زحفت بعيداً عن حضن الأم، وراحت يديها تعبت بحبل الصرة، حتى الخادمة الهندية التي رأت ذلك، ووصفت للقابلة المأذونة ما حصل لمِزنة بلغة عربية مكسرة، لم تستطع إخفاء دهشتها، وما إن رأت القابلة تسخن الماء وتعتني بالطفلة، حتى ذهبت إلى غرفتها، جلبت طاسة مليئة بالبخور، أشعلتها وراحت تطوف بها في الغرفة، أرادت طرد العين الشريرة عن البنت، كما قالت لهم، لكن من أين لها الخادمة الهندية أن تعرف أن هذه البنت لا تحتاج إلى مساعدة أحد، قالت مِزنة لمشاعل التي استفاقت بعد وقت قصير من غيبوبة ربما استمرت لساعة أو ساعتين، «من يولد وحده، لن يعتمد في حياته على أحد». والأكثر غرابة بالنسبة لمِزنة، وهذا ما ثبت لها مباشرة بعد الانتهاء من غسل البنت، هو أن هذه البنت ومنذ لحظة ولادتها الأولى لا تريد الاستقرار في مكان، من غير المهم أين ستكون، في يدها أم في الحضان، تشعر بجسدها يريد النط من مكانه، إنها متوثبة دائماً.

«ربنا يحميها من الشر»، قالت لها مِزنة، وهي تجففها، لأن ما تقوم به البنت هو إشارة مبكرة منها لما ستكون عليه في المستقبل، «وما هي الإشارة التي تبعث بها؟» سألتها مشاعل، وهي تمدّ يديها ناحية الطفلة، هل تقصدان أنها ستحب السفر؟ «كلا» أجابتها مِزنة، وهي تضع البنت على صدر أمها، «ابنتك لن تشعر بالراحة إلا عندما تكون في كل مكان، إنها مثل طير يكره الاستقرار على شجرة، يطير في كل مكان». طبعاً بقيت جمل مِزنة غامضة بعض الشيء، ليس لمشاعل وحسب، بل أيضاً للأب، غازي الجاسي، لكن بقدر ما جعلت كلمات القابلة المأذونة مشاعل تقلق في ذلك اليوم، بقدر ما جعلت الكلمات ذاتها الأب يشعر بسعادة مضاعفة. قال لزوجته التي زارها في غرفة النوم مباشرة بعد

عودته، «كل شيء في هذه البنت يعني الخير». من غير المهم ما قالته القابلة المأذونة، ثم أخرج لها من جيب الدشداشة العقد الذي وقَّعه قبل ساعات مع اللويتنانان الأميركي دانييل بروكس، «شوفي هذه الأوراق»، ثم راح يلوح بها بسرعة، «هذا العقد ما سيجعلنا نظير، كل الخير جاء مع سارة»، قال لها: «لا تقلقي»، ثم نظر إلى ابنته، فلم يجدها على الفراش الذي استقرت عليه قبل لحظة، كأنها أرادت أن تؤكد له بنفسها ما تكهنت به القابلة المأذونة قبل ساعات، أرجعها أبوها إلى مكانها، إلى صدر أمها، قبلها على جبهتها ونهض، وقبل أن يخرج، نظرت إليه مشاعل، مسكت يده وقالت: «هذي البنت تجعلني أخاف كثيراً يا غازي»، فابتسم زوجها وقال لها مماًزحاً عليها أن تصلي على النبي، بالتأكيد جاء خوفها لأنها كبرت ونسيت ماذا يفعل الأطفال الصغار، أمر طبيعي فالبنت هي أصغر حتى من حفيدتها، ابنة ابنتها الكبرى، قال لها وهو يلف غترته على رأسه، عليها أن تشعر بالشباب بعد ولادة البنت الحلوة هذه، رغم سماعها للمرة الأولى في حياتهما الزوجية ذلك الإطراء، أرادت أن تقول له إن قلبها يقول لها إن هذه البنت تختلف عن بقية البنات، لكنه خرج بسرعة، قال لها إن عليه أن يذهب إلى مقرّ الهيئة، عليه أن يعطي حصة رجال الحسبة نقداً، خرج وتركها وحيدة مع أفكارها، ربما كانت مجهدة بالفعل، قالت مشاعل لنفسها، ربما سيختلف الأمر غداً أو بعده، عندما تتحسن حالها، دون أن تعرف أنها ستردد الجملة ذاتها مرات عديدة لاحقاً، ليس لأنها مجهدة، بل لأن البنت، كما توقعت مِرنة، وكما حدثت تختلف بالفعل عن أختيها وأخويها الآخرين، بل تختلف عن كل ما رأته مشاعل من أطفال حتى الآن.

لم تولد سارة كما يبدو، لكي تُربط بشجرة، فهي كانت في حركة دائمة، لأنها مبكراً وفي ذلك الوقت بدت تبحث عن خلوة لنفسها، حتى في فترة الرضاعة أبدت اختلافاً عن بقية الأطفال، كانت أمها تصرّ على رضاعتها مثلاً وبشكل

متواصل، لم تكن راضية عن الوزن الذي وُلدت فيه الطفلة، 2260 غراماً؟ وزن قليل، حقيقة، الطبيبة الأميركية في المستشفى الخاص أصلاً بأطفال العاملين في القاعدة الجوية الأميركية في الظهران أسمعها كلاماً شبيهاً، أوصتها بالتركيز أيضاً على أكل النشويات والفيتامينات، أن تقلل من أكل الدهون، لكي تنمو ابنتها بصورة طبيعية، كيف لها أن تُكذب طبيبة أميركية، كان لا بد لها أن تفعل ذلك، منذ زيارتها الوحيدة لتلك الطبيبة، (لأن غازي الجاسي، لم يشأ أن تذهب زوجته مرة أخرى، قال لها: «على الناس ألا يقولوا، إننا ولدنا طفلة مريضة؟») منذ زيارتها لتلك الطبيبة وهي تواظب على رضاعة سارة بعناية، لكن البنت، ربما تقبلت الرضاعة لدقيقة أو دقيقتين، مرة أو مرتين، بالتأكيد في اللحظات التي كانت تشعر فيها بجوع حقيقي، ولدهشة والديها بل ولدهشة مِرنة ومعها الدكتور باندي، طبيب الأطفال الباكستاني الذي ذاعت شهرته حديثاً في المنطقة الشرقية في تلك الأيام، لدهشة هؤلاء جميعاً، فلكي تعبر سارة عن نفورها من رضاعتها المتكررة، لم تبك أو تصرخ كما يفعل بقية الأطفال، كانت تكتفي في الأيام الأولى بإبعاد فمها عن حلمة الأم وبفرك عينيها، وهي تدفع بكل ثقلها إلى خارج ذراعي الأم، وكانت كلما شعرت بألمها تسحبها ناحيتها، أصرت على إغلاق فمها أكثر، من غير المهم أن الأم تدفع بأحد ثدييها إلى ما بين شفطي البنت، وكثيراً ما كان المشهد هذا يتكرر: الأم تفتح الفم بالقوة والبنت الصغيرة تصر على إغلاق الفم وتشيح بوجهها بعيداً، ذات مرة رآها زوجها غازي الجاسي تفعل ذلك، اعترض عليها، قال لها إنها ستخفق ابنتها، عليها أن تتركها على سجيته، فقالت له: «لكنها يجب أن تتغذى، علينا أن نجد حلاً وإلا فستموت ابنتنا في يوم قريب».

منذ ذلك اليوم بدأ أبوها يجلب لها حليب نيدو في العلب، وعلى عكس ما توقعته أمها، بأنها ستكره مثل بقية الأطفال حليب العلب، أحبت سارة الحليب، ربما لأنه منحها بعض الحرية، فشربه من القنينة هو غير التغذية من ثدي الأم،

ليس ذلك وحسب، بل رأت الأم سعادة على وجه الطفلة، كلما جلبت لها علبة الحليب المجفف، وفي أي وقت تشاء، فقط عليها أن تتركها وحدها تأخذ الحليب المعب، تمص من الرضاعة، ولم تستطع منع ضحكها عندما رأت، كيف أن ابنتها اكتشفت في العلبة وسيلة جديدة للانعتاق من المهد الذي كانت تمددها فيه غالباً بعد لفها بالقماط، فهي وبعد مصها للرضاعة لدقائق قليلة، تبدأ باللعب بها، ترميها خارج المهد، أمر يعني أن على الأم أن تخرجها وتتركها على هواها على الأرض، الشيء نفسه كانت تفعله مع القماط، فبالنسبة للأم كان تقيط البنت أمراً روتينياً تعرفه مثل أي أم، وهي لم تفعل غير ما كانت تفعله جميع الأمهات، فكل ليلة وبعد الانتهاء من رضاعتها تلفها الأم بالقماط، قطعة قماش من القطن الخالص، احتفظت به الأم منذ آخر وليد لها، قماط ابنتها الأكبر من سارة، لكنها البنت التي تقاوم بشراسة، إذ ما إن تشعر بقطعة القماش تلتف حول جسمها، حتى تبدأ بالصراخ، صحيح أنها لم تصرخ، لا في ولادتها ولا في الأيام التي تلت، لكن في تلك الليالي تبدأ بالصراخ بقوة، ذات مرة ظننت الأم، أنها ربما لا تستسيغ لف جسمها بالقماط نفسه الذي لفت به الأم أختها، اشترت قطعة قماش جديدة، وعلى عكس ما ظننته الأم، لم يبدل القماط الجديد من رد فعل ابنتها، والغريب في الأمر، لم يكن رفضها بسيطاً، كان أشبه بمقاومة، كانت تقاوم بيديها وترفس برجليها، وكانت الأم تصر على تقيطها، تعترض على زوجها الذي طلب منها أكثر من ليلة أن تكف عن ذلك، كانت تقول له، إن القماط مهم لنمو العظام، يجب أن تكون البنت قوية العظم، رغم أنها لكي تنجح بتقيط ابنتها، كان عليها الدخول في معركة معها، معركة خاسرة سلفاً. كل المعارك التي دخلت فيها الأم مع الطفلة كانت نتائجها محسومة لصالح الطفلة، ليس فيما يتعلق بعلبة الحليب والقماط، بل في الفطام أيضاً.

عندما ستكمل سارة السنة الأولى من عمرها وتدخل في عامها الثاني، وبالضبط

عندما يبدأ اليوم الأول بعد عيد ميلادها الثاني، كانت الطفلة الصغيرة انتهت من الواجبات الثلاثة التي أرادت فرضها عليها الأم، ما ينطبق على الأطفال الآخرين، لا علاقة له بسارة، وهذا ما ثبت ليس للأم وحدها، وليس للقابلة المأذونة قبلها، وليس للخاديمات الهنديات، أو لأبيها غازي الجاسي، لإخوانها وأخواتها، أو لأقاربها الذين زاروهم من فترة إلى أخرى وحسب، بل أيضاً للجميع، حتى من غير هؤلاء، كل من رأى البنت في تلك السن الصغيرة، حتى دخولها إلى المدرسة، كل من مزح معها، ناغاهما، قال، إن هذه البنت تختلف عن البنات الأخريات تماماً، وهي من طرفها، كأنها سمعت تعليقات أو تهامس الآخرين بشأنها، لم تبخل من طرفها بتقديم كل ما يغذي هذا الانطباع ولم يعرف أحد، إذا كانت فعلت ذلك عن وعي أم إنها تصرفت حسب نداء داخلي ألحَّ عليها، لا يهم، كانت دخلت للتو السنة الثانية من عمرها عندما حسمت سارة كل معاركها مع الأم بنجاح، لم ترضع الحليب كما شاءت الأم، لم تلبس القماط، استعجلت فترة فطامها، مثلما استعجلت قبلها الولادة وجاءت إلى العالم في شهر الحمل السابع، بكلمة واحدة فرضت كل ما يجعلها تتحرك بحرية، كل ما سيشكل النموذج الذي ستسير عليه حياتها في السنوات التي تلت، سواء سنوات الطفولة حتى دخولها إلى المدرسة الابتدائية أو السنوات التي تلت ذلك ما يؤكد، أنها لم تولد لكي تربط بحبل صرة أو حبل قماش كما فعلت الأم معها وهي صغيرة في بعض الأحيان، بل لم تولد لكي تُربط بشجرة، إنها ببساطة فسيلة تنمو وحدها في بستان!

كيف يمكن تعريف الطفل المعجزة؟ هل يحق لنا قول ذلك، لأن الطفل يختلف عن غيره؟ هل يمكن الحديث عن سارة بصفتها طفلة استثنائية أيضاً؟ طبعاً هي مسألة لها علاقة بزاوية النظر التي يعاين بها المرء الأمر، لها علاقة بكل أولئك الذين عرفوا سارة في تلك السنوات أو ربما لاحقاً، خصوصاً أولئك الذين رافقوا تطورها، وليس المقصود هنا أهلها طبعاً، لأن العائلات تنظر إلى تطور

أطفالها كما لو كان طبيعياً، رغم أن هناك أطفالاً يكشفون عن ميل بالاختلاف عن أقرانهم مبكراً، وهذا ما حدث لسارة، إذ بدا تمرداً لها أمراً طبيعياً، غريزياً، كان ذلك هو الدرس الأول الذي تعلمته في حياتها، منذ أن كانت صغيرة، ومنذ أن عرفت أن أباه، كان أول شخص منحها هذا التمييز، منذ أن بدأت بالخروج معه، أمر لم يفعله مع أيّ واحد من أطفاله قبلها، هذا ما وصل سمعها في أحاديث أخواتها أو أمها، وهي من طرفها كانت تراه كيف كان يتطلع إليها في بعض المرات بعمق، المرة الأولى التي شعرت بها بذلك كانت تجلس على المقعد الأمامي إلى جانبه، لبست ثوباً أبيض فيه شرابيب وكان هو يقود سيارة الجي. أم. سي. على عادته كل صباح في طريقه إلى القاعدة الجوية الأمريكية في الظهران، في تلك الساعات المبكرة من الصباح، كانت نظراته تعبر عن التفكير، تتذكر أيضاً، كيف أنها رآته يعبس قليلاً، قبل أن يبدأ بمعاينتها من حين إلى آخر كأنه خاف من أمر ما سيحدث في أية لحظة، لحظة جلوسهما في السيارة أو لاحقاً كأن يفقدها فجأة، إذا لم يحدث ذلك على الطريق السريع فسيحدث بعد أيام، سيحدث في وقت ما؟ ثم رآته يضع يده على صدره، كانت تلك هي المرة الأولى التي رآته فيها يمسك قلبه كأنه شعر في حينه بوخزة بسيطة لكن مؤلمة في الجهة اليسرى من الصدر، لم تدرِ في حينه، إذا جاءت الوخزة تلك من ألم عضوي كأن يكون قلبه شاخ أم جاءت بسبب الهاجس الذي بدأ يلح عليه منذ ذلك اليوم أن ليس هناك ما يجعله يشعر بالراحة لما يخبئه المستقبل لابنته هذه؟

تري هل كانت تلك هي المرة الأولى التي شعر فيها بخوف على إحدى بناته؟ على عكس ما جرى للبنيتين الأخريين، أسماء وحُذام اللتين كان مجيئهما للعالم أمراً حياً بالنسبة له، فهما وُلدتا ذات يوم، مثلما حملت بهما أمها ذات يوم، لم يشكل له وجودهما في البيت أمراً استثنائياً، بل لو لم تتحدث عنهما زوجته من حين إلى آخر، لكان نسي أن له ابنتين في البيت، لكن مع سارة، كما سمعته ييوج

لها لاحقاً، اكتشف للمرة الأولى سعادة أن تكون عنده بنت، ليس من الغريب أن تصبح هي طفلة المدللة بلا منازع كأنها ابنته الوحيدة، بل كأنها طفله الوحيد؟ كما يعرف الجميع، الرجل في هذه البلاد هو الذي يقرر في نهاية المطاف، لنقل إنها جاءت برغبة منه، وهو لم يعتقد أنه سيصبح أباً من جديد وكيف أنها أعادت له الحياة وجعلته «لا يلتفت إلى النساء الأخريات»، فلدهشته، اكتشف أنه وعلى مرّ السنوات الثلاث الأخيرة، منذ ولادة سارة نسي ولعه القديم، «مطاردة الخادمت»، كما اعترف ذات يوم أمام دانييل بروكس! وهو لا يجد سبباً لذلك غيرها التي جعلته يهتم بها أكثر مما يهتم بأية أنثى أخرى، حتى اللويتنانت الثاني «الأسود»، بروكس، كما اعتاد أن يطلق عليه في أحاديثه عنه في البيت وأمام المعارف الآخرين، حتى بروكس هذا، بدأ يخاطبها هي وأباها بغير أسمائهما، فبعد أن رآه لا يأتي لتفقد سير التجهيزات كل صباح إلا وتكون سارة بصحبته، راح يحييه دائماً: «غود مورنينغ روميو»، أما هي فيقول لها: «غود مورنينغ مس جوليا»، وكان أبوها يضحك للمقارنة، ويقول للويتنانت الأول الأميركي: «يس»، ثم يستدرك قائلاً وهو يكركر: «بيني وبين سارة حب عذري»، ليس في قاعدة الظهران العسكرية وحسب، بل في السوق أيضاً، كان من النادر رؤيته بدونها، حرس القاعدة العسكرية اعتادوا على رؤيتها ومنذ أن تعلمت النطق تنزل زجاج السيارة وتقول لهم كلمة السر لدخول القاعدة، وكانوا في كل مرة، يحيونها: «هاي مام»، في السوق أيضاً، كان بعض زبائنه من التجار يمازحونها، قائلين: «جعلت أباك يعقل يا سارة».

كان غازي الجاسي يعرف، أن الجميع يعرفون، أن سارة هي طفلة المدللة بلا منازع، طفلة التي لم تخضع مثل أخواتها للمراقبة والحساب، على العكس لم يشأ التنازل عن مصاحبته له أثناء العمل أو التسوق، للنزهة أو لزيارة الأقارب، كأنه أراد عن طريقها التعويض عن صداقاته المفقودة، وعندما حذره يوسف الأحمد،

أخو زوجته، - خال سارة - ، من أنه بهذا الشكل سيفسد البنت، ومن الأفضل له أن يبحث له عن صديق بديل عنها، ردّ عليه، إنك تعني نفسك، إنك الصديق المقصود؟ ولم يقل له ذلك، لأنه لا يكره ودّاً لحميه، بل لأنه كثيراً ما تفاخر أمام زوجته، أو أمام أولاده، كلما جاء أحدهم بصحبة صديق، ليس هناك أكثر زيفاً من كلمة صداقة، على الناس أن تخرع كلمة أخرى، زوجته تُرجع عدم ثقته وشكّه بالأصدقاء، بما حدث له ولأخيها الذي كان قبل زواجهما صديقه ولا يفترقان، وكان غازي الجاسي يعتقد أن أباها سيقف إلى جانبه في كل الشجارات التي جرت بينه وبين زوجته، وليس كما فعل دائماً معه كلما ذهب إلى بيت أخيها في مدينة بريدة، من أجل إرضائها وإعادتها للبيت، أسمعته الأخ كلاماً غنياً أكثر من المرة السابقة، بل وصل به الأمر أن يقف في بعض المرات ضد رجوعها إليه، وما في المرتين الوحيدتين اللتين صاحبت فيهما أمها، وكان ذلك قبل دخولها إلى المدرسة سمعت خالها يقول لأبيها، عليه أن يخاف الله ويستحي، ويبطل من مطاردة «نساء الجاوة»، بتلميح منه للنساء الآسيويات، وأن مقام أخته أرفع وأعلى من خادما ت قادمات من بنغلاديش والهند والباكستان، وكان عندما يهزأ منه غازي قائلاً، إنه يقول ذلك للغيرة، لأنه لو كان الأمر بيده لفعل الأمر ذاته، لكن انشغالاته الدينية ليل نهار، وزواجه من أربع نساء، لم يترك له الوقت للبحث عن الملذات، وكان صديقه «السابق» يجيبه، ليس هناك ألدّ من كلام الله وأفضل من الاحتذاء برسوله قدوة، فماذا تقول؟ كانت محاججات وتعليقات أخي زوجته وصديقه «السابق» تبعث عنده دوخة في الرأس لا غير، ليس هناك صديق، الصداقة غش وخداع، وتسبب تعباً وحرق أعصاب، كما سمعته يردد أمام أمها في بعض المناسبات، دون أن تفهم ماذا يعني كل ذلك بالضبط، لماذا يحذر خالها أباهما من الخادما ت؟ ولماذا تصرخ الخادما ت في بعض الأحيان، عندما ترينَ أباهما يدخل إلى المطبخ؟ في تلك الأيام هي لم تشغل ذهنها بأمر أبيها أو بأمر الخادما ت.

لم يخلُ حديث أبيها وتفاخره بصداقته بها من المبالغة، وإنه كان يعبر عن أمنية دفينه في داخله لا غير، وفيما يتعلق بها - أي - سارة، بدا الأمر مثل تمرين لما سيدمخ سلوكها في المستقبل، وما ميزها عن بقية البنات اللواتي في عمرها، أنها كانت تختار دائماً صديقات أكبر منها في السن، فعندما كانت في الثالثة من عمرها، كان عمر صديقتها هنادي، ابنة خالتها خمس سنوات، وعندما أصبحت في الرابعة كان سن صديقتها ساجدة ابنة أخيها سبع سنوات، وعندما أصبحت في الخامسة، تركت صديقتها السابقتين، وصادقت جراح التي كان عمرها ثماني سنوات. هكذا كلما كبرت سارة كبر فارق السنوات بينها وبين صديقاتها، في الخامسة من عمرها أيضاً دخلت إلى المدرسة، رغم أن السن القانونية تفترض أن يكون المتقدم للمدرسة في السادسة من عمره لكي يسمح له بدخول المدرسة، لكنها أقنعت أباه الذي لم يرد لها طلباً في يوم من الأيام، تذرّع أبوها أولاً بالقانون، قال لها، لن يسمحوا بتسجيلك في المدرسة قبل بلوغك السادسة من العمر، فقالت له: «بسيطة، تقوم بتزوير تاريخ سجل النفوس». وعندما أبدى دهشته من أين سمعت كلمة «تزوير»، قالت له، بأنها سمعته يتحدث بها عشرات المرات مع رجال الهيئة وهم يقومون بتزوير ماركات التجهيزات، أماكن صناعتها، ثم أضافت، إنها تعرف حتى اسم الكلمة بالإنكليزية، «فكين»، سكت أبوها وطلب منها، ألا تتحدث بذلك أمام أحد غيره، ضحكت، وقالت له: «على شرط أن تلبى كل طلباتي»، ضحك أبوها، ظناً منه أنها تمزح معه، وقرصها من خدها، وقال لها: «لك ما تريدين».

في المدرسة التي أصبحت فيها من مواليد 22 سبتمبر 1979، دخلت سارة ومنذ سنتها الدراسية الأولى بصداقات مع طالبات أكبر من سنها بكثير، وعندما لاحظت معلماتها ذلك، تحدثن مع مديرة المدرسة، أرسلت المديرية بطلب أمها، قالت لها إنها تنظر بعين القلق لتطور ابنتها، صحيح أنها شاطرة ومنتقدة في

الدروس، إلا أنها تتصرف دائماً أكبر من سنّها ولأن أمها تميل للدبلوماسية أكثر من الأب، طمأنت مديرة المدرسة والمعلمات، ووعدها بأنها ستحاول إصلاح ما هو شادّ عند ابنتها، وعندما روت لزوجها لقاءها في المدرسة، صاح بها غازي الجاسي، وقال لها: «لتذهب المديرية ومعلماتها للشيطان، ابنتي حرة وأنا فخور بها، اتركها تفعل ما تراه هي الصحيح». وكانت زوجته تقول له بنبرة لا تخلو من السخرية: «من يسمع كلامك يعتقد، أنك رجل عاقل ومتفهم، لكن العكس هو الصحيح، سلوكك في البيت ومعاملتك لبناتك وأولادك حتى الآن يثبت العكس، لكن لماذا أتكلم معك ولا ينفع معك كلام؟». وفي كل المرات عندما يتشاجران، ينادي كل واحد منهما عليها لأن تأتي وتجلس إلى جانبه، أمها تصيح: «سارة تعالي هنا»، وأبوها يصيح: «كلا، تعالي هنا يا سارة»، لكن في النهاية، غالباً ما يكون الفوز لأبيها، لأن سارة تعرف كيف تتلاعب بأعصابه، كيف تصل إلى ما تريد، وأبوها لا يعرف، أنها كانت ترضي الاثنين، أمها وأباها كل واحد منهما على طريقته، فهي من جهة تعرف ضرورة كسب ميل الأم، لأن الأم هي التي تملك السلطة في البيت ويجب إرضائها لكي تتصرف في النهاية في البيت دون تهديد أمها بإبلاغ أبيها عن كل ما تراه غير صائب من سلوك، ومن الجهة الأخرى تعرف أن الأب هو الذي يملك السلطة خارج البيت، فمن الضروري كسب ودّه لكي تستطيع البقاء معه خارج البيت الوقت الذي تشاء.

ومثلما عرفت سارة كيف توزع ولاءها بين الاثنين، عرفت أيضاً كيف تتصرف بطريقة لا تغيظهما، خصوصاً فيما يتعلق بعلاقتها بأبها، فبالرغم من معرفتها المؤكدة: أن ليس هناك قوة تستطيع تخريب علاقتها بأبيها، جعلها ذكاؤها تحرص ومنذ وقت مبكر على الاحتفاظ بعلاقة ودّ مع أمها، كانت تعرف، أن أمها غير مرتاحة لخروجها الدائم مع أبيها، تريد بقاءها معها في البيت، وهي التي أعابت على زوجها أكثر من مرة، أنه يأخذ البنت دائماً معه، لكي يغيظها، يريد أن يتركها

وحدها في البيت مع الخاديات، لكنه لا يعرف أنه عن طريق ذلك يُدرب البنات على الخروج، «انتظرها تكبر، وستتذكر كلامي»، وكان أكثر ما يخيف سارة، أن يذعن أبوها ويتراجع أو أن يقلل من مصاحبتة لها. ولكي تكسب ودَّ أمها، كانت تصرّ كلما خرجت مع أبيها على شراء هدية لها من السوق، وكانت أمها تبتسم وتفرح لأن زوجها بدأ يهتم بها أخيراً، وكان الأب يسكت غالباً ولا يريد أن يقول لها، عليها أن تشكر ابنته.

ربما ظل تميّزها والذي غذاه تفوقها في المدرسة (احتلت المرتبة الأولى بين زميلاتنا في الصفين الأول والثاني على الأخص) مجرد شعور غامض احتفظت به في داخلها أو على الأقل ظل محصوراً في نطاق عائلتها فقط، وإذا تعدى ذلك، فلن يتجاوز سور القاعدة الجوية الأميركية في الظهران، حيث واضب أبوها على اصطحابه لها، كلما ذهب إلى هناك لتدبير شؤون التجهيزات المطلوبة مع اللويتنانت دانييل بروكس، وما كان يمكن أن يظهر إلى السطح، لو لم يزر مدرستها أحد شيوخ هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو أحد رجال العسبة. كانت في الصف الثالث أو الرابع الابتدائي، لا تتذكر بالضبط، ربما أكملت للتوّ الثامنة أو التاسعة من عمرها، المهم أنها تتذكر تفاصيل ما جرى في ذلك اليوم.

كانوا في بداية فصل الخريف، الوقت الذي تبدأ فيها الأمطار بالهبوط بشكل مكثف، وكان لا بدّ أن يكون العام الدراسي بدأ للتوّ في أسبوعه الأول أو الثاني لأن العام الدراسي يبدأ عادة في المملكة في هذا الوقت، ليس ذلك مهماً، لكن المهم هو أن ما حدث في ذلك اليوم سيدمخ حياتها بدمغته ولسنوات طويلة، وسيجعلها تكتشف أن تميزها الذي كانت تحتفظ به لنفسها وحدها، أصبح واقعاً خارج متناول يدها، ولن يساعدها شيء بالتخلص من اللعنة التي سيدمغها بها الشيخ الذي ستظل صورته عالقة في ذهنها مهما

حييت، وما زاد الأمور تعقيداً بالنسبة لعائلتها في تلك الأيام، ولأبيها على وجه الخصوص، هو أن الشيخ هذا لم يكن أحد الشيوخ العاديين الذين ربما لن يكون لكلمتهم مثل هذا الوزن، إنما كان شيخاً من العيار الثقيل، كان أحد هؤلاء الشيوخ الذين يشرفون على عمل هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يأتون من مركز الهيئة في العاصمة الرياض.

وكان حتى الشيخ نفسه يعتقد أن زيارته الرسمية في ذلك اليوم ستمرّ بصورة روتينية أو «هادئة مشبعة بالإيمان» كما كان يحلو له أن يقول لزملائه شيوخ الهيئة الآخرين، مفتخراً، مثلما مرّت زيارته في الأعوام الماضية، وهو على حق لأن الزيارات التفقدية تلك هي تقليد معروف تقوم به هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في بداية العام الدراسي، تختار فيه كل سنة إحدى المدارس، حصراً في مدارس البنات طبعاً، «من أجل تعليم البنات المسلمات مبادئ الدين الحنيف منذ نعومة أظفارهن»، كما جاء في المنشور المطبوع الذي توزعه عادة الهيئة المذكورة سنوياً وفي مناسبات أخرى خاصة على عموم مدارس المملكة، كما في ذلك اليوم أيضاً، ومهما كان العذر الذي سيُقدم (حتى إذا كان مرضاً)، يُمنع منعاً باتاً غياب الطالبات، ليس هناك عذر لتخلفهن عن الدوام في ذلك اليوم، البنت التي تغيب تُحرم من الدراسة لبقية العام الدراسي، عليها أن تجلس سنة أخرى في صفها، لأن «حضور الطالبات إلى درس الشيخ الجليل هو واجب مقدس عليهن التمتع به في بداية السنة الدراسية»، مثلما هو «دليل على إيمان بناتنا المسلمات» و«منّ يحرمن من متعة عيد الإيمان هذا سينال عقابه اللام على أيدي رجال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

ذلك في المنشور ذاته، أو المطبوع الملون والأنيق الصغير الذي حوى ثلاث أو أربع ورقات عليها صور شيخ ملتج طاعن في السن وبلحية طويلة نزلت حتى الحنك، جلست أمامه بنات صغيرات محجبات مطأططات الرأس، شرح أيضاً

كل تفاصيل طقس ذلك اليوم بكل ما له علاقة بتحضير الطالبات لأنفسهن، من طريقة لبسهن أو شكل قَصَّة شعرهن، «عليهن أن يكنَّ نظيفات»، مروراً بطريقة سيرهن باتجاه القاعة التي سيُجمعن فيها، وانتهاءً بنظام جلوسهن «خاشعات»، كل اثنتين تتجاوران بعضهما بعضاً على المصطبة، كما يوصي بالصمت، بطريقة رفع اليد للسؤال، المنشور يُلزم أيضاً البنات بإبقاء النظرة مصوبة إلى الأرض، «يُنكس الرأس حتى يلامس الحنك الرقبة»، كما جاء على الصفحة الثانية في باب تعاليم الجلوس، «على الطالبات أن يأخذن في سيرة بنات النبي صلى الله عليه وسلم قدوة حسنة»، كل ما جاء في المنشور لم تفهمه البنات بالضبط، من أين لهن القدرة على ذلك، وبعضهن كن بدأن عامهن الدراسي لتعلم الألف باء للتوّ والبعض الآخر ما زلن صغيرات على فهم تفاصيل مثل هذه، كل ذلك شرحته لهن مديرة المدرسة، امرأة في أواسط الثلاثين من عمرها، لم تكتفِ بلبس جلابها الأسود وحسب بل لبست فوقه عباءة سوداء، وحتى العباءة لم تكتفِ بوضعها على كتفها كما تفعل نساء أخريات، بل رفعت العباءة لكي تغطي رأسها أيضاً، رغم أنها وقفت حتى تلك اللحظة أمام بنات صغيرات لا غير.

ليس ذلك وحسب، بل حتى المديرة بدت في ذلك اليوم أكثر صرامة من الأيام الماضية، أمرتهن بالوقوف في ساحة المدرسة، تحت حرارة الشمس اللاهبة من شهر سبتمبر، وعندما انتهين من ترديد نشيد «أحب النبي محمداً وأكره الكفار»، الذي حفظتهن إياه قبل يومين، نادتهن الواحدة بعد الأخرى وطلبت من كل واحدة منهن أن ترفع أصبعها عند سماع اسمها، بعد ذلك قادتهن باتجاه صالة المدرسة الكبيرة.

للهولة الأولى فكرت سارة بالجلوس في المقدمة، لكنها شعرت فجأة بيد ابنة أخيها ساجدة تسحبها متوسلة، تجرّها للجلوس في الصفوف الخلفية، ولو لم ترَ سارة الخوف بعيني ابنة أخيها التي تكبرها بعامين لما أذعنت لها، كانت تعرف

أن من الأفضل الجلوس في المقدمة، إذ فقط بهذه الطريقة يمكن تجنب نظرة المراقبة، من يجلس في الصفوف الخلفية سيكون مجبراً على مواجهة نظرات المراقبة لا محالة، لأن المديرية ستطلع بعينها بعيداً، وليس إلى الصف القريب منها، وبعد أن طلبت المديرية منهن الجلوس بأدب ووقار، أخبرتتهن أن الشيخ الفاضل، القادم من هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، جاء من عاصمة المملكة الرياض، وهو اختار بشكل خاص هذه المدرسة لكي يعطين أول وأهم درس عليهن تعلمه، ليس لأنه أول درس في بداية العام الدراسي فقط، كما شرحت لهن مديرة المدرسة، بل هو الدرس الملزم الوحيد لهن في الحياة.

لا حاجة للمديرة إلى شرح ذلك، فها هنّ الطالبات جلسن جميعاً مرتعبات، مثنان أو أكثر جلسن في زيهن الإسلامي الموحد، عباءة ثخينة غطت أجسامهن الصغيرة، ظهرن فيها مثل شخصيات كاريكاتورية، ذكّرت سارة بالسيدة ملعقة، المرأة القصيرة القامة التي لها القدرة على تغيير جسدها حسب الحاجة وتتحول إلى ملعقة إذا استدعى الحال، والتي رأتها مرات عديدة في أحد أفلام الكارتون التي واظبت على مشاهدتها، أما الشيخ الضخم الجثة الذي دخل إليهن والذي بدا منظره بدشداشته القصيرة غريباً لسارة، فبطريقة ما ذكّرها ما لبسه بالتناير النسائية، من أين لها أن تعرف أن اللباس ذلك هو الزيّ الموحد الرسمي الذي يلبسه أعضاء هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أرادت أن تسأل صديقتها التي شاركتها في جلوسها، ابنة أخيها ساجدة، لكنها عندما لاحظت اشتداد ارتعاش جسمها كله عدلت عن الأمر، تساءلت، إذا كانت ابنة أخيها التي تكبرها بثلاثة أعوام مريضة أو تشكو من شيء، فمن الغريب أن يرتجف المرء في يوم حار مثل ذلك اليوم، حتى المكيفات الهوائية لم تعمل فيه كما هي العادة، لكنها عندما تلفتت حولها، رأت كيف أن جميع الطالبات، حتى أولئك اللواتي كنّ أكبر سنّاً منها أو في سنّ ساجدة سكتن وطوين أذرعهن حول أجسامهن، لففن عباءتهن بعناية، كأن برداً لسعهن.

هذه المرة ظنت أنها هي المريضة، لأنها الوحيدة التي تصبب العرق وبغزارة على جبهتها، ولم تعرف حتى تلك اللحظة سبباً لتعطيل عمل مكيف الهواء، وعندما سيطر الصمت تماماً، عندما لم يعد يُسمع حتى اصطكاك الأسنان وارتجاج البنات، عندما لم يعد تُسمع حتى الأنفاس، جلس الشيخ في المكان المخصص له، كان رجلاً طاعناً في السن، ربما في أواسط السبعين من عمره أو ربما أكثر، لكنه عندما جلس على كرسي كبير ذُكرها بكرسي شبيه رأته في التلفزيون، ربما الكرسي ذلك المخصص لملك البلاد، كل شيء كان لافتاً للنظر في الشيخ هذه المرة، إذ كان بإمكان سارة التطلع من مكانها في الصفوف الخلفية، لترى الغترة المرقطة التي لفها الشيخ على رأسه، لحيته الطويلة التي لم يتوقف عن تمسيدها، لحيته المدببة المصبوغة بالحناء وعينيه الغائرتين، اليمنى منطفئة، ربما عمياء واليسرى التي كان البياض واضحاً فيها، عوراء، لا تتذكر أين رأتها، ربما على صورة كبيرة عُلقَت في أحد مقاهي الحُبْر أو الدمام حيث اصطحبت أباهَا ذات يوم، أو ربما رأته في التلفزيون بشكل عابر في النشرة الإخبارية. كانت سمعت اسمه يُكرر على أكثر من لسان، اسمه ربما «عبد العزيز بن باز»، أو «عبد العزيز صقر»، لا تدري، لكن الشيخ الذي جلس في مقدمة الصالة لا يختلف عنه كثيراً في منظر وجهه الكبير، في منظر عينيه المنطفئتين، في منظر دشداشته، عباءته، غترته، بل حتى طريقتَه بتمسيد اللحية، بطريقته بالكلام، لبرهة بحلقت عيون البنات بغم الشيخ بانتظار كلماته الساحرات، الشيخ هو الآخر لم يبخل بالتحديق بهن بعينيه المنتفختين، لمس بيد غترته البيضاء التي غطى بها رأسه وباليد الأخرى مسد لحيته الطويلة البنية، وقبل أن يبدأ بإلقاء خطبته الموعودة عليهن، صنع إشارة بهزة من رأسه ناحية المديرية التي وقفت وقد غطت شعرها بربطة سوداء، بينما لبست جلباباً أسود غطى جسمها في ذلك اليوم الحار، رفعت المديرية حقيبتها اليدوية التي استقرت على كرسي قريب،

وأخرجت منها كيساً كبيراً احتوى على حلوى، كانت الحلوى على نوعين، النوع الأول كان ملفوفاً بغلاف الماركة الأصلية بها والنوع الآخر بدون الغلاف، وطلبت من كل طالبة أن تأتي وتختار الحلوى التي تريد.

وبعد أن انتهت المديرية من توزيع كل ما تسلمته من حلوى، سلمت الكيس للشيخ، نظر الشيخ إلى بطن الكيس ثم إلى الطالبات، وقال: «ها أنا رأى، كيف أن جميع الطالبات أخذت الحلوى ذات الغلاف»، فسألهن: «لماذا لم تأخذن إذن الحلوى التي ليس عليها غلاف؟» فكان الجواب، «لأن الحلوى التي ليس لها غلاف وسخة فيها ميكروبات وبالتالي تضرنا»، فقال لهن وهو يبتسم ابتسامة المنتصر، كأنه انتظر من الطالبات هذا الجواب لا غير! «هذه الحلوى مثلكن والغلاف هو مثل الحجاب، فعندما يأتي الرجل ليتزوج سوف يبحث عن الصالح المفيد مثل الحلوى المغلفة، هل فهمتن؟». سألهن فيما لم تتوقف يده الثانية الفارغة من تمسيد لحيته، أعاد الشيخ الكيس للمعلمة، وتمتم: «بسم الله الرحمن الرحيم»، ليس لمرة واحدة، بل أعاد تلك الجملة مرتين أو ثلاثاً، وبنبرة حملت بعض الرهبة، رهبة ازدادت مع تكراره للجملة، كأنه أراد بهذا الشكل إجبار الطالبات على الإصغاء له أيضاً؟ لبرهة سكت، حرك رأسه يميناً ويساراً، وردد بصوت غير مسموع، ثم ليرتفع صوته بالتدرج: «بسم الله الرحمن الرحيم»، قبل أن يفتتح خطبته بسورة قرآنية، بسورة الجلباب كما قال لهن: قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِرِزْوَانِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

في ذلك اليوم الخريفي الذي سيصبح يوماً استثنائياً في حياتها، لم تعرف سارة أن مسار تشكلها سيبدأ في الحقيقة من تلك النقطة، من النقطة التي بدأ فيها الشيخ خطبته، صحيح أن الجزء الأكبر من كلامه سبق وأن سمعته على شكل شذرات ومقاطع في الراديو الذي كانت أمها غالباً ما تفتحه في المطبخ، أو في

التلفزيون، في بعض الساعات المتأخرة من الليل أو في أيام الجمعة، عندما تسمع خطباً في الجوامع، لكن في كل المناسبات، كانت تلك الخطب تأتي، تدخل إلى سمعها وتخرج، لم تشغلها أبداً، ولم تعلم أنها بالرغم مما فعلته، خزنت الكثير منها في داخلها دون تعمد كأن الجمل التي ارتفع صوتها حولها وخرجت من شاشات التلفزيون ومن سماعات الراديو ومآذن الجوامع اخترقت أذنها، من الصعب عليها تفسير الأمر بشكل آخر، لأن ما سمعته في صباح أو نهار ذلك اليوم من شيخ رجال الحسبة، أو شيخ الشرطة الدينية ذكَّرها بكلام سبق لها وأن سمعته، لكن الفارق، هو أنها للمرة الأولى تسمعه بصورة حيَّة أمامها، الفارق أيضاً أنها وعلى عكس ما كانت تفعله في البيت لا تستطيع التحرك في المدرسة، ممنوع عليها مغادرة مكانها طالما أن الشيخ ما يزال يتحدث وأن عليها أن تبقى هناك حتى نهاية الخطبة، ولو امتلكت قطناً في تلك اللحظة لأغلقت أذنيها.

لكن، كلا، إنها كانت مجبرة على الجلوس هناك، مثلها مثل بقية زميلاتنا، ليس ذلك وحسب، بل بالطريقة التي طلب منهن الجلوس بها المنشور الذي وزعته الهيئة، خاشعات، الحنك منكس إلى الأسفل، يسمعن خطبة الشيخ الطويلة وهو يحدثهن عن العذاب الذي ينتظر كل واحدة منهن إذا حدث ونسيت تعاليم دينها، كما أمر بها - حسب قوله - الله ورسوله، راح يصف لهن النار التي لا ينطفئ لهيبها والأسياخ التي تُشوى بها الأجسام، خصوصاً تلك الأجسام التي لم تعرف الحجاب، حدثهن عن ملاكي الموت منكر ونكير اللذين ما إن يصلا بضحيتهما إلى فوق، يرميا به في نار جهنم وبئس المصير، حدثهن عن أصوات المذنبات اللواتي يستغثن عبثاً عند الله، يطلبن منه العفو والرحمة بعد فوات الأوان، عن الأجسام التي تتقيح ليل نهار، عفتها يُشم على بعد آلاف الكيلومترات، عن المحجبات المؤمنات اللواتي ينظرن من أماكن في الجنة يسخرن من المذنبات غير المؤمنات، لم يبقِ الشيخ على شيء ولم يأتِ عليه، كان يتحدث مثل خبير

بصنوف التعذيب، وكان كلما جاء على صنف جديد من التعذيب تضاعف حماسه، كأنه هو الذي يقوم بالتعذيب، كان يصك على أسنانه، يمسد لحيته، يفتح عينيه على سعتيهما، ينظر إلى أعين الطالبات، مثنين أو أكثر، طالبات صغيرات جلسن أمامه، مرتعدات، ليس لأنهن لم يفهمن القسم الأكبر من كلامه وحسب، بل لأنهن لا يعرفن إذا كنَّ هنَّ المقصودات، كانت الأيام الأولى من دراستهن، وباستثناء نسبة ضئيلة منهن لم تتعدَّ أصابع اليد، لم يتسنَّ الوقت لأهل بعضهن شراء العباءة والحجاب المناسبين لهن، أغلبية العوائل كن بانتظار التعليمات المطلوبة منها، أي نوع من الحجاب؟ لم يعد الأمر سرّاً أن الإجراءات الخاصة بالحجاب كانت تختلف كل عام عن العام الذي سبقه، صحيح أن البنات الصغيرات يعرفن ذلك، خصوصاً الطالبات منهن اللواتي بلغن عمر السبع أو الثماني سنوات، لكن ذلك لم يمنع أغلبهن من الشعور بالخوف كأنهن انتهين للتوّ إلى نار جهنم التي تحدث عنها الشيخ.

حتى سارة شعرت بالخوف، صكت أسنانها وكانت كلما فتحت فمها لتصرخ، أغلقته لتجمع قواها من جديد، كانت تعرف أن صرختها ستمزق الصمت الذي طغى على المكان، ستجعل الشيخ يخرس، وعندما لم تعد تتحمل أخيراً ونهضت بعد أن جمعت دفاترها، عندما بدأ جسمها كلها بالارتجاج، عندما وضعت يديها على أذنيها لكي تغلقهما أمام كلام الشيخ، وعندما قررت أخيراً أن تبدأ بالصراخ وتطلب من الشيخ أن يغلق فمه، شعرت ببلل بارد يدخل حذاءها، يقترب من قدميها، يبلل جواربها، كلا، إنها لم تفعل ذلك، تعرف ذلك جيداً، لكن لا حاجة لها لكي تلمس تنورتها، فها هي ترى بركة كبيرة من البول انتشرت تحت قدميها، بالضبط إلى جوارها، بدأت من الطرف اليمين حيث جلست ابنة أخيها ساجدة، ولو لم تقفز سارة مثل الملدوغة، لما انتبه الشيخ ومديرة المدرسة إلى ذلك، وبدل أن يسأل أحدهما، ماذا جرى لها؟ بدل أن يكتشف أن التي بالت ليست هي،

بل ابنة أخيها، طلب الاثنان منها أن تتقدم وتشرح لزميلاتها الطالبات عن الخوف الذي سرى في مسامات جلدها، للدرجة التي جعلها تبول.

لكنها بدل أن تلبى طلبهما وتقف في المكان المطلوب، تقدمت من الشيخ، وعندما أصبحت قبالة، صرخت به فجأة بصرخة طويلة، جعلته يقفز من مكانه مذعوراً، وما إن انتهت وقبل أن تمسك بها المديرية، قالت له: «هذه الصرخة من سارة، والآن، انتظر ما سأفعله أنا، أرامكو»، قالت له كأنها تحدثت باسم بنتين مختلفتين، وقبل أن تستحوذ عليها هذه المرة موجة من الضحك، لم تستطع مديرة المدرسة إيقافها، ضحك اقترب من الهستيريا، جعل كل جسمها يرتج، ولم تتوقف، إلا عندما شعرت بكف الشيخ تنزل على وجهها بقوة، قبل أن ينظر للمديرة ويسألها عن اسمها، «سارة»، قالت له المديرية، فيقول لها بصوت واثق: «البنات هذه سارة يسكنها الشيطان، لا مكان لها هنا». في اليوم التالي لم يكن على سارة الجلوس في البيت لمدة سنة لاحقة وحسب، بل كان عليها أن تعيش منذ الآن مع تلك الدمغة التي دمغها فيها أحد شيوخ هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنها مسكونة من الشيطان، كما جاء في التعميم الرسمي الذي وزعته الهيئة على كل مدارس المملكة الذي أريد له أن يكون «عبرة لمن اعتبر»، والذي حمل العنوان: «إثم سارة».

لم تكن المدارس الخاصة أمراً معروفاً في ذلك الوقت في المملكة، وحتى والدها الذي كان على دراية بأمور كثيرة، لم يعرف بوجود ولو مدرسة واحدة على طول المملكة وعرضها، وإذا سمع عن ذلك في بعض المرات، فإن الأمر تعلق ببعض الإشاعات لا أكثر ولا أقل، ولو لم يسمع ذلك من فم اللويتنانت دانييل بروكس، لما صدق الأمر، فبعد أن شاع خبر ما حصل لسارة في مدرستها مع الشيخ، طمأنه «الأميركي الأسود الطيب، ابن الحلال هذا»، كما كان يُسمى شريكه في القاعدة الجوية، قال له، عليه ألا يقلق، صحيح أن ابنته خسرت هذا العام

الدراسي لكنه يستطيع مساعدته بتسجيلها في العام القادم في المدرسة الخاصة المختلطة التابعة للقاعدة العسكرية في الظهران، والتي يتعلم فيها أولاد وبنات العاملين في القاعدة، أبناء الأجانب بصورة خاصة حتى الصف الثالث الابتدائي، قبل أن ينفصل الاثنان، الأولاد والبنات، كل منهما في مدرسة منفصلة، عليه أن يترك الأمر له، قال له، فهو سيتحدث مع مديرة المدرسة التي هي سيدة أميركية تحولت بين ليلة وضحاها إلى مؤمنة قوية، منذ ذلك الحين والـ«المسكينة»، نطق تلك الكلمة بالعربية، تحاول إقناع كل من تلتقي به من الجنود في القاعدة بالدخول إلى الدين الإسلامي، «ببرهابس ذات مكس هر أگري» وربما هذا ما يجعلها لن تبخل بتحقيق رجائه، «شي ويل ثينك، آي ويل بي مسلم، مي بي؟»، قال دانييل ضاحكاً: «سيكون عربوناً لدخولي الإسلام»، بالفعل، في العام الدراسي الجديد بدأت سارة بالدراسة في مدرسة الصداقة الأميركية السعودية التي أسست حديثاً في القاعدة، شكراً للتزوير «فكين، لم يكن صعباً أيضاً على مديرة مسلمة، فبدون مساعدتها ما كان بمقدور سارة أن تُقبل في مدرسة بسبب التوصية التي عممتها هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، «حرمانها من التعليم إلى إشعار آخر»، أو حتى يجلب ولي أمرها تقريراً من شيخ مُعتبر يُثبت أنها شفيت من مرضها، «هذه البنت مسكونة بالشیطان ويجب خضوعها إلى علاج مشايخ اختصاصهم طرد الشيطان»، كما جاء في كتاب الهيئة حرفياً، ورغم أن لا والدها ولا المديرية عرفا أن قرار الهيئة ذلك ربما لم يشمل المدارس الخاصة، إلا أن لا أحد منهما أراد الاستفسار بهذا الشأن، «لت سليبينغ دوغس لاي»، قالت له المديرية، وهو يعرف أنها على حق، عليه ألا يوقظ الكلاب بالفعل، لأن تلك ستكون بالتأكيد فرصة سانحة لكي تصعد الهيئة من حملتها ضد مدرسة الصداقة الأميركية السعودية في قاعدة الظهران العسكرية، على سارة أن تبدأ بالدراسة وكفى، للأسف خسرت عاماً واحداً، لكنها من الناحية الأخرى بدأت في الدراسة

أصلاً بصورة مبكرة، المهم عثورها على مدرسة جديدة، وكم بدت فرحة، هذا ما رآه الجميع على وجهها، منذ أن أخبرها أبوها بالخبر، لكن ما لم يعرفه أبوها، أنها وبالرغم من سعادتها تلك، بالعثور أخيراً على مدرسة تبدأ فيها من جديد، رغم أنها ستدرس هنا سنة واحدة وحسب، إلا أنها تحسرت لأنها لم تعرف من قبل بأن هناك مدرسة مختلطة، على الأقل حتى الصف الثالث الابتدائي، قبل انتقالها إلى مدرسة البنات المجاورة لمدرستها الجديدة، ولو كانت عرفت بذلك مسبقاً، لكانت بدأت بالدراسة هناك.

هكذا تحول القرار الذي أُريد له أن يكون عقاباً لها، إلى ما يشبه هدية نزلت عليها من السماء، أولاً لأن المدرسة الخاصة تلك لم تحررها من لزوم لبس الحجاب وحسب، بل أتاحت لها فرصة الاختلاط بالصبيان، خاصة في عامها الدراسي الأول هناك، صحيح أن صفوف الأولاد مفصولة عن صفوف البنات، إلا أنه كان من المسموح للأطفال من الجنسين للعب سوية في ساحة المدرسة، وحتى في السنة الدراسية اللاحقة، فبالرغم من استقلال بناية المدرسة المختلطة وبناية مدرسة البنات عن بعضهما، إلا أنهما متجاورتان، فصلهما عن بعض سياج واطئ من شجيرات الآس فقط، لم يكن من الصعب لا على الأولاد ولا على البنات التسلل إلى حديقة المدرسة المجاورة واللعب هناك، ربما شجع الأولاد والبنات على ذلك هو وجود معلمات فقط، سواء في مدرستها أم في المدرسة المختلطة التي يُسمح فيها فقط للمعلمات بتدريس الطالبات والطلاب، عدم وجود معلمين صارمين شجع الأطفال من الجنسين على اللعب سوية في ساحة المدرسة أو عند السياج، وهذا ما أحبه سارة قبل كل شيء، ليس لأنها بارعة في اختراع ألعاب جديدة، بل لأن المدرسة وهذا ما اكتشفته سارة، وعلى عكس مدرستها السابقة لم تبخل على الطلاب بتوفير ألعاب جديدة.

كان أبوها يأخذها معه في سيارة الجي. أم. سي. يومياً، وعند جلبه لها بعد

انتهاء الدوام كان عليه في بعض الأيام أن يظل ينتظر بعض الوقت حتى تنتهي من اللعب، وكثيراً ما كان يضحك في داخله، كلما رآها تلعب مع بنات أو صبيان أكبر منها سنّاً، مرات فكر، أن يطلب منها الكف عن ذلك، لكنه كان يعرف من الناحية الأخرى، أن من الصعب على ابنته أن تغير من عاداتها، فهي هكذا، وذلك ما ميزها عن بقية الأطفال منذ طفولتها، أنها كانت ترفض اللعب دائماً مع مَنْ هم بمثل سنّها، وأقله مع الأصغر منها سنّاً، فلماذا تغير عاداتها الآن، فعلى عكس مديرة ومعلمات مدرستها السابقة لم تجد لا المعلمات ولا المديرة في مدرستها الجديدة ما هو مشين في سلوكها، على العكس، مديرة المدرسة، ومنذ الأيام الأولى لدوام سارة في المدرسة لم تترك مناسبة إلا وأشادت أمام غازي الجاسي بابنته، اجتهادها ومبادراتها، وموقعها عند الطالبات والطلاب، كانت بالنسبة لهم بمثابة حاكمة تحكم بالعدل بينهم كلما اختلفوا على شيء، وجاؤوا إليها يطلبون مشورتها، كما أوضحت له المديرة ذات يوم، وعليه أن يفتخر بالفعل بابنة مثله، «فمن يعرف»، قالت له المديرة، «ماذا ستصبح هذه البنت في يوم ما؟ أية مسؤولية ستتحمل في حياتها؟ إنها فطنة جداً ومتحفزة بفضول». قالت له، فهل يشك بكلام مديرة مدرسة أميركية؟ لماذا عليه أن يفعل؟ طبعاً لم يسأل أبوها نفسه يوماً، هل فعلت سارة ذلك بتعمد؟ فما لا يعرفه، أنها لم تفكر بذلك أبداً، لم تختبر صداقاتها يوماً على أساس عمر الآخرين، لم تسأل الآخرين عن أعمارهم يوماً، كانت تتصرف بتلقائية، ربما لذلك علاقة بشخصيتها التي صنعتها مبكراً، ربما هي وُلدت بجينات ناضجة، أو ربما أن الأمر له علاقة بالقناعة؟ من يدري؟ وإلا لداخ بتفسير صداقاتها الجديدة، خاصة صداقتها التي أصبحت أكثر من حميمة مع زميلتها في المدرسة، الهنوف!

كانت الهنوف بالضبط في سنّها، وهي للمرة الأولى التي لا تصادق فيها فتاة في مثل عمرها وحسب، بل هي المرة الأولى التي عرفت فيها أن ما نظنه خطأ

في بعض الأحيان هو عين الصواب، فهي لو لم تتأخر في المدرسة سنة واحدة، لما كانت تعرفت على الهنوف. منذ اليوم الأول لدخولها صفها في المدرسة الجديدة لفت نظر سارة أن تلك البنت الصغيرة التي ستعرف لاحقاً، أن اسمها الهنوف، كانت البنت الوحيدة التي عزلت نفسها عن بقية الطلاب والطالبات، لا تختلط بأحد، لا في الصف ولا في ساحة اللعب، جلست دائماً على الرَّحْلة الأخيرة في الصف، وكانت كما يبدو تقضي معظم وقتها بتلطّيح دفترها برسومات متخيلة، رسوم بدت لسارة ورغم غموضها متقنة وجميلة، لا تعرف ماذا وجدت فيها، لأنها ولقول الحقيقة خربشات فوضوية بأقلام ملونة لم تر سارة في حياتها مثلها من قبل، ولو لم تطلب المعلمة منها الانتقال من مكانها في المقدمة ومشاركة الهنوف مكانها لما لفتت تلك الرسوم أو الخربشات نظرها.

كانت سارة حتى ذلك العام أشطر البنات في الصف، وكانت المعلمة والسبب لم تعرف كنهه سارة في ذلك الحين تبدي تعاطفاً مع الهنوف، تعرف أنها لا تنتبه إلى ما تشرحه المعلمة، لا تحضر الدروس، تأتي للدرس على مزاجها، أحياناً تدخل متأخرة، لكن المعلمة الجميلة اللبنانية الأصل، التي اسمها مي أو ما شابه، فمع زحمة السنوات ما عادت تتذكر اسمها لكن تتذكر قامتها الرشيقة، وجهها الأسمر الجميل، عينيها العسليتين، وصوتها الهادئ الواثق، تلك المعلمة الاستثنائية، والتي كانت تدرسهن التدبير المنزلي، فعلت كل ما في وسعها لكي لا تشعر الهنوف بالمضايقة، حتى عندما توقظها من غيبوبتها، من سهوها، نعم من غيابها الكامل عن الصف، تفعل ذلك بطريقة رقيقة، تناديها باسمها بلطف وتطلب منها الوقوف لكي ترد على أسئلتها، وكانت الهنوف تصفن، هذا إذا انتبهت، لأن على المعلمة التي كان اسمها مي أو ما شابه أن تكرر طلبها مرة أخرى، كانت الهنوف تصفن، أحياناً لدقائق طويلة، وإذا نطقت، قالت جملة واحدة أو جملتين، «التدبير المنزلي ليس اختصاصي»، أو «حرام تضيعين وقتك معي»،

هما جملتاها المحبتان، حينها لا تجيها المعلمة بشيء، تطلب منها الجلوس، ثم تنادي سارة بهدوء «اقعدي عندها من فضلك»، فتنهض، كانت هي المعلمة الوحيدة التي تفعل ذلك.

في الدروس الأخرى ولكي تجلس سارة إلى جانب الهنوف راحت سارة تتعمد المخالفة لكي تعاقبها المعلمات ويطلبن منها الجلوس في المقعد الخلفي، إلى جانب «الكسولة الهنوف»، كما أطلقن عليها، دون أن يعرفن اللذة التي يجلبها الجلوس هناك لسارة، إلى جانب الهنوف والتمتع برسوماتها. كانت الهنوف تستخدم ريشة نحيفة للرسم تغطسها في قنينة وضعتها على الرُّحْلَة أمامها، حوت على صبغ، كل درس قنينة جديدة، كل درس لون جديد، بل كل درس استخدمت أقلاماً خاصة مختلفة للرسم، لم ترَ سارة لها مثيلاً من قبل، وعلى عكس الطالبات الباقيات لم تملأ حقيبتها المدرسية بكتب المدرسة أو بالسندويشات التي تحضرها الأمهات لبناتهن، بل ازدحمت حقيبتها بالرسوم وحسب. رسومات الهنوف وسلوكها، حركاتها، صفاتها أحياناً، كل ذلك منحها صورة الفتاة الجادة التي هي أكبر من عمرها، الفتاة المنغمسة مع نفسها، البعيدة بخيالها عن الجميع، فتاة جادة دون مبالغة، فتاة لها عالمها الخاص، الدخول إليه ليس بمثل هذه السهولة كما يحدث مع الفتيات الأخريات، وإذا حصل وناقتها إحدى المعلمات بفظاظة، (على عكس المعلمة اللبنانية التي كان اسمها مي أو ما شابه)، فإنها تنهض من مكانها مثل المدعورة، نظراتها سارحة، شعرها منفوش وهيئتها غريبة تجلب الصف كله للضحك عليها، لكن مع الوقت بدأت المعلمات في المدرسة ينتبهن لرسوماتها، بعضهن لم يترددن من سؤالها أن تهديهن بعض الرسوم. مديرة المدرسة زينت طاولة مكتبها بإحدى صورها: كانت بالأحرى رسماً لفتاة جميلة مدفونة في سرير جنائزي، وما كانت سارة عرفت بأن الصورة التي وضعتها المديرية بعناية في إطار خشبي جميل، وهنَّ

يجلسن جميعاً معاً، أن المدرسة تفتخر بوجود العديد من الطالبات الموهوبات، ولكي تعطي مثلاً واحداً، أشارت إلى الصورة، «مثل هذه الصورة التي رسمتها فتاة عبقرية في الرسم». «فتاة عبقرية بالرسم؟»، ربما لم تعرف سارة آنذاك من هي الفتاة المعنية، أو الأكثر لم يههما من تكون، لكن الآن تعرف أنها لا بد وأن تكون الهنوف، لا أحد غيرها يمتلك مثل هذه الموهبة في المدرسة، كانت الهنوف بالتأكيد سعيدة في نفسها، تعرف أنها استثنائية في المدرسة، في الفترة الأولى خافت سارة من الاقتراب منها، لكن شعوراً في داخلها كان يطالبها بالحذر، ماذا ستقول لها؟ ماذا لو صدتها الهنوف؟

ذات صباح وكانت مرت على مراقبتها لها ثلاثة شهور أو أكثر ليس في الصف وحسب بل في فترة الفرصة بين الدروس، قررت سارة أن تتبع الهنوف وكانت فصلت نفسها كالعادة عن بقية التلميذات، وعندما وصلت سارة إلى سياج المدرسة الخلفي، والذي كان على شكل أسلاك شائكة، رأتها تخرج من فتحة صغيرة في وسط الأسلاك، ربما عملتها هي بنفسها، حشرت سارة نفسها أيضاً عبر تلك الفتحة، بالتأكيد كانت البنت أكثر نحافة منها، لأنها لم تبذل الجهد الكثير مثلها لكي تنجح بتحرير نفسها والخروج إلى الجهة الأخرى، حيث امتدت حديقة صغيرة لكنها كثيفة الدغل، بالضبط على المسافة الواقعة بين سياج المدرسة وجدار المخازن التي واجهتها، والتي عرفتها سارة منذ مجيئها مع أبيها لزيارة اللويتنانت دانييل بروكس، وهناك قبل الوصول إلى لجدار بخمسة أمتار أو ستة، ارتفعت شجرة، عرفت لاحقاً أنها شجرة حناء، وتحت تلك الشجرة، رأت سارة مصطبة امتد طرفاها إلى جانبي الجذع الضخم للشجرة، فيما اختفى الجزء الكبير منها، وسطها خلف جذع الشجرة الضخم، هناك جلست البنت، في البداية ترددت سارة قليلاً، ولم تعرف إذا كان عليها مواصلة السير أم لا؟

سارت على أطراف أصابعها، كأنها لم تشأ إثارة انتباهها، وعندما أصبحت

ملاصقة للشجرة أخفت جسمها خلف جذعها ومدّت رأسها إلى الأمام، فرأت البنت تجلس على المصطبة بهدوء، فيما وضعت دفتراً صغيراً في حضنها، صحيح أن البنت كانت منغمسة بالتخطيط، لكن ذلك لم يمنعها أن تقول لسارة دون أن ترفع رأسها، «أعرف أنك تبعثني»، ثم طلبت منها بالصوت الهادئ نفسه الذي خرج قبل لحظات، أن تقترب، «تعالى اجلسي جنبي»، قالت البنت، وهي تواصل التخطيط، لم تتحرك في مكانها لا ناحية اليسار أو ناحية اليمين، جلست سارة إلى جانبها، وحدقت في التخطيطات بفضول، «طيور»، قالت البنت وهي تقلب الصفحة وتبدأ بتخطيط جديد، وخلال جلوسهما هناك، رأت كيف أن البنت ما إن تنتهي من رسم أحد الطيور، حتى تقلب الصفحة وتبدأ برسم طير جديد، أخبرتها الفتاة، بأنها تأتي كل يوم إلى هنا، تراقب الطيور، «هل ترينها؟» سألتها وهي تشير بيدها، «هناك على سطح المخازن!»

لم تشأ سارة أن تقول لها، إنها تعرف هذه المخازن، منذ سنوات ومنذ أن بدأ أبوها يجلبها معه للعمل كل صباح إلى هنا، وهي تعرف أنها المخازن التي تحفظ المؤونة التي تجلبها شركة أبيها، شبيهة بسايلو حبوب، حبوب قادمة من أماكن بعيدة، «الطيور تأتي من أماكن بعيدة وتحط على السطوح»، قالت الفتاة، لتكمل مباشرة، «غريب، تبقى على السطوح ساعات وساعات، ما تحب تطير إلى مكان ثاني»، لو كانت البنت تعرف أن تلك المخازن كانت نوعاً من سايلوات صغيرة لحفظ الحبوب، لما تعجبت لوجود هذا العدد من الطيور على السطح، روت البنت، كيف أنها تفضل الجلوس في هذا المكان ورسم الطيور على اللعب مع الصغار، حسب تعليقها، ماذا يحصل الواحد هناك من الصغار غير المشاكل؟ «كلهم صغار»، قالت الفتاة كأنها كانت متأكدة أنها في سن غير السن التي كان فيها زملاؤها، «الطيور أحلى»، قالت مؤكدة، وهي ترسمها، لأنها تعتقد، بأنها فقط بهذا الشكل تجعل الطيور تعيش، حتى الآن رسمت 244 طيراً، قالت لها،

وهي لن تتعب من رسم طيور أخرى، ثم طلبت منها، وهي تخرج من حقيبتها التي استقرت في حضانها دفتريْن أو ثلاثة، أن تعين الرسوم التي رسمتها، كانت تلك هي المرة الأولى التي توقفت فيها الفتاة عن الرسم، «أصدقائي هي الطيور، طالما تعرف أنني أرسماها، تأتي كل يوم ومعها طيور جديدة»، ثم نظرت البنت إلى وجه سارة، فرأها ساهمة، فسألتها، إذا كانت تشعر بالملل أو متضايقه من شيء؟ وقبل أن تجيبها سارة بشيء، قالت لها، كلا، إنها دخلت للتو سن التاسعة من عمرها، وهي لا تجد أكثر غياباً من سن التاسعة، وهي مستعجلة لكي تنهي هذا العام من عمرها بسرعة، ولو ترك الأمر لها لغيرت عمرها منذ اليوم، كم تمت أن تستيقظ ذات صباح وتجد نفسها في سن العاشرة، «العاشرة من العمر»، قالت لها سارة: «هي السن المعقولة لفتاة»، لم تفهم الفتاة في البداية لماذا تخبرها سارة بذلك، لكن سارة التي تعجبت من خواطرها في تلك اللحظة، قالت لها: «إذا كنتِ تقولين، إن الطيور تعيش عمراً أطول، لأنك ترسمينها، فما هو رأيك أن ترسميني؟»، ولكي تعبر عن نفسها بوضوح أكثر، قالت لها سارة: «إذا رسمتني يصير عمري عشر سنوات»، ضحكت الفتاة، وأخبرتها، كيف أنها هي الأخرى تكره عمرها، ثم شرحت لها، كيف أن الطيور تختلف في أمرها عن البشر، «الطيور ما تستطيع تتخذ قرار»، قالت وهي تتابع بنظراتها الطيور التي اقترب بعضها من أقدام الفتاتين، «لكن أنا وأنت، إذا قررنا يكون عمرنا عشر سنوات يصير عمرنا من اليوم عشر سنوات».

لم تقرر الاثنان في ذلك اليوم سنوات عمرهما وحسب، بل أقسما بالله والنبي محمد طبعاً، أن يظلاً معاً، أن يصبحا صديقتين، كأن سارة عثرت أخيراً على شريكة لها تتقاسم معها الرغبة بالطيران.

منذ ذلك اليوم ارتبطت الاثنان، سارة والهنوف بصداقة قوية، لا تفترقان عن بعض طوال ساعات الدوام المدرسي، كفت سارة عن اللعب مع الآخرين وتخلت

الهنوف عن الجلوس وحدها على المصطبة الوحيدة تحت شجرة الحناء الوحيدة أيضاً، «ها نحن مثلهما»، قالت لسارة ذات يوم، «مثل المصطبة والشجرة هذه، وحيدتين، نتبادل الأدوار»، كانت تلك هي المرة الأولى التي شعرت فيها سارة بحميمية إزاء بنت في مثل سنّها لا تكبرها بسنتين أو ثلاث، وكانت الاثنان تنسلّان بصورة أوتوماتيكية من ساحة اللعب وتذهبان إلى الحديقة الكثيفة الدغل خلف المدرسة، أمام المخازن، تراقبان الطيور، أكثر من ثلاث مئة نوع من الطيور راقبتا في السنة الأولى، وكانت كلما رسمت الهنوف طيراً، كان على سارة أن تمنحه اسماً، كم حارت سارة في الأسابيع الأولى أيّ الأسماء يليق بهذا الطير أو ذاك، لم يكن من السهل عليها منح الطيور اسماً، وكل قاموسها الذي تعرفه لم يتعدّ حتى ذلك الحين أصابع اليد، لم يتعدّ أسماء الطيور التي سمعت باسمها في البيت، وحتى هذه الأسماء ما كان لها أن تعرفها لو لم يكن بيتهم قريباً من البحر، وكان عليها أن تظل في بعض الليالي ساهرة، لكي تأتي إلى صديقتها في اليوم التالي باسم جديد، في بعض الأحيان لم تتردد في سؤال أبيها، لكي يقول لها اسم أحد الطيور، المهم أن تأتي لصديقتها باسم طير جديد، وكانت الهنوف تشكرها كلما سمعت منها اسماً غير مألوف، من غير المهم، إنها تكرر اسماً ذكرته بالأمس، قالت لها، «الطيور لا تعيش مجهولة عندما تحمل اسماً»، صحيح أنها كانت تخلّدها برسمها، تجعلها تعيش، لكن الاسم يمنحها بعض التمييز عن بعضها، «الطيور مثل البشر»، قالت لها الهنوف، «كل طير اسمه يميزه عن الطير الآخر»، وكلما منحنا الطير اسماً، منحناه شخصية خاصة به، وكانت سارة تعجب من طريقة الهنوف بالحديث، فهي تتحدث بطريقة تقترب من أحاديث الكبار، في صغرها وعندما كان أبوها يصطحبها في كل جولاته، وقبل أن تأخذ المدرسة الكثير من وقتها، وتمنعها من الخروج معه، سمعت سارة أحاديث شبيهة، رغم ذلك، عندها شعور، أن صديقتها تقول كلاماً لا شبيه له، لم تسمعه هي من قبل،

وأن اليوم الذي لا ترى فيه صديقتها، هو يوم أسود في حياتها، طبعاً كان من الممكن رؤية صداقات شبيهة في المدرسة، سواء بين طالبين أو طالبتين، كان يمكن رؤيتهما يتجولان لا ينفصلان عن بعض في ساحة المدرسة، لكن غالباً ما تكون تلك صداقات مؤقتة غير دائمة، تنتهي مع نهاية العام الدراسي في أكثر الأحوال، على عكس ما حصل لسارة والهنوف، فقد كانت صداقتهما تنمو وتتعمق مع مرور الأيام، مع كل فصل دراسي جديد.

في العام الدراسي التالي مثلاً، العام الذي تلا تعرفهما على بعض، عندما أصبحتا في الصف الرابع الابتدائي، عندما يصبح عمرهما بالفعل عشر سنوات وتبدأن بالدراسة في المدرسة الخاصة بالبنات، المجاورة لمدرستهما المختلطة، طلبت الاثنتان من المعلمة أن تجعلهما في صف واحد، هكذا جلستا على مقعد دراسي واحد، وعندما ستصبحان في الصف الرابع الابتدائي، ويصبح عمرهما عشر سنوات، على الأقل بالنسبة لسارة في الوثائق الرسمية، وفي الأيام التي بدأ فيها أبوها بالذهاب إلى مدينة حفر الباطن، هذه المرة من أجل متابعة أمور التجهيزات التموينية التي يجلبها لمقر قوات درع الجزيرة في حفر الباطن، لجأت الهنوف إلى أحد إخوانها الثلاثة، الذين اعتادوا على جلبها من المدرسة، أن يأخذوا صديقتها معهم، ويوصلوها إلى بيتها، باتجاه الشمال، وعندما كان يتخلف أحد إخوانها عن الحضور، في هذه الحالة تطلب سارة من أبيها أن يوصل الهنوف إلى بيتها، وكل مرة، كانت الاثنتان تشعران بأسى خفيف، كلما شعرتا بالسيارة تقف أمام بيت إحداهما، لا تريدان أن تفترقا.

لكن ماذا تعلمت الهنوف من سارة؟ تعلمت ببساطة، كتابة الرسائل.

في الليل وقبل أن تنام، اعتادت سارة أن تأخذ ورقة وقلماً، أحد أقلامها الملونة التي احتفظت بها لهذا الغرض، ولا تنام إلا بعد أن تكتب رسالة لصديقتها. لم تنس أن ترش على رسائلها أحد عطورها المحببة التي كان أبوها يشتريها لها،

حتى ورق الرسائل كان مميزاً، ملوناً، لم تخفِ الهنوف أمامها سعادتها، كلما تسلمت رسالة من صديقتها، منذ الرسالة الأولى، قالت لها، إنها المرة الأولى التي يكتب فيها أحد رسالة لها، حدث ذلك بعد أسبوع تقريباً من تعرفهما إلى بعض.

للوهلة الأولى ظنت الهنوف أن تلك الرسالة دسّها أحد الطلاب من زملائها الفتيان في حقيبتها، كانت الرسالة مطوية بعناية، لون مطروفها تُركواز، فيما وصل عطرها إلى أنفها مباشرة بعد إخراجها من الحقيبة، «إلى الهنوف... أحلى صديقة وأروع إنسانة في العالم»، تلك هي الجملة الوحيدة التي كُتبت على المطروف، وعندما فتحت الهنوف الرسالة في غرفتها، شعرت بقلبها يدق بعنف وبأصابعها ترتجف، ولم تطمئن إلا بعدما تأكد لها أن الرسالة مذيلة تحت بتوقيع اسم صديقتها، «سارة التي فيها كل ما يُسر»، كتبت لها، في تلك اللحظة شعرت الهنوف بسعادة بالغة، كان شعوراً غريباً بالأحرى، خليطاً من التوجس والسعادة، من الفضول والخوف، من الشوق والفقدان، لا تعرف، كان شعوراً غريباً في كل الأحوال، لم تعرفه من قبل، لكنها ومنذ ذلك اليوم، عرفت أن من الصعب عليها بعد الآن، تخيل مرور يوم عليها دون العثور على رسالة من سارة في حقيبتها، ولم تبخل سارة من طرفها على صديقتها، وحتى إذا لم تجد عندها الكثير مما يمكن أن تخبرها به، تكتفي بكتابة سطرين أو ثلاثة لها، المهم أن تكتب، أو المهم، كما باحت لصديقتها يوماً، أن تجعلها تشعر، بأنها قريبة منها، لا تفارقها، تتحدث معها من مكانها، من الضروري أن تعرف صديقتها، كيف يمرّ يومها، في تلك السن الذي تعلمت به كتابة الرسائل، لم تعلم أن ما تكتبه لصديقتها يدخل في باب كتابة اليوميات، من وصف كل التفاصيل الصغيرة إلى الحديث عن الانطباعات اليومية.

وهي الرسائل التي جعلت الهنوف تعرف الكثير عن صديقتها، عن أحلامها المتعددة: كم حلمت وهي صغيرة بالطيران مثلاً، أو كم رغبت أن تصبح ملكة

جمال ذات يوم، أول ملكة جمال في المملكة، «لكن آه من الظروف»، تكتب بتأفف بلسان امرأة ناضجة، كم ترغب كلما تطلعت من النافذة إلى البحر، أن تتحول إلى موجة تتنقل على هواها في البحر؟ هل تفهميني؟ تسأل صديقتها بلسان فتاة أكبر من عمرها، ثم تقول لها، ربما عندما تكبران وتذهبان للدراسة في الجامعة، لا بدّ لهما من تحقيق ذلك، هل تريدان الدراسة معي؟ سألت صديقتها في أكثر من رسالة: «أين تريدان أن ندرس؟»، وهي تسألها، لأنها نفسها لا تعرف، أي الأماكن أو الاختصاصات تختارها للدراسة؟ لكنها تريد أن تترك الاختيار لصديقتها، ما هو رأيك؟ تسألها ببراءة، دون أن تُذكرها في رسالة قادمة بسؤالها، في حالة عدم حصولها على جواب، كأن المهم الكتابة فقط، وليس المهم الحصول على جواب، مثلما هو المهم بالنسبة للهنوف تسلم رسالة، أية رسالة من سارة، وهذا ما جعلها غالباً ما تعتمد ترك حقيبتها قريبة من صديقتها، وتختلق عذراً بأنها ستذهب للحظة وتعود أو تحاول أن تغمض عينيها، لكي لا تمنح الانطباع لصديقتها بأنها تراقبها أو بأنها تعرف بأنها هي من سيدس رسالة في حقيبتها، كأن من مهمة سارة أن تكتب رسالة، ومهمة الهنوف تسلمها، كأن الأمر أصبح مفروغاً منه، روتيناً غير قابل للنقاش، حتى في اليوم الثاني عندما تلتقيان في المدرسة، نادراً ما تتحدثان عن موضوع الرسائل، باستثناء ربما مناسبتين أو ثلاث.

المناسبة الأولى، عندما كتبت لها تخبرها، بأن ابن خالها الذي يكبرها بثمان سنوات، جاء لزيارتهم، قبل أن يطلب من أبيها أن يساعده بعبور الجسر باتجاه البحرين، قال إنه يرغب بالدراسة في جامعة المنامة، وأبوه يرفض، سمعت همساً في البيت يقول، إن أباه يخاف عليه من أن يفسد هناك؟ لماذا؟ لا تدري؟ ولم تنس أن تخبرها أنها المرة الأولى التي رأت فيها ناصراً، وهو اسم الابن الأوسط من عشرين ولداً لخالها، ومن ثلاثة أولاد من زوجته الأولى، رمال، وأن تخبرها،

كم تحب هي «خالتها» هذه؟ طبعاً لم يكن موضوع حديث الصديقتين في اليوم التالي هو زيارة زوجة الخال رمال مع ابنها، بل كان الموضوع، إذا كانت الدراسة في البحرين ستكون أحد أهدافهن عندما يكبرن أيضاً؟ كلا، ذلك ما توصلت له الصديقتان، «أبي يقول البحرين اسم كبير»، لأن حسب رأيه، «بلد فيه حنفيتان من الماء فقط، واحدة في الشمال والأخرى في الجنوب، فكيف يطلقون عليه البحرين؟»، وكانت الاثنتان تضحكان لتعليق غازي الجاسي.

المناسبة الثانية كانت عندما كتبت لها تخبرها بقصة عمته، التي حملت اسمها تيمناً بها: سارة. وهي الهنوف التي طلبت من سارة توضيحاً أكثر عن عمته، فقالت لها إن كل ما تعرفه عنها لا يتعدى ما سمعته عنها من قصص منذ أن كانت طفلة، وكانت كلما سألت عنها، قيل لها، إنك ما زلت طفلة لكي تعرفي القصة بالتفصيل، في بعض المرات باغتت أباهما يحدق بها عندما كانت صغيرة، وبعد أن يصفن طويلاً يقول لها: «أنت تذكيرني بأختي سارة»، لكنها كلما رأت تجاعيد أبيها تتجهم، وصوته يحزن، بل كلما رأت دمعة تنزل من إحدى عينيه أحياناً، دمعة كان يحاول أن يخفيها عنها طبعاً، ظنت أن عمته سارة لا بد أن تكون ماتت أو حصل لها مصاب عظيم، وأن عليها لهذا السبب ألا تسأل عنها، لأنها إذا سألت أباهما ستثير الحزن عنده، في تلك المناسبة، أخبرتها صديقتها الهنوف بأنها سمعت مرة في بيتهم حديثاً دار عن عمته سارة، من أخيها الأكبر الذي يشتغل مديراً لمتحف الدمام، قال بأنها أحبت رجلاً من غير قبيلتها وأصرّت على زواجه ولم يسامحها أخوها، وهي تعيش معه في جهة ما من الصحراء، «أو» قالت لها سارة، «الصحراء»، لا تعرفين حبي للصحراء، «روحي فيها، وأن كل ما تتمناه إذا طال العمر بها، هو أن تذهب للعيش هناك، «أظن حتى الطيور تنتقل هناك بحرية»، قالت لصديقتها، ثم وكأنها انتهت فجأة لأمر مهم، سألتها، إذا كان أخو الهنوف قد حدد جهة الصحراء

التي تعيش أو تنتقل فيها العمة، لأن هي بوذها أن تلحق بها اليوم قبل الغد، فأجابتها صديقتها، كلا، للأسف لم تسمع تفاصيل أخرى، لأن أباها توقف فجأة عن الكلام حالما رأى أخته تدخل صحن البيت، خاف أن تنقل الكلام، «نعم»، أجابتها سارة، «الكبار يعتقدون أننا صغار»، ثم أخبرتها عما سمعته من أبيها وهو ينقل كلام عسكري من الجيش الأميركي يعمل معه في قاعدة أميركية، قال له: «لا تجلب ابنتك معك إلى القاعدة، ما زالت صغيرة»، وحسب تفسير ذلك العسكري، كما نقله أبوها إلى أمها، يمكن لسارة أن تبوح بالتفاصيل السرية للقاعدة الأميركية، «كل الصغار مهذارون»، قال له.

في النهاية وبعد سنوات من تلك كتابة الرسائل، ليس من الغريب أن يختلط الأمر عليها ما كتبه في رسائلها للهنوف ولا تعود تميز بين ما حدث فعلاً أو ما أرادت هي حدوثه، ولم تعرف سارة أن ما كتبه في تلك الفترة كان يعبر عن امرأة أكبر من السن التي هي فيها، دون علم منها في حينه، وكيف أن رسائلها تلك راحت تنضج وتكبر معها يوماً بعد يوم، وأنها في كل حرف دوّنته، كانت ترسم على طريقتها شخصية سارة التي ستكون عليها في المستقبل، بكل ما ستملكه من رغبات وأحلام، بكل ما ستشعر به من معاناة وقلق، مثلها مثل رسائلها، فبقدر ما ازدحمت رسائلها بالأمانى والتخيلات، البريئة والناضجة بالنسبة لفتاة في سنّها، ازدحمت رسائلها بالشكوى والتساؤل، أو الحيرة أحياناً، كما كتبت لصديقتها في إحداها، أنها تريد أن تخبرها بسرّ عليها حفظه، «أبي مريض بالخادما»، كتبت للهنوف، صحيح أنها لا تعرف بالضبط معنى ذلك أو كيفية علاجه، لكنها سمعت منذ صغرها أمها تقول تلك الجملة كلما ذهبت غاضبة إلى أهلها في بريدة في القصيم، وهو حبها لأبيها الذي يجعلها تفكر بالعثور على طريقة ناجحة لعلاجها، كم ترغب بأن تشفيه من مرضه على يدها، وذلك ما يجعل سارة، تفكر للمرة الأولى بدراسة الطب، «نعم الطب»، و«الطب النفسي» على وجه الخصوص،

«سأكون أول طبيبة نفسية في المملكة»، كتبت لصديقتها قبل أن تضيف، «نعم، لا أريد أن أكون أول ملكة جمال في المملكة، أريد أن أكون أول طبيبة نفسية في المملكة!»!

تلك الرسائل التي حفظتها الهنوف في صندوق صغير مصنوع من العاج، والتي ستصبح ذات يوم الوسيلة الوحيدة للتواصل بين الاثنتين ساعدت في حينه على تقريب الصديقتين من بعضهما أكثر، جعلتهما متلاصقتين مع بعض، من الصعب عليهما تخيل أنهما ستنفصلان عن بعض يوماً، حب إحداهما للأخرى منذ أن تحدثتا للمرة الأولى في الحديقة الصغيرة، الواقعة بين سياج المدرسة وجدار المخازن التي واجهتها، دون أن يعرفا سبباً مباشراً لذلك، ومنذ تلك اللحظة أيضاً لم يظنا أنهما سينفصلان عن بعض في يوم ما، أو أن ما يحدث في العالم حولهما، سيصلهما أيضاً، على العكس، كانتا كلما التقتا، فكرتا بما سيفعلانه في الغد، وكان من الممكن أن يدوم ويدوم الشعور ذلك لو لم يحدث ما سيقلب حياتهما بشكل لم تتوقعاه يوماً، لو لم يظهر خال سارة فجأة في الخبر.

كابوس سارة

حتى تسلمه مهمة الإشراف على عمل هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المنطقة الشرقية من المملكة، لم يعتقد الشيخ يوسف الأحمد، بأنه سينتهي إلى العمل في إحدى تلك المدن الساحلية التي لشد ما لعنها في حياته، وإلى أين؟ إلى مدينة الخُبر بالذات، المدينة التي تجنّب زيارتها حتى الآن، فالرجل الذي وُلد في منطقة القصيم لم يترك مناسبة ولم يعلن فيها تفاخره بأنه تعلم وترعرع في واحدة من تلك المناطق «الأكثر أصالة» في المملكة، فهل هناك أكثر أصالة من منطقة أنجبت شاعراً مثل عنتره بن شداد، وشاعراً مؤمناً مثل زهير بن أبي سلمى، الأول مات مقاتلاً شجاعاً والثاني ترك اسمه مخلداً في التاريخ، فمن غيره مدح نبي المسلمين صلى الله عليه وسلم، ومن غيره حصل على ذلك الاستثناء: السماح له من نبي المرسلين، محمد «صلوات الله عليه»، بتلاوة الشعر، ﴿الشعراء يتبعهم الغاؤون﴾، كما «جاء في كلام الله عز وجل!»، لكن «إلا زهير بن أبي سلمى»، قال الرسول «الكريم»، نعم، كم ردّد ذلك أمام أساتذته وطلابه، وهو لو لم يولد في هذه المنطقة لما عرف بسرعة أن الدراسة في مدارسها هي امتياز لا يفوقه امتياز آخر، أفضل مدارس المملكة هي في منطقة القصيم، في طفولته دخل مدرستها الابتدائية المشهورة، مدرسة آل سليمان، وعندما سيصبح يافعاً سيدرس في ثانويتها «المعهد العلمي في بريدة»،

قبل أن يكمل دراسته لاحقاً في كلية الشريعة وأصول الدين في عاصمة الإقليم، والتي هي جزء من جامعة الإمام محمد آل سعود (الجامعة الإسلامية في بريدة).

في تلك الكلية كان له شرف التلمذ على أيدي شيوخ سعوديين تركوا بصماتهم على تاريخ المملكة الحديث، يكفي أن يأتي على ذكر واحد منهم، الداعية المعروف عبد العزيز بن باز الذي شغل منصب المفتي في المملكة ورئيس هيئة كبار العلماء فيها أيضاً، ولولا جهود الشيخ هذا، كما ردّد الشيخ يوسف الأحمد مراراً، لما حفظ بسرعة قياسية مقارنة ببقية زملائه «القرآن الكريم ثم الأصول الثلاثة والقواعد الأربع وكتاب التوحيد والعقيدة الواسطية و متن الآجرومية، و متن الرحبية»، نباهته وحماسه لتعلم الديني السريع جعلنا الشيخ ابن باز ينتبه إليه ويشجعه على قراءة شرحه للسيرة النبوية لابن تيمية على عدد من المشايخ، رغم أن يوسف الأحمد كان آنذاك ما يزال طالباً في كلية الشريعة، فتفوقه وحفظه المبكر لعلوم الدين الذي أهله للتميز وجعل نجمه الوظيفي يصعد بسرعة قياسية، ليصبح معيداً في الكلية التي تخرج فيها، وبعدها بسنة واحدة فقط يصبح أستاذاً في جامعة الإمام محمد بن سعود، قبل أن يُعفى من مهامه التدريسية وذلك بعد أن صرّح في أكثر من مرة من خلال محاضراته سواء في الجامعة أم خارج الجامعة بأمور سياسية فيها نقد لبعض المعاصي «البدع» كما أطلق عليها، التي انتشرت في المملكة «مثل وباء الطاعون»، حسب قوله، التلفزيون والأغاني والسماح ليس للنساء بالعمل بدون محرم في الصحافة والإعلام وحسب، بل السماح لهن بلبس الأقمشة الحريرية، والسفر للدراسة إلى خارج البلاد.

وهو لم يفهم حتى اليوم، كيف أن وليّ الأمر، صاحب العرش في هذه المملكة، «حارس الحرمين الشريفين»، المسؤول عن كل دور عبادة المسلمين في طول الأرض وعرضها، صدّق كلام المنافقين وأمر بسجنه فوراً، قالوا له إنه

ضد العرش وضد وليّ الأمر، ويجب إيقافه عند حدّه، حبسوه فترة من الزمن في أحد سجون مدينة الرياض، ولو لم يلتفت إليه أحد الأمراء الذي كان مسؤولاً عن أجهزة الأمن والمخابرات في تلك الفترة، لظل هناك سنوات أخرى، زاره هذا الأمير في سجنه في مدينة الرياض، وعرض عليه إطلاق سراحه، مقابل تسلمه إدارة ما أطلق عليه في حينه «الصحوات» تلك المجالس التثقيفية التي أسست في ربيع عام 1980، والتي لم تكن جواباً على الدعايات المعادية «الخمينية والثورة الإيرانية» فقط، بل حملت على عاتقها في المقام الأول مهمة تربية وإقناع الشباب بصورة غير مباشرة للالتحاق بحركة المجاهدين»، أو ما أطلق عليهم آنذاك، «العرب الأفغان».

لم يأت اختيار الأمير المسؤول عن أجهزة الأمن والمخابرات له عبثاً، فقد كانت شهرة الشيخ أو الداعية منذ ذلك الحين، (هذا ما سنطلقه عليه منذ الآن) وصلت إلى مسامعه، ليس بسبب محاضراته التي كانت أكثر تأثيراً بين أوساط الشباب، بل أكثر بسبب ذبوع صيته بصفته أشد علماء جيله تزمناً في شرح كتب السنة والسيرة النبوية وكتب الإمام ابن النحاس وابن تيمية، تلك الكتب والمخطوطات التي تداولها ما أطلق عليهم المجاهدون الذين ينشرون مبادئ الرأية الوهابية في العالم، بصورة خاصة في أفغانستان.

وحسب التقارير التي وصلت إلى مكتب الأمير، أن برامج التوعية والتثقيف في معسكرات المقاتلين العرب الأفغان استندت في أغلبها على كتب الشيخ يوسف الأحمد وشروحه المستفيضة لعلوم القرآن والسنة والحديث، «مثل تحقيق المفهم على مختصر صحيح مسلم»، أو «الكتاب البدعة وأثرها في الدراية والرواية»، أو «نسيم الحجاز في سيرة ابن باز»، أو «طرق القعود في المعركة الفاصلة مع اليهود»، أو «طهارة الأعضاء في استخدام الماء»، أو «بناتي» و«هموم فتاة ملتزمة»، الذي قيل إنه وراء التحاق العديد من النساء

المسلمات بالمجاهدين الأفغان للزواج بهم والعيش معهم في معسكرات التدريب هناك، وآخرها مؤلفه «افعل ولا حرج»، ولكن يظل طبعاً مؤلفه الأشهر من نار على علم هو «السنة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية»، كتاب أَلّفه لتفنيد حجج مذهب الإمامية وهو أشهر كتاب في الردّ على «الروافض»، وعندما قرأ الأمير المذكور التقرير الخاص بالداعية الذي جاءت أغلب الفقرات المذكورة أعلاه فيه، والذي جمعه له أحد مستشاريه في شؤون الجهاد، فكر أن ليس هناك شخص مؤهل أفضل من الشيخ السجين هذا للإشراف على فكرة الصحوات التي استندت أصلاً إلى دعاوى موجودة في كتبه ذاته، وأن المملكة ممثلة بشخصه ستضرب بهذا الشكل عصفورين بحجر واحد، أولاً إطلاق سراح الداعية من السجن وجعله يعمل في المجال الذي يريده، بثّ أفكاره السياسية دون التدخل في شؤون المملكة الداخلية، وثانياً تسخير أفكاره السياسية وتحمسه لخدمة أهداف المملكة.

في يوم شتائي بارد لكن مشمس، اتصل هذا الأمير الاستثنائي بالنسبة له، اتصل بمدير سجن الرياض وطلب منه إخراج الشيخ الداعية يوسف الأحمد من زنزانته الانفرادية وإحضاره له إلى مكتب المدير و«معاملته باحترام»، هكذا قال له الأمير بالحرف الواحد، وعندما قاده مدير السجن بنفسه إلى مكتبه وليس أحد السجنائين العاملين هناك، ارتاب الشيخ يوسف الأحمد بعض الشيء، فكر أنهم ربما يريدون نقله إلى أحد سجون الرياض الأخرى، إلى سجن الحائر في جنوب الرياض أو إلى سجن القنفذة مثلاً، لكن عندما شعر بمعاملة مختلفة له هذه المرة، حتى إن مدير السجن طلب منه عند وصولهما إلى المكتب تحضير نفسه بشكل جيد، وتعديل هندامه أكثر، عرف أن مفاجأة أخرى كانت تنتظره، رغم أنه كان من الممكن أن يفكر بكل شيء، باستثناء أن يرى الأمير هذا الذي كان يعرفه القاصي والداني في حينه، جلس بانتظاره هناك، وقد التبس الأمر عليه للوهلة

الأولى، وقف تحية للأمير، ولم يطمئن إلا عندما رأى الأمير ينادي أحد مرافقيه، ويطلب منه أن يحضر لهما فنجاني قهوة، أشار له الأمير أن يجلس.

«أنت منذ الآن تحت حماية الأمير»، قال له الأمير مباشرة وقبل أن يضع المرافق فنجاني القهوة على الطاولة، ثم حدثه عن ملابس سجنه، وكيف أن الذين أمروا بسجنه، لم يفهموا ما كان يدعو إليه، أخبره الأمير بأنه لهذا السبب جاء لزيارته في السجن، وأنه سيطلق سراحه اليوم، وأن عليه أن يعرف المهمة التي أُلقيت على عاتقه منذ اليوم، «سيكون عمك الأساسي في الهيئة»، قال له الأمير، لا حاجة للداعية يوسف الأحمد أن يسأل الأمير، ماذا يعني بالهيئة، فالشداشة القصيرة التي لبسها الأمير والغترة البسيطة التي وضعها على رأسه، ثم لحيته الخفيفة التي أطلقها، كل ذلك إشارة متعمدة من الأمير نفسه إلى زي الهيئة التي قصدتها، فأجابه يوسف الأحمد: «أبشر يا أمير»، دون أن يصدق عينيه بأنه رأى أخيراً الأمير الوحيد في العائلة المالكة الذي يكنّ له الكثير من الاحترام مقارنة بأمراء آخرين.

كان الأمير في أواسط الثلاثينيات من عمره وكانت مرّت ثلاث سنوات على تعيينه مديراً لإدارة الاستخبارات العامة خلفاً لخاله الذي أُحيل للتقاعد، لقد سمع بخبر تعيين الأمير وهو في السجن، سمع أيضاً كيف أن عم الأمير، وزير الأمن كان وراء تعيينه، لأنه رأى في ابن أخيه الشاب الطموح الذي نذر حياته لخدمة المملكة والمحافظة على أمنها، فضل العمل في جهاز الاستخبارات على مواصلة دراسته للهندسة المعمارية في جامعة جورج تاون في ولاية واشنطن الأميركية، «ما معنى دراسة الهندسة المعمارية أمام خدمة المملكة لكي ترفرف المبادئ الوهابية في كل ربوع الكرة الأرضية»، كما كتب في رسالة طويلة نشرتها صحيفة «الدنيا» الصادرة في لندن آنذاك قبل انتقالها إلى بيروت لاحقاً، والتي بعثها أصلاً إلى أبيه لكي يخبره بقطع دراسته والعودة

فوراً للعمل في جهاز الاستخبارات، لم يكن يوسف الأحمد الشخص الوحيد الذي مدح توجهات وحماس هذا الأمير الشاب، بل أغلب سجناء العقيدة والرأي وصلتهم أخبار الأمير «المجاهد» الذي أخذ على عاتقه قضية الجهاد في أفغانستان وجعلها من أولويات كل مواطن مسلم في المملكة، لأن فلسفته كمسؤول جديد لإدارة الاستخبارات هو تحويل هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذراع الطويلة الفعالة للأهداف التي تسعى إليها مديرية الاستخبارات في داخل المملكة، يوسف الأحمد وزملاؤه يعرفون الجهد الذي بذله ويبدله الأمير الطموح بتسخير كل ما يقع تحت سلطته لتقوية عمل هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتوسيع صلاحياتها لكي تشرف على عمل جهاز الشرطة والأمن أيضاً، وهو يتفق معه تماماً، بأن الوقت قد حان إلى إزالة سوء فهم في المملكة يحصر عمل الهيئة بصفتها شرطة دينية وحسب.

في تلك اللحظة وقبل أن ينتهي من شرب فنجان قهوته عرف الداعية يوسف الأحمد أن سنوات السجن أصبحت ماضياً قديماً لتبدأ الآن سنوات العمل الجاد، سنوات الدعاية الجهادية، «حان الوقت أن تبدأ بالحراك الدعوي» قال له الأمير، وهو يفهم ما أراد الأمير أن يقوله له من ذلك، «حان الوقت لكي ينطلق بإيقاظ الناس من غفوتهم»، «الجهاد في أفغانستان ينتظر كل مسلم»، ختم الأمير حديثه، ثم سلّمه مطروفاً «خذ هذا»، قال له وهو يدسّ المطروف في جيب دشداشة الداعية، «دفعة أولى لتغطية أعمال الجهاد»، في الليلة ذاتها غادر يوسف الأحمد السجن، في صباح اليوم التالي قيل رسمياً في نشرة الأخبار الصباحية، بأن «بلفتة كريمة من خادم الحرمين الشريفين القائد فخامة الملك تمّ الإفراج عن الشيخ يوسف الأحمد بعد إعلان توبته والسماح له لإقامة المحاضرات الهادفة والمليئة بالوسطية والبعيدة عن التطرف والغلو في الدين»، هذا هو الإعلان الرسمي، لكن ما قام به الداعية يوسف الأحمد هو بالضبط عكس ذلك.

في اليوم التالي من إطلاق سراحه زار يوسف الأحمد رئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للتنسيق معه وتزويده بكتيبة من المطوّعين أو النواب كما يُطلق أحياناً على رجال الهيئة، لكي يحضروا دروسه من أجل إلهاب الحماس عند الشباب الذين يحضرون دروسه، كأن الحماس نقص محاضراته التي عُرف عنها بأنها أكثر المحاضرات غلوّاً في الدين مقارنة بمحاضرات زملاء دعاة له، ولأنه تمتع بصلاحيات الإشراف على الصحوات فإنه لم يتردد بتوبيخ بعضهم، كل أولئك الذين لم يركزوا في هجومهم على «الروافض»، ذلك ما جعله يبدأ بالتجول منذ ربيع 1980 في ربوع المملكة وهو يحمل في يد كتاب «السُّنة النبوية لابن تيمية»، وفي اليد الثانية «نزهة المحhtar في وديان قندهار».

تسع سنوات استغرق عمله في الصحوات، لم يثبط من عزيمته عارض أو مرض في يوم، لا زواجه من جديد بثلاث نساء أخريات ولا إنجابه عدداً من الأولاد والبنات، وباستثناء زوجته الأولى، حرص يوسف الأحمد عادة على اصطحاب إحدى زوجاته معه في طوافه وغالباً ما تكون طبعاً زوجته الجديدة، لأن الأخريات عليهن البقاء في البيت الكبير الذي بناه في بريدة في حي الفائزية بعد حصوله على قطعة أرض هناك، هدية من الأمير نفسه، وفي كل جولاته السابقة ما كان يترك مدينة صغيرة أو قرية صغيرة أو إقليمياً إلا بعد أن يكون قد تأكد بنفسه مئة بالمئة من سير أعمال الصحوات، وبعد أن يطمئن أنه ترك وكلاء يثق بهم وكمطوعين أو نواب متحمسين، «تسع سنوات من ثبات الهمة وقوة الشكيمة»، كما كان يحلو له أن يردد، تسع سنوات، كان شعاره الأساسي فيها: «الحياة عقيدة وجهاد!» لم يشعر الشيخ الداعية يوسف الأحمد بالتعب أو التقاعس، من غير المهم إذا مرض أحد أولاده أو ماتت إحدى بناته، من غير المهم ما يحدث في العائلة، حتى عندما سمع بتمرد أحد أبنائه عليه، ابنه الأوسط حقيقة من زوجته الأولى، ناصر، قيل إنه ذهب للدراسة في جامعة البحرين، حتى العمل «الرجيم»

ذلك لم يثنه مواصلة عمله، فشخص مثله، كان من الممكن أن يأخذ لنفسه إجازة قصيرة ويذهب إلى البيت لكي يمنع ابنه عن قراره ذلك، «كلا، ليس هناك عارض يثني المؤمن عن واجبه»، كما صرح في إحدى الخطب أمام دعاة شباب في مدينة الرّس، كلاً أولاً، المهم في حياته هو الرسالة التي نذره الله لها، وهو ضعف الإيمان وقلة الدعاة وتراخي بعض الهيئات، جعل شباباً مثل ابنه ينحرفون وهو يعرف أن عمله هو الذي سيثمر في النهاية، سيجعل آلاف الشبان يصحون، ألم يخبره بذلك الأمير في زيارته له في السجن؟ وها هو بعد تسع سنوات من العمل الدؤوب، يتوّج جهاده بالحصول على شرف العمل على محاربة الفساد في المدن الساحلية، وفي المنطقة الشرقية خاصة.

في يوم بارد من شهر شباط/فبراير 1989، أرسل الأمير بطلبه، ليشكره على نشاطه في الصحوات، أو كما قال: «ها هي ثمار العمل تنضج ويُمكّن قطاها الآن»، لأن الأمير على قناعة بأن الروس ما كانوا قرروا سحب قواتهم من البلد المسلم، أفغانستان، إلا بعد أن «أدمتهم ضربات المجاهدين»، الذين تعلموا الإيمان على يدي شيخ مثله، بإشارة منه إلى إعلان موسكو قبل يوم من استدعاء الأمير له، بشكل رسمي سحب كافة قواتها من أفغانستان، و«أنها مسألة وقت»، كما أكد له الأمير و«تكون راية المبادئ الوهابية رفرفت هناك عالية»، كم شعر الشيخ الداعية يوسف الأحمد بالفخر وهو يسمع الأمير الاستثنائي هذا يعترف أمامه، بأن ما حدث هو ثمرة عمله منذ تسع سنوات، «درت المملكة شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً، لم تعد هناك مدينة أو قرية أو وادٍ أو شعاب في المملكة ليس فيها هناك صحوة». أيّ دفء تبعثه كلمات الأمير فيه في تلك الظهيرة الباردة، «لقد أتممت العمل المطلوب، وها هو وليّ الأمر يحتاجك في مهمة أخرى في ربوع المملكة»، قال له الأمير. وما كان يوسف الأحمد يصدق بالمهمة الجديدة، المكافأة التي تمنّاها من القلب حقيقة، فها هو الأمير يخبره، بأنهم

تتويجاً لعمله الجهادي يعينونه على رأس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المنطقة الشرقية: «لا أحد غيرك قادر على ضبط رأس الفتنة وقطعها هناك»، قال له الأمير وقد جحظت عيناه: «يجب قطع رأس الأفعى»، وكان يعرف ماذا يقصد الأمير في كلامه، دون الحاجة لعمل إشارة من يديه بقطع الرأس، فقال للأمير إنها أجمل هدية من سعادته له، وأن ليس هناك أعز على نفسه من محاربة الفساد هناك، «لن أرتاح إلا بعد أن أجعل المنطقة الشرقية ترجع إلى صوابها»، كما عاهد الأمير.

عندما رأت سارة سيارة رولزرايس ليموزين بيضاء تقف أمام بوابة دارهم الضخمة، ويخرج منها الخدم الهنود، يفتحون بابها لينزل منها رجل في نهاية الأربعين من عمره، لبس دشداشة بيضاء قصيرة، وضع على رأسه غترة حمراء مرقطة، لم يكن في مقدورها معرفة هوية هذا الشيخ الذي كان من الصعب معرفة سنه بسبب لحيته المصبوغة وشعر رأسه المصبوغ، والذي وقف أمامها فجأة وحياتها كأنه عرفها قبل ذلك اليوم، صحيح أن منظره خصوصاً بلحيته المصبوغة بالحناء ذكّرها بذلك الشيخ الذي زارهم في المدرسة الابتدائية وكان وراء طردها من هناك إلا أنها ظلت محافظة على هدوئها، لم ترتبك، على العكس، ردت على تحية الشيخ واتجهت ناحية البيت، و فقط عندما رأت الشيخ يدخل وراءها إلى البيت، وأنها تأتي من ناحية الممر وهي تتجه ناحية الرجل، تأخذ يده وتقبلها وتناديه «هلا خوي»، عرفت أن الرجل الذي حيهاا للتو هو ليس غير خالها الوحيد، يوسف الأحمد، من أين كان لها أن تعرف ذلك، فهي رأت خالها مرتين فقط، عندما أخذتها أمها في فترات زعلها إلى مدينة بريدة.

وفي تينك المرتين جاء أبوها لاسترجاع أمها بسرعة عجيبة، قالت له أمها، «جئت بسبب سارة وليس بسببي، أنت لا تستطيع فراق ابنتك!»، كم كان عمرها؟ أربع أو خمس سنوات؟ أو ربما أقل أو أكثر منها بقليل؟ لم يشغل بالها أمر خالها

في تينك الزيارتين، بل هي لم تعرف، أنه خالها، كان منظره غريباً بالنسبة لها سواء وهو يلبس دشداشته القصيرة، أم عندما يصبغ لحيته بالحناء والذي ربما بسبب منظره هذا المكرر والممل كانت رؤيتها له لم تعن لها الكثير أو لم تسجلها في ذاكرتها، لكن أصحاب الدشاديش القصيرة واللحي المطلية بالحناء كثيرين، وأن كل ما عرفته عن خالها سمعته لاحقاً ومع مرور السنوات من عائلتها، من أمها وأبيها، قيل لها إن خالها يسكن في مدينة بريدة، وإنه لا يزورهم لأن أشد ما يكره في حياته هو المدن الساحلية، وهي لم تفهم كيف أن إنساناً سوياً ما لا يحب البحر، خصوصاً أنها تنام وتصحو على صوت البحر؟ بل سمعت أن الأمر وصل بخالها في السنوات الأخيرة أن يكره الجو أيضاً، سمعت أنه لا يستقل طائرة أبداً مثلما لم يصعد على سطح باخرة قبل ذلك، أمر غريب، قالت في نفسها، وهي تعرف أنها ما كانت شغلت بالها بخالها لو لم تسمع مديح أمها له، صحيح أنها تأخذ عليه غلوه في الدين (أمر لم تفهم سارة معناه في حينه) إلا أنها كثيراً ما رددت في حضرة ابنتها، بأن الجلوس مع يوسف متعة، فهو حفظ في صباه مئات القصائد الشعرية المطولة من شعر الجاهلية والإسلام وشعراء العصر الحديث، وأن ما يعجبها فيه أكثر هو تجويده للقرآن، ليس هناك صوت أجمل من صوته، سواء في تلاوة الشعر أم في تلاوة القرآن، لدرجة أن الأم، وما إن عرفت بميل سارة للقراءة ولحفظ الشعر، تمت وجود أخيها قريباً من ابنتها، لكي تستفيد منه بتعلم جواهر الشعر كما تقول الأم.

أما من أبيها فقد سمعت سارة تعليقات أخرى بخصوص خالها، عرفت منه أيضاً، أنه كان التقى بخالها للمرة الأولى في أيام الدراسة في المعهد العلمي في الرياض، كانت تلك هي المرة الوحيدة التي درس فيها خالها خارج منطقة القصيم، وما سارع بنشوء صداقة بين الاثنين في أيام دراسة أبيها المتوسطة في المعهد العلمي في الرياض هو حفظ أبيها للشعر أيضاً، وكثيراً ما كان الاثنان

آنذاك، الأب والخال، يتباريان بإنشاد المطولات الشعرية أمام بقية الطلاب، ولكن لقول الحق، قال لها أبوها ذات مرة، كان خالك هو الذي يفوز دائماً، ليس هناك شخص يجاريه بحفظ المطولات الشعرية، لكن النقطة الوحيدة التي كانت تُحسب لأبيها هو أنه الوحيد الذي جرؤ في المدرسة على الدخول في تنافس معه، ذلك ما جعل يوسف الأحمد يعجب بغازي الجاسي ويميل إلى صداقته أيضاً، أمر لم يجعله يتردد بدعوته لزيارته في مدينته التي وُلد فيها، فبعد الانتهاء من الدراسة المتوسطة في الرياض، لم يستطع يوسف الأحمد البقاء بعيداً عن مسقط رأسه، «القصيم حياتي»، كانت تلك هي جملته المحببة التي واطب على ترديدها في ذلك الوقت، وكم حاول إقناع صديقه بالانتقال أيضاً والدراسة في المعهد العلمي للدراسة الثانوية في بريدة، ليس هناك معهد أفضل منه في كل المملكة، الشيوخ الذين فيه لا وجود لمدرسين مثلهم في مكان آخر، كان يوسف الأحمد يقول لصديقه، لكن أباهما أجابه بأنه مثلما يفهم وجدته لأرضه القصيم، عليه أن يفهم بالمقابل تعلقه هو أيضاً بأرضه، الرياض لا تناسبنا نحن الاثنين، قال له أبوها، أنت تحب قصيمك البرية، تحب النخل والتمر والقمح هناك، وأنا أحب الشرقية، أحب البحر والسّمك والسماء هناك، افترق الصديقان على أمل رؤية بعضهما مرة أخرى.

بعد سنة من فراقهما، ذهب غازي الجاسي لزيارة صديقه في مسقط رأسه، في قرية البُصُر، إحدى القرى الهادئة في الضواحي الغربية من مدينة بريدة في منطقة القصيم، كان يعرف أن من الضروري له أن يقوم بتلك الزيارة، صحيح أن صديقه فاقه في حفظ المطولات الشعرية، لكنه من ناحيته فاق صديقه بتسامحه، نعم، كان يحب البحر، لا يفضل مكاناً آخر على المنطقة الشرقية وعلى مدينة مسقط رأسه، الثُّقبة قبل أن تُبنى فوقها الخُبر لاحقاً، لكنه لم يكن متعصباً إذا تعلق الأمر بزيارة مكان آخر، أو الإقامة فيه لوقت قصير، ولحسن حظه أنه

قام بتلك الزيارة لأنه فقط بهذا الشكل عرف أن نساء منطقة القصيم هنّ أجمل نساء في المملكة رغم أنه لم يرَ واحدة منها قبل ذلك، ولا تستطيع مشاعل، أم سارة أن تكتم ضحكتها عندما تقول تلك الجملة، وهي تروي تلك القصة، قصة زيارة أبيها الأولى وتعرفها إليه بالصدفة، تتذكر كيف أنها كانت شابة صغيرة أو صبّية كما يصرّ أبوها على القول، وكانت في زيارة لبيت عمّتها القريب، لكن وقبل أن تصل إلى بيتهم، رآها بدويّ جالس بانتظارها عند زاوية الشارع، كما اتضح من هجومه عليها مباشرة بعصاه، ضربها ضرباً مبرحاً حتى فقدت وعيها، لم يكن هناك أحد غيرهما في الشارع ولولا غازي الذي ظهر فجأة من زاوية قريبة، «أرسله الله لإنقاذي في الحقيقة»، تقول أمها، أية مصادفة؟ ففي تلك اللحظة ما كان غازي الجاسي رأى البدوي يرفع عصاه عليها، لو لم يفكر قبلها بالتوجه إلى البدوي لكي يسأله، إذا كان يعرف بيت يوسف الأحمد، كان الشارع مقفراً في تلك الظهيرة، ولم يعرف غازي أن البدوي جلس القرفصاء هناك بانتظار عودة الصبية، المفارقة الأكبر من ذلك هو أن البدوي ما إن رأى غازي يقترب منه، حتى ظن أن غازي الجاسي أراد عن طريق توجيه صوبه، مشاركته بضرب الفتاة بالعصا، الأمر الذي جعله يصرخ به أن يبتعد حالما رآه يحاول تخليصه لها من يده، لأن أمر تأديب هذه الصبية الكافرة التي لفت على جسمها ثوباً من الحرير أمر محصور بالمطوعين وحسب، كما قال له البدوي، حتى ذلك اليوم لم يعرف غازي الجاسي أن لبس الحرير معصية تستحق العقاب حسب ما تقوله تعاليم الإمام محمد بن عبد الوهاب؟ بصعوبة بالغة خلص غازي الصبية من يد البدوي صاحب الدشداشة القصيرة، كانت الفتاة فقدت الوعي وهذا ما جعل البدوي يختفي بسرعة، وعندما حدق غازي الجاسي بالصبية التي رقدت على الأرض أمامه، بهره جمالها ولم يعرف ماذا يفعل، قال لنفسه: «إذن لم تكن كذبة التي أشاعها أهالي القصيم عن نساتهم»، لحسن الحظ رأى غازي امرأة عجوز تخرج

من البيت المقابل في يدها إبريق ماء، صرخت المرأة عالياً وهي تصيح، قتلها البدوي ابن البدوي، رشت عليها العجوز الماء، وعندما رآها تفيق، تنفس بعمق، لم يعرف أن الصبية هي أخت صديقه، وأن اسمها مشاعل إلا بعد رؤيته لصديقه يهرول باتجاه مكان وقوفهم حاملاً سلاحه، لكي يلاحق البدوي الذي تحدثت عنه العجوز، منعه غازي الجاسي وأخبره أن من الأفضل له العودة للبيت، رقدت مشاعل مريضة عشرة أيام، شفيت من جراحها، لكن قلبها هو الذي مرض هذه المرة، تضحك أمها وهي تروي هذه القصة، لكن لولا ما حدث لي لما تعرفت إلى أبيك، لما كان رأيي ويطلب يدي بعد سنة من تلك الحادثة، وكم سمعت أباهما يعلق بعض المرات، «واليوم الذي يحمل العصا على لابسات الحرير أخوك، الشيخ أو الداعية يوسف الأحمد!»، صحيح أنه يعيب على حميه غلوّه في الدين إلا أنه عندما سمع ذات مرة من زوجته مشاعل بأن يوسف اتصل بها، وأخبرها أنه طلب بنفسه من المسؤولين في الهيئة أن يبدأ بمهمته الجديدة من المنطقة الشرقية وفي مدينة الخبر بالذات، وجد غازي الجاسي في ذلك فرصة لتوسيع نفوذه، وقبل أن يعرف الهدف الرئيس وراء انتقاله، بل قبل أن يعرف بأن حماه عندما زارهم في ذلك اليوم، في بيتهم في الخبر كان مرّ على وجوده في الدمام القريبة من الخبر قرابة أسبوع.

كان يوم خميس، وكان غازي الجاسي يختتم على عادته الأسبوع بتفقد أعمال شركته في القاعدة العسكرية في حفر الباطن وفي مدينة خالد العسكرية، لكي يتأكد بنفسه من نجاح التجهيزات التي نفذتها شركته خلال أيام الأسبوع. لم يكن قلقاً بسبب سير الأعمال هناك، لم ينقصه في الحقيقة شيء، كانت أعماله تدور هناك بدون مشاكل، وكانت التجهيزات تتوسع، فالكميات المتواضعة التي كان يقوم بتجهيزها للقاعدة الأميركية في البداية أصبحت لا تسد الطلب، وهو محظوظ كما سمعته يعترف لأمها ذات يوم، منذ ولادة سارة وأعماله التجارية

في تصاعد، في البداية حصل على عقد التجهيزات في قاعدة عبد العزيز الجوية في الظهران، في القاعدة الأم لجميع القواعد الأميركية في الشرق الأوسط، أي امتياز؟ كما كان يردد أمامها بفخر، ثم بعد ذلك بست سنوات في المقر الجديد الذي أنشأته وزارة الدفاع لقوات درع الجزيرة في حفر الباطن، ثم ليلحق بذلك بسنة واحدة فقط حصل على عقد العمل في مدينة خالد العسكرية، من كان يظن ذلك؟ وهو سعيد الحظ ليس بسبب ولادة ابنته هذه التي جلبت معها الحظ وحسب، بل أيضاً لأنه عثر على شخص دعمه بتجارته، وإن كان ذلك الدعم غير رسمي، غير مختوم بعقد، اللويتنانت دانييل بروكس، ابن حلال حقيقي، إذ لولاه لما عرف بالمناقصة التي أعلنتها هيئة أركان قوات الدرع قبل سنتين، ولحسن حظه أيضاً أن ذلك الإعلان جاء أولاً في نهاية 1985، بعد ثلاث سنوات تقريباً من اختيار حفر الباطن مكاناً لقوات درع الجزيرة، وإلا لكان من الصعب عليه تلبية طلبات مقر القوات العسكرية لو حصل على عقد التجهيزات مبكراً أو لينجح بتلبية طلبات مدينة خالد العسكرية بعد سنة من عقد العمل في مقر قوات الدرع، ففي ذلك الوقت كانت بداية انطلاقته بالعمل في قاعدة عبد العزيز الجوية في الظهران، أما الآن وبعد توسع شركته، لم يعد من الصعب عليه إمداد وحدات وقواعد عسكرية أخرى، صحيح أن العدد الإجمالي لقوات الدرع تلك هو خمسة آلاف جندي فقط، يقيمون في حفر الباطن بالقرب من الحدود الكويتية السعودية إلا أن ما فكر به بطريقة صحيحة، فذلك كان مجرد بداية لكي يوسع عمله لاحقاً في قاعدة حفر الباطن الجوية، وثم في مدينة الملك خالد العسكرية التي تبعد قرابة خمسة وثمانين كيلومتراً عن مدينة حفر الباطن، وقرابة ثلاث مئة وسبعين كيلومتراً عن الخبر، كما وعده في حينه دانييل بروكس، أخبره اللويتنانت الأسود، كيف أن المجهز الذي جهز القواعد العسكرية الثلاث والذي كان مقره في مدينة خالد العسكرية، اللبناني رفيق أبو ديغول، توقف عن العمل

بسبب رغبته بالتفرغ لمشروع أكبر كلفه الملك فهد عبد بن العزيز به (تحديث مكة كما عُرف لاحقاً).

ولحسن حظه، قال له دانييل بروكس، إن العسكري المسؤول المشرف على بناء مخازن تجهيزات قوات الدرع في مرحلتها الأولى هو زميل قديم له منذ بداية التحاقه بقطاع الهندسة العسكرية الأميركي، اللويتنانت الثاني دافيد باربيرو، عرفه من سنوات عمله في مناطق أخرى، في المرة الأولى عمل معه في مكتب واحد وبدرجة وظيفية متساوية في قاعدة الرياض الجوية في مدينة الرياض، وفي المرة الثانية عندما أصبح دانييل رئيساً على دافيد في قاعدة فهد البحرية في جدة، صحيح أن كل واحد منهما انتقل إلى مكان عمل آخر، لكنهما بقيا على اتصال، دافيد باربيرو شخص متمرس، حكيم، يعرف أن الخبرة ثروة يمكن تبادلها مع من يثق به، قال له دانييل بروكس، ولأنهما وثقا ببعض ولأن علاقة العمل بينهما كانت أكثر من صداقة، حافظ دافيد باربيرو على قنوات الاتصال بينهما لتبادل الخبرات، هذا ما جعله يتصل ذات يوم بصديقه القديم ورئيسه السابق دانييل بروكس، ويقول له، ألم تخبرني بأن لديك شخصاً رائعاً يمكن الاعتماد عليه بالتجهيزات؟ وعندما أجابه بنعم، قال له دافيد باربيرو، أرسله لي. في اليوم التالي قاد غازي الجاسي سيارته الجي. أم. سي. باتجاه حفر الباطن، قال له دانييل بروكس «عود لأك»، ثم جهزه بكلمة السر لدخول القاعدة العسكرية الجديدة هناك. كانت تلك هي المرة الأولى التي لم تذهب بها سارة معه في السيارة. في تلك الأيام أيضاً بدأت للمرة الأولى صداقتهما بالانفراط، وعندما شكت سارة من ذلك ذات يوم، وسألته، متى سيأخذها معه إلى حفر الباطن، قال لها، في العطلة المدرسية، وعندما جاءت العطلة المدرسية، سألته مرة أخرى، فأجابها هذه المرة، عندما تكبرين، وعندما سألته ماذا يعني ذلك؟ كم يجب أن يكون عمري لكي أكبر؟ فأجابها ضاحكاً عشر سنوات!

لكن ما لم يقله أبوها لها، هو أن دافيد باربيرو عرف عن طريق صديقه دانييل بروكس بأن غازي الجاسي يصطحب ابنته سارة دائماً معه، صحيح أنه لم يجد في ذلك ما يستدعي الاهتمام، لكنه كما قال لغازي يطبق التعليمات، والتعليمات عندهم تقول: ممنوع دخول الأطفال بعد سنّ السادسة إلى مقر قوات الدرع، الأمر له علاقة بالأسرار، «وكما تعرف»، قال له «كل الصغار مهذارون» تلك التعليمات التي لم يسمع غازي مثلها في قاعدة عبد العزيز الجوية في الظهران لم تثر الامتعاض عنده، فهو في كل الأحوال ما كان فكر بأخذ ابنته معه إلى مقر قوات الدرع الذين هم حسب ظنه «دهماء»، جنود سعوديون وعرب قادمون من الإمارات والكويت وقطر والبحرين، وهؤلاء بالتأكيد سينظرون إلى بنت عمرها تسعة أو عشرة أعوام بنظرة أخرى، غير بريئة، على عكس الجنود الأميركيان طبعاً، كما أنه لا يريد أن يضطهدها ويأخذها معه طوال طريق قرابة أربع مئة وخمسة وخمسين كيلومتراً، من الظهران إلى حفر الباطن، المسافة بين الخُبر وحفر الباطن ومن هناك حتى الحدود الكويتية السعودية، ثم العودة والمرور بقاعدة حفر الباطن الجوية وبمدينة خالد العسكرية، كلا، إنها مسافات طويلة، قال لنفسه، ثم إن سارة مشغولة بالمدرسة، والأكثر من ذلك مشغولة بصديقتها الحميمة الهنوف، وهو سعيد أن أخوة الهنوف يملكون سيارة أيضاً، هكذا عندما زار الشيخ يوسف الأحمد بيت أخته مشاعل، كان صديقه القديم وحموه حتى تلك الساعة، ساعة دخوله للبيت في حفر الباطن، ولم يأتِ إلّا في المساء، قبل العشاء بنصف الساعة على أكثر تقدير.

في اليوم الأول من وصوله ومباشرة بعد دخوله مكتب الهيئة طلب الشيخ يوسف الأحمد أن يجلبوا لهم ملفات المتقدمين للعمل في مجالس الصحوات، مئة وخمسون كان عدد الراغبين بالعمل من الشباب، صحيح أن هذا العدد بدا له صغيراً قياساً بالمهمات الملقاة على الدعاة في هذه المنطقة بالذات، أكثر

مناطق المملكة معصية وفساداً، إلا أن العدد هذا لا بأس به كبداية للانطلاق في مسيرة يعرف أنها لن تكون سهلة في هذا الإقليم، ليس بسبب وجود جسر الملك فهد الذي سهل زيارة الشباب والشابات للبحرين بحجة الدراسة هناك فقط، بل لأن الإقليم هذا يحوي على أكبر نسبة من عدد «الروافض» أو «الرافضة» في المملكة، كما يُطلق رسمياً في المملكة على سكان تلك المناطق، وحتى هؤلاء المئة والخمسين تقلصوا، ليصبحوا مئة وخمسة وثلاثين فقط، كان عليه أن يصر على أسنانه لكي يقرّر رفض طلبات خمسة عشر منهم، لم تعجبه سيرتهم، كل واحد منهم عنده نقص، بعضهم أمهم شيعية أو مالكية، وهذا لا يجوز بتاتاً، «المتقدم يجب أن يكون من أبوين وجدين سعوديين!»، كما سمعته سارة يقول لاحقاً لأبيها، أثناء الجلوس إلى مائدة العشاء، وهو يروي مغامراته في العمل في المنطقة الشرقية، كلا، أكمل وهو يروي بحماس، كان لا بدّ له أن يفعل ذلك، لقد دقق بسجلاتهم عشرات المرات، ولم يجد خياراً آخر غير اتخاذ هذا القرار، طبعاً كان عملاً مرهقاً، لكن كان لا بدّ منه، فهو لم يقم بمراجعة سجلات المتقدمين وحسب، بل ناقش مع رجال الحسبة، رجال الشرطة الدينية كل الإجراءات التي عليهم أن يتخذوها منذ الآن، ولم يهدأ له بال إلا بعد أن علم بعدد نفوس «الروافض» الذين يسكنون في الإقليم، ولم ينسَ أن يصرّ على تسلم قائمة من شرطة المدينة بأسماء هؤلاء وعناوينهم ومحل سكناهم، بل وأرقام سياراتهم، كان من الضروري أن يفعل ذلك، لأن الجرد سيسمح له بالعمل بدقة، لكل مئة من الرافضة يقابله داعية واحد من رجاله، لا نريد أن تتكرر مشاغبات محرم عام 1400، يجب أخذ كل الاحتياطات ودراستها بشكل حذر.

للهولة الأولى ظنّ أن العمل سيستغرق يوماً واحداً، أو يومين على أكثر تقدير، أو لنقل ثلاثة، أو أربعة، أو ربما سيستغرق أسبوعاً أو أسبوعين، أو لنقل ثلاثة، أو في أسوأ الأحوال سيستغرق شهراً أو شهرين، أو ربما ثلاثة، ويأتي لزيارة بيت أخته

وقضاء ليلة مع صديقه القديم يتلوان الشعر أو يجودان القرآن، لكنه لم يعتقد أن العمل سيأخذ من وقته شهوراً، نعم، شهوراً، استغرق عمله حتى الآن قرابة العام، في كل مرة كان يقول، إنه سينتهي من العمل ويأتي لزيارتهم في الخبر، ولو لدقائق قليلة، لكنه كلما انتهى من ملفات «الروافض» في هذه المدينة، أرسلوا في طلبه في مدينة أخرى، «إنهم لا يستطيعون العمل بدون مشورة أو إذن مني»، قال لأبيها، «بخافون من أي خطأ صغير»، ومع الوقت أصبحت عنده القناعة، أن أمامه الكثير، الكثير من العمل، ولن يهدأ له بال، إلا إذا انتهى من عمله، ورتب كل شيء، ووضع في مكانه، حتى لا يحدث ما يمكن أن يؤاخذوه عليه، الثقة التي أولاها الأمير له كبيرة، يجب أن ينفذ المهمة التي وضعها الأمير أمانة في عنقه، «قطع رأس الأفعى»، ومن أجل جعل الأفعى تموت، عليه التضحية بوقته مؤقتاً، في المقام الأول عليه أن لا يترك مدينة أو قرية، مهما كانت صغيرة، ألا يترك أي مكان في المنطقة الشرقية، وقد درّب فيه من يعتمد عليه، أما أخته وصديقه القديم سيسامحانه، لا بدّ من تأجيل زيارته لهما، ماذا يعني مرور سنة على عمله هنا، فهو لا يستطيع أن يأتي لزيارتهم إلا وضميره مرتاح، إلا ويكون قد أعدّ الشباب الذين يعتمد عليهم، «الشباب الواعون لمهتهم»، لا تنظلي عليهم حيلة ولا يغريهم فساد، «الجهاد في المنطقة الشرقية يتطلب الحيطة والحذر أكثر من أي مكان»، لماذا؟ لأن «الرافضة هؤلاء، يا غازي»، قال خالها وهو يخاطب أباه، «أنجاس ملاعين، يتلونون مثل الحرياء، حرباويون، بعضهم سجل باسم آخر، أخفى ديانته ومكان عمله، كشف تلاعباتهم يحتاج إلى الوقت والجهد وفراسة العرافين، على رجال الهيئة أن يستلّوهم مثلما يستلّون الشعرة من العجين». ثم روى خالها لأبيها، بعد أن اطمأن، أن لا أحد بعد الآن سيعاتبه عن عدم زيارته لهم بعد نقله إلى المنطقة الشرقية مباشرة، روى لأبيها وكانت أمها تصغي أيضاً رغم أن أخاها لم يحدق بها أو يلقي عليها ولو نظرة واحدة أثناء حديثه.

روى خالها كيف أنه عندما انتهى من ذلك، جمع المتقدمين للعمل في مجالس الصلوات، حدثهم عن الواجب المقدس الذي ألقاه الله على عاتقهم، كان من الضروري أن يفهمهم أن عمل الصلوات ليس غير فقرة واحدة بسيطة من برنامج شامل عليهم أن يندروا أنفسهم إلى تنفيذه بالتدرج، «العجلة من الشيطان، يا أولادي»، قال لهم، «المهم هو تحقيق دستور دولتنا الإسلامية، لأن المهم في النهاية هو أن ترفرف راية المبادئ الإسلامية الصحيحة كما فهمها وشرحتها أولئك المشايخ الذين وثق بشروحاتهم، خبرته في الحياة قالت له، الصبر هو فضيلة أهداها الله للمؤمن، وإنها مسألة وقت، وسيؤمن الجميع بما تدعون إليه، هذا الإقليم هو أكثر أقاليم المملكة فحشاً وكفراً، وأنتم تعرفون لماذا؟ بناء جسر الملك فهد لم يفعل غير أنه كشف عن مرض الناس في هذه المناطق، الشباب والشابات لا يذهبون إلى البحرين من أجل الدراسة وطلب العلم بل من أجل الرذيلة، هناك يختلطون مع بعضهم، أعود بالله من شر الاختلاط، ذلك هو الهدف الذي عليكم أخذه اليوم بنظر الاعتبار، تنفيذ الحجر الأساسي الذي يعتمد عليه دستور الإسلام: منع الاختلاط، الذي هو بالنسبة للدين بدعة يتقنها الروافض لإفساد أمة الإسلام، كلا لا اختلاط بعد اليوم، سنقضي على الاختلاط». تلك هي الرسالة التي كلفها به الله عن طريق نبيه الطاهر.

ولكي يبين لطلابه ماذا كان يعنيه، قال لأبيها، روى لهم قصة قديمة، عليهم الاستفادة من عبرها، حدثهم عما جرى له في تلك الليلة التي ضرب فيها أعرابي أخته، في ليلة ذلك اليوم زاره نبي المسلمين «صلى الله عليه وسلم» في منامه كأنه عرف بأنه لم يستطع النوم في تلك الليلة بسبب الغيظ الذي تراكم في داخله، كأنه أراد مكافأته على سهره، على تقلبه في فراشه طوال الليل، كم كان في تلك الليلة على عجلة من أمره، أراد أن يطلع النهار بسرعة، لكي يبدأ بالبحث عن الأعرابي، لكنه وفي إحدى تلك اللحظات التي نام فيها أو تلك التي

شاء له فيها الله النوم، حلم بذلك الحلم الغريب، لم يصدق نفسه للوهلة الأولى أن النبي محمداً «صلوات الله عليه» بشخصه، بلحمه ودمه يزوره بنفسه وقد اصطحب معه ثلاثة شيوخ، الشيخ ابن تيمية والشيخ محمد بن عبد الوهاب والشيخ عبد العزيز بن باز.

كان الصبي يوسف الأحمد آنذاك ينام في فراشه، عندما رأى ضوءاً منيراً أمامه، حزمة ضوء كبيرة خطفت عينيه، أراد أن يفتح عينيه ويصحو، لكنه شعر بيد تلمس كتفه وبصوت قوي لكن جميل يطلب منه أن يحافظ على نومه، يقول له، كم هو بحاجة للنوم، ليس لأنه تعب ولم ينم في تلك الليلة بطولها، بل لأن عليه التفكير بحكمة وروية، «هل ترى هؤلاء؟» سأله النبي «صلى الله عليه وسلم» وهو يشير إلى الشيوخ الثلاثة الذين وقفوا خلفه، وقبل أن يجيب، ابتسم النبي «الكريم» بوجهه، وقال له: «إنهم وحدهم الذين يمثلونني على الأرض، لا تثق بأحد غيرهم». ثم جلس النبي «الطاهر» إلى جانبه على السرير، وقال له: «لماذا أنت غاضب من ضرب الأعرابي لأختك، وإن ابن العرب هذا لم يرتكب ما هو مخالف لأحكام القرآن والسنة النبوية؟ اقرأ القرآن بإمعان، ادرس كتب السنة النبوية وشروح الشيوخ الثلاثة هؤلاء، ستتعلم يا ولدي أن لبس الحرير معصية عند الله والأكثر عصيانياً هو أن تسير فتاة على الدرب نفسه الذي يسير عليه الفتیان، أختك استحققت الضرب يا ولدي، وأمامك أمران، إما أن تحبسها في البيت ولا تجعلها تخرج أو تزوجها بأقرب فرصة ممكنة، وبعد ذلك يا ولدي، عليك أن تجعل لحياتك هدفاً واحداً لا غير، أن تحارب الاختلاط وتمنع كل من اتخذ الحرير لباساً، وعلى وجه الخصوص الاختلاط، لتعرف يا بني أن الأمة ستعيش بسلام، لو مُنع اختلاط الجنسين في الأماكن العامة وفي كل مكان، عليك ألا تترك مجالاً واحداً يسمح به بالاختلاط»، وقبل أن يودعه النبي «الكريم»، طلب منه أن يعاهده على تنفيذ ما أوصاه به.

ربما نسي هو العديد من الأمور في زحمة السنين، ربما أخطأ في تذكّر هذا الأمر أو ذاك، لكنه لم ينسَ هذ الحلم «الطاهر» أبداً، وكان ينتظر الوقت المناسب لكي يبدأ بتنفيذ ما وعد به النبي «العزیز»، كان عليه أن يدرس ويدرس، لكي تكون حجته قوية، لا يجوز الاختلاط، يجب عزل الجنسين عن بعض، ولكي يقتنع المسلمون بما يقوله عليه أن يكون صاحب حجة، ألا يترك صغيرة أو كبيرة في القرآن وفي السنة النبوية وفي شروح الشيوخ الثلاثة إلا ويأتي عليها، ومن يقرأ كتابه سيعرف ذلك بالتفصيل، المبادئ التي شرحها في كتابه واعتمد فيه على الحجج التي جاءت في أحاديث النبي محمد «صلى الله عليه وسلم»، كما يقول، تتوزع في أكثر من مجال ويمكن ذكر البعض منها، تبدأ بالمدارس المختلطة وتنتهي بالمقابر.

نعم، قال الداعية الشيخ يوسف الأحمد لصديقه في الليلة الأولى من زيارته لهم في الخبر، يجب فصل قبور النساء عن الرجال أيضاً، يجب بناء شوارع خاصة بالرجال وأخرى بالنساء، حتى المساجد لم تخلُ من هجومه، «يجب هدم المساجد التي تحوي على أماكن للاختلاط»، كان صديقه غازي الجاسي ينصت له طوال الوقت أثناء جلوسهم إلى مائدة العشاء، لم يشأ مقاطعته، لكنه عندما وصل إلى موضوع الجوامع المختلطة، لم يستطع السكوت، فسأله عن أية مساجد يتحدث؟ فحسب علمه لا تملك المملكة هذا النوع من المساجد؟ أمر جعل الداعية يكاد يغصّ ببقمته.

رأته سارة، كيف يدفع بيده لقمة كبيرة توقفت في فمه، ثم يسعل ويعلق، أليس هذا هو الجهل في عينه، ألا يعرف مسلم مثلك، أن الحرم المكي في مكة يطوف ويصلي فيه النساء والرجال سوية؟ كان غازي الجاسي سمع الكثير عن غلو صديقه، لكن أن يصل فيه التطرف إلى هذا المدى، ذلك ما لم يتوقعه قبل ذلك اليوم، لم يبقَ له، غير أن يسأله، إذا كان ذلك رأياً شخصياً منه، أم إن هناك

من يفكر مثله في هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ لأن فيما يتعلق بالقضايا الأخرى المتعلقة بالاختلاط وفصل الجنسين لا يشك بوجود حلفاء معه في الهيئة، لكن في قضية الحرم المكي يجب التفكير طويلاً؟ فأجابه صديقه وقبل أن ينتهي من كلامه، أن ما يثير الاستغراب عنده حقاً، هو أن صديقه يفصل تفكير الهيئة عن تفكيره هو الشيخ يوسف الأحمد؟ «أنا الهيئة والهيئة أنا»، قال له بلهجة خطابية، صحيح أنه لم يعلن عن أهدافه حتى الآن علناً، لكنه ينتظر الفرصة المؤاتية، عليه أولاً أن ينجح بإغلاق المدارس المختلطة في المملكة، و فقط بعد ذلك سيعمل على نشر كتابه، وهو لا يشك لحظة بأن كل شيوخ هيئة كبار العلماء في المملكة سيقفون معه، أما فيما يتعلق بالجهات الرسمية وولي الأمر، أو على الأقل فيما يخص الأمير، فهو واثق من أنهم سيقدمون له كل الدعم اللازم وسيسخرون له كل ما يقع تحت سلطتهم من طاقات وإمكانات، من أجل تحقيق هذا الهدف، «إنها مسألة وقت لاغير»، قال الشيخ يوسف الأحمد لأبيه، «قلبي يقول لي ذلك».

في الحقيقة لم يعرف غازي الجاسي كيف يردّ على صديقه، وربما لحيرة منه أو للانتقال في الحديث إلى موضوع آخر وجد نفسه يتطلع فجأة إلى ابنته سارة التي جلست تصغي لهما باهتمام طوال الوقت، وعندما سألتها أبوها، لماذا لم تذهب مع أمها التي صعدت إلى غرفتها لتنام، طلبت منه أن يقرب أذنه منها، لتهمس له متسائلة: «أريد أن أعرف، إذا كان خالي يريد أن يغلق مدرستنا؟» ربما نسي أبوها موضوع ابنته أثناء الحديث أو ربما لأنه فكر أن في حديث صديقه وحميه عن المدارس المختلطة في المملكة المقصود هو المدارس السعودية وحسب، وليس المدارس الأجنبية الخاصة، مثل مدرسة الصداقة السعودية الأميركية في قاعدة الملك عبد العزيز في الظهران، لكن سؤال سارة جعله يصفن بالفعل ويستدير إلى الداعية يوسف الأحمد ليسأله، ماذا يقصد بالمدارس

المختلطة بالضبط؟ ليجيبه الداعية يوسف الأحمد، إذا كنت تقصد المدرسة المختلطة في القاعدة الجوية الأميركية فأنت تفكر بطريقة صحيحة، ليس ذلك وحسب، بل حتى مدارس البنات القريبة من مدارس الصبيان يجب اتخاذ تدابير رادعة لها، إما أن تُغلق وتُنقل الطالبات إلى مدارس جديدة، أو أن تُفصل المدارس المتجاورة مع مدارس الصبيان بجدار عالٍ، «علوّه ثلاثة أمتار على الأقل»، بالذات المدرسة التي تدرس فيها سارة، هي أول المدارس التي يجب أن تخضع لتعاليم الشريعة. ثم أوضح بأنه جاء أصلاً لزيارتهم بهذا الخصوص، وهو أخذ الاحتياطات اللازمة، سارة، قال وهو يتطلع بابنة أخته التي عرفت أنها ستسمع خبراً مشؤوماً في تلك اللحظة، ستبدأ في الفصل الدراسي القادم في مدرسة «سبق الإسلام» التابعة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، «نحن الآن في شهر جمادى الثانية أو يوليو كما يقول أصدقاءك الغربيون، في نهاية العام الدراسي»، قال خالها مخاطباً أباهما، ثم ليضيف، «من شهر ذي القعدة، سبتمبر القادم تبدأ سارة في مدرسة سبق الإسلام!» إذن هو لم يأت أصلاً لزيارتهم، لأنه اشتاق لهم، لأخته، أمها على الأقل، بل جاء بسببها، لكي يلقي على مسامعها الواجب الملقى عليها منذ الآن، لكي يقول لها، إن حياتها ستسير على المبدأ الذي يشاء، أيّ خبر مشؤوم كان عليها سماعه في ذلك اليوم، وإذا اعترض أبوها فإنه سيجد نفسه مضطراً لإخبار السلطات عنه، «أنت من هرب ابني، ناصر للبحرين»، قال الشيخ يوسف الأحمد لأبيها وكانت تلك هي المرة الأولى التي رأت فيها أباهما يرتعد، دون أن تعرف، إذا كان ذلك قد حدث بسبب الخوف أو الغضب!

معرفة ناصر المولع باختراع إنسان آلي سعودي

تعود معرفة سارة بناصر، ابن خالها إلى ست أو سبع سنوات ماضية، في ذلك الوقت كانت ما تزال صغيرة، كانت تلك هي المرة الثالثة أو الرابعة التي رافقت فيها أمها في إحدى رحلات زعلها إلى بيت عائلتها الأصلي أو بالأحرى بيت أخيها لأن باستثناء أخت كبيرة لها لم تتزوج، فضلت البقاء عانساً، لم يبقَ من العائلة بعد وفاة والديها أحد باستثناء أخيها، وكما عرفت أيضاً سارة كان قد مرَّ في حينه على انتقال العائلة إلى بريدة عاصمة إقليم القصيم بضعة شهور، بالضبط بعد خروج خالها من السجن وتسلمه قطعة أرض هدية من وزير الداخلية بنى عليها بيته الجديد، فيلا كبيرة مميزة.

كانت العائلة قد أقامت إلى ذلك الحين وقبل انتقالهم إلى بريدة المدينة، في قرية البُصر، وفي السكن الفخم هذا الذي كان يُمكن رؤيته من البعيد، في حي الفائزية الأرستقراطي لم يلفت نظرها من جيش الأولاد الذين اكتظَّ بهم البيت غير الفتى النحيل هذا: ناصر. كان عمر ابن خالها في ذلك الوقت اثنتي عشرة سنة، ربما أكبر أو أصغر من ذلك بسنة، وبالإضافة إلى هدوئه وصفناته الطويلة وجلساته التي كانت يمكن أن تدوم طويلاً في طرف صحن البيت، بالإضافة إلى اهتمامه بهندامه، إذ كانت دشاشته البيضاء دائماً نظيفة وشعره

مسرحةً بعناية، لم ينسَ أن يدهنه ببعض دهون الشعر الشائعة آنذاك، فإن ما لفت نظرها أكثر في ناصر في ذلك الوقت، هو علاقته المتوترة مع أبيه، وعلى عكس بقية أولاد خالها الداعية يوسف الأحمد وبناته، رفض ناصر وهو بعمر مبكر مصاحبة أبيه إلى الجامع المركزي الذي وازب أبوه على إلقاء خطبه فيه، رغم إلحاح أبيه وإصراره أو رغم مساومته لاحقاً على أن يأتي للجامع معه على الأقل في أيام الجمعة التي هي أيام إلقاء الخطب الخاصة في الجوامع عموماً، خصوصاً وأن صوت ناصر «حلو رائق على السماع»، كما سمعت خالها يقول أو كما أكدت أمها ذلك، «ناصر صوته ما بعده صوت»، وكم حاولت أمها من طرفها أيضاً إقناع ابن أخيها بالذهاب إلى الجامع لتلاوة القرآن أو الأذان، أمر رفضه ناصر، وعلى عكس ما ظن الجميع لم يرغب ناصر بمرافقة أبيه إلى هناك ليس حباً باللعب في الشارع أو كما كان يفعل العديد من الصبيان في مثل سنه بتفضيل الله على الأمور الأخرى، بل بسبب ميله للانزواء مع صديقه طارق، زميل له في المدرسة، ويكبره بسنة واحدة تقريباً، خاصة في أيام الجمعة عندما تخلو المدينة تقريباً من الرجال بسبب لجوئهم للصلاة في الجوامع، انعزال الصديقين أثار الريبة عند الأب وجعل ناصرأ يتعرض لا للتوبيخ على يد أبيه وجسب، بل يتعرض للضرب أيضاً، حتى بوجود ضيوف عندهم في البيت، مع العلم أن ناصرأ لم يعد طفلاً صغيراً، بل أصبح فتى يافعاً، سارة نفسها وبالرغم من بقائها مع أمها أياماً قليلة في بيت خالها رأَت تفنن خالها بضرب ابنه، وفي أكثر من مناسبة، بل لم يتردد ذات مرة بربطه بحبال غليظة من يديه ورجليه وتركه ساعات طويلة في باحة البيت تحت لهيب الشمس.

في تلك الرحلة، عرفت أن الأسباب التي جعلت الصديقين ناصرأ وطارقأ يعتزلان غالباً، هو ميلهما في ذلك الوقت للاختراع، يلجان إلى مغارة تل واطئ قريب، أطلقا عليها مغارة «حراء» تيمناً باسم المغارة التي قيل إن النبي محمداً

وقبل أن يهبط عليه الوحي كان يلجأ إليها للتفكير بهدوء برسائله القادمة، «نحن أيضاً عندنا رسالة، لكن علمية»، كان ناصر يقول وكانت جملته تلك تكفي لأن تجعل أباه وبعد توثيقه من رجله ويديه، يدس في هذه المرة في فمه منديلاً، لما يجد في جملته تلك من كفر، «أيها المارق، تضعان مقامكما مع مقام النبي صلى الله عليه وسلم»، كان يقول له وهو يستشيط غضباً. في تلك المغارة واطب الصديقان على الجلوس، يتحدثان عن أحد اختراعاتهما الجديدة التي يعملان عليها وهي كثيرة، إذ لم يمر يوم، خاصة في أيام العطلة المدرسية، كما سمعت زوجة خالها تشكو أمام أمها ولا يدخل ناصر إلى البيت ومعه تصميم أولي لآلة جديدة، ومع الوقت أصبح منظره مألوفاً وهو يجلس وسط ساحة البيت يعالج الاختراع الأولي الذي جلبه معه، وفي هذا المجال لم ييخل خياله أو خيال صديقه، لم يكن هناك اختراع مستحيل بالنسبة لهما، في بعض المرات فكرا باختراع راديو، في المرة الأخرى فكرا باختراع تلفون، في أخرى بصناعة دراجة أو سفينة صغيرة، على شكل ألعاب، وفي المرة الأخيرة وهي الشعرة التي قصمت ظهر البعير كما يقولون، فكر الصديقان باختراع إنسان آلي، «تريد أن تشكك بالله عز وجل؟»، صرخ به أبوه، وهو يبصق ويصيح «العياذ من شرّ الشيطان الرجيم».

ولكي يحصل الاثنان على موادهما الأولية كان يلجآن إلى المنطقة الصناعية عند أطراف المدينة، قريباً من الطريق السريع، وكان يصعدان لهذا الغرض دراجتيهما اللتين صنعاهما بأنفسهما، والتي ربطا بكل واحدة منها عربة صغيرة من صنعتهما أيضاً، يرتبان على سطحها كل ما سيعثران عليه هناك، وفي بعض الأيام كانا يذهبان لشراء ما يحتاجانه من عدة ضرورية من ورشات الحدادة والميكانيك هناك، ربما أثار ما يقومان به الفضول عند بعض سكان بريدة الذين عرفوا عنهما هذا الولع، خصوصاً أصحاب المحلات في المنطقة الصناعية، لكن

الأمر لم يثر عند الشيخ الداعية يوسف الأحمد إلا الإزعاج وعدم الراحة، لأنه لم يصدق، أن ابنه ينزوي مع صديقه بسبب هوايتهما بالاختراع، بل وحتى إذا صح ذلك، فبالنسبة له من غير المستحسن أن يُترك صبيان مراهقان وحدهما، «الشیطان يوسوس في القلوب ويثير الشهوات»، كما سمعته سارة يصرخ ربما في زيارتها الثالثة أو الرابعة بزوجه رمال، ويطلب منها المحافظة على سمعة البيت، فإذا كان ابنها لا يريد مرافقته للجامع، فعلى الأقل عليها أن تجعله يلازم البيت، ولا يشغل نفسه بأمور «دنيوية» تافهة، وهو يقول دنيوية لأن رجلاً مثله لم ينظر للاختراع والعلم نظرة جيدة.

لكن ما لم يشأ خالها تصديقه هو أن سنوات سجنه السابقة جعلته يصبح غريباً بالنسبة لبعض أبنائه وبناته، خصوصاً من زوجته الأولى والثانية والذين كان بعضهم أطفالاً رضعاً عند دخوله السجن، لم يتذكروا أنهم رأوه إلا بعد خروجه، أحد هؤلاء الأبناء هو ناصر، والأكثر من ذلك، ما لم يشأ الداعية تقبله أيضاً هو أن إشرافه على عمل الصحوات جعل الغربة تلك تتعمق بينه وبين ذريته التي لو سأله أحد عن عددها، لتلعثم وفكر طويلاً قبل أن يكون متأكداً من جوابه، فهو لم يعيش مع أبنائه إلا فترة قصيرة، فترة إشرافه على عمل الصحوات في بريدة والتي لم تستغرق إلا بضعة شهور، طبعاً كان بإمكانه أن يبقى في مدينته مدة أطول أو على الأقل مدة مماثلة لبقائه في مدن أخرى، لكنه لم يشأ، لأن بريدة وهذا ما يعتقد نفسه، «هي مدينة مؤمنة» أصلاً لا تحتاج الكثير من الجهد، «في كل ذرة تراب من القصيم تفتح بذرة الإيمان، كل نسمة هواء في بريدة تفوح بعطر الإيمان»... إلخ، من التعليقات التي كان يروق له التعليق بها وإن كل ما هو عكس ذلك بالنسبة له لا علاقة له بالقصيم، ابنه ناصر مثلاً لم ينحرف بهذا الشكل، لو لم يتعرف إلى طارق هذا، «ابن العبد القادم من جازان»، ولو كان الأمر بيديه لسفر جميع أفراد عائلة طارق إلى المكان الذي جاؤوا منه، نعم، لو

تمتع بسلطات أكبر، لكان أرجعهم منذ زمن طويل إلى «بلاد الهمجية والجاهلية» جازان، لأن هؤلاء «ليسوا عرباً، إنهم بقايا عبيد أفارقة ويمينيين».

حسب نظريته التي تدور في فمه مثل علكة سمجة، أنهم عبيد «جلبهم إمام اليمن والطيالان، كل طرف منهم في حربه ضد الملك عبد العزيز آل سعود»، بل «حتى الحسن بن علي الإدريسي وكل العائلة الإدريسية التي يفتخرون بها ويقولون إنها حكمت إمارة جازان في عهود غابرة هم بقايا عبيد إريتيرين أو أحباش، أعود بالله منهم»، ولا يعني شيئاً بالنسبة له، أن والد طارق كان زميلاً له عندما كان معيداً يدرس في جامعة الإمام محمد آل سعود، فالرجل الضعيف هذا مثل «عود الزنجبيل»، أو مثل «هندي أو بنغالي»، هو «عبدٌ في كل الأحوال»، كما سمعته سارة يكرر مرات عديدة أمام أبيها، وهو يتحدث عن ابنه ناصر، لا يهم أن أحمد التعزي، أبا طارق تعب على نفسه ودرس في جامعات مشهورة مثل هارفارد أو أوكسفورد، «الدراسة والأصل الوضيع أمران مختلفان»، لأن حسب رأيه، الله خلق الناس أصنافاً وعليهم قبول مشيئة الله والمنزلة التي اصطفاها لهم، «دور العبيد في حالة عائلة طارق»، وفي المملكة كل واحد عليه أن يحترم مقامه، «أهل جازان عبيد، أهل حفر الباطن مهريين، أهل الشرقية رقاصين، أهل جدة أعود بالله من شر ما خلق»، وبالنسبة له، الأولاد يسرون على خطى آبائهم، رغم أنه لم يقدم تفسيراً مقنعاً لماذا حدث العكس في حالته؟ لماذا لم يسر ناصر على خطاه؟

في رحلتها الأخيرة تلك إلى بريدة، سمعت سارة من ناصر وبعد أن تركه أبوه موثوق اليدين والرجلين ساعات طويلاً تحت الشمس الحارقة في ساحة الدار، سمعته يقول لأبيه وهو يبكي، حتى إذا قام بتعذيبه بهذا الشكل فهو سيظل مصرّاً على ما يريد، «لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري لما تركت هذا الأمر»، قال ناصر لأبيه، فيردّ عليه أبوه والشرر يتطاير من عينيه، «تُحرّف كلام

الرسول أيها الشيطان الرجيم»، ولا ينفع إن صرخ به، أو يضربه، كان ناصر مصرّاً على مشروعه، يريد أن يكون عالم اختراع، وإذا أعيته الحيلة، يقول لأبيه، إن الله خلقه بهذا الشكل.

أما أبوه فيقول، لا دخل لله بما يفعل ناصر، وإذا تعلق الأمر بالله فإنه يأمل من رب العالمين أن يقود ولده إلى طريق الهداية ذات يوم، ويبعده عن أبناء القبائل الوضيعة هؤلاء ولا يريد أن يسمع أحداً يقول له، (أبوها غازي الجاسي مثلاً) بأن مغادرته بريدة من جديد وتركيزه العمل في الصحوات ساعد ناصرّاً بالسير في طريقه، وعندما أكمل الدراسة الثانوية لم يعد يقف أمامه ما يمنعه من تحقيق هدفه، الذهاب للدراسة أولاً إلى البحرين، خاصة وأن صديقه طارقاً سبقه بالذهاب إلى هناك قبل عام، لكنه وعلى عكس صديقه طارق الذي شجعه أبوه على الدراسة خارج المملكة، كان عليه أن يبحث عن حل بديل، فبدون موافقة ولي الأمر لا يستطيع التحرك خطوة واحدة خارج الحدود، كان يعرف أن أباه لن يوافق أبداً.

إنها أمه رمال التي كانت مستعدة لأن تفعل كل شيء لولدها، وعندما رآته في حيرة من أمره، اقترحت عليه أن يذهب معها إلى بيت عمته في الخُبر، وعندما قال لها، صحيح أن جسر الملك فهد الذي يربط بالبحرين في الخُبر، لكن ما هي علاقة عمته مشاعل بذلك؟ لم تشأ أمه أن توضح له ما عزمت عليه، طلبت منه أن يصطحبها وحسب، ربما لم تشأ له أن يسمع من فمها مباشرة الحل الذي اعتقدت جازمة أنه سيكون الحل الوحيد، لأنها خافت بأنه ولفرحته من الممكن أن يبوح بالخبر لصديقه طارق فينتشر الخبر قبل أن تنجح في مسعاها، كلا، لا بدّ من الكتمان، كانت الخطة التي فكرت بها جاهزة في رأسها، وصلت إلى الخُبر ذات صباح، كانت زيارة مفاجئة طبعاً، في البداية ظنت مشاعل أن مكروهاً حدث لأخيها، لكن رمال طمأنتها، قالت لها إنها يمكن أن تخاف على

أي إنسان، باستثناء أن تخاف على يوسف الأحمد، كلا، إن زيارتها المفاجئة لها علاقة بمستقبل ناصر، وإنما جاءت إليهم في الخبر، لأنها تعرف أن ليس هناك أحد تلجأ إليه لمساعدتها غير مشاعل وغازي الجاسي، لا بدَّ له من تحقيق حلم ناصر بالدراسة خارج المملكة.

أصغت أم سارة للقصة بعناية، ثم صفت قليلاً، كيف لا تساعد ابن أخيها، وهي كما عرفت، بأنه الوحيد من أولاد أخيها الذي أصرَّ على مواصلة دراسته حتى تخرجه في الثانوية، وها هو يطمح لدخول الجامعة؟ كل أبناء أخيها الآخرين تحولوا إلى دعاة أو خطباء جوامع، حتى الأولاد الصغار منهم، تعلموا من أبيهم تجويد القرآن وتلاوة الأذان بسرعة، حفظوا عن ظهر قلب القرآن وكتب السنة وشروح الشيخ محمد بن عبد الوهاب وابن تيمية وعبد العزيز بن باز، صحيح أنهم ساروا على خطى أبيهم، لكنهم اختصروا الطريق، لم يذهبوا للدراسة في مدرسة أو معهد أو كلية، اكتفوا بالتلمذ على يد أبيهم، الداعية والشيخ الكبير يوسف الأحمد، تسعة عشر ولداً آخر كما تعرف رغم أنها لم ترهم كلهم، وناصر هو الولد رقم عشرين، لكنه الولد الوحيد الذي فكر بمستقبله بشكل آخر وهي تعرف بدون الشهادة الجامعية لا مستقبل للشباب، لا في المملكة ولا في أي مكان آخر، كيف لا تفعل كل ما في وسعها لمساعدة ابن أخيها، وهي ترى فيه صورة الزوج المثالي رجل الأحلام الذي تتمنى أن تزف ابنتها له ذات يوم؟ وإذا كانت لم تقل ذلك لأحد في الماضي فلأنها لم تجد الفرصة المناسبة لذلك.

«نعم، يا أختي، اليوم جاءت الفرصة لأخبرك بالقصة»، قالت أمها لرمال بصوت أقرب للهمس، لأنها بالتأكيد لم تشأ أن تسمع سارة بذلك، لكن صوتهما وهما يتحدثان عن مستقبل ناصر ثم وبشكل ما عن مستقبلها لم يصل إلى سمعها وحسب، بل جعلها تحمر قليلاً قبل أن تسمع رمال أو خالتها، كما حرصت على تسميتها ومنذ زيارتها الأولى مع أمها في بريدة، تطمئن أمها قائلة: «إن شاء

اللّٰه يوم فرحتنا يا أختي» وعندما حلّ الليل وعاد أبوها من عمله وبعد تحيته لضيفتهم وابنها، حدثته زوجته وبينما يبذل ملابسه في غرفة النوم بقصة الزيارة وبالخطة التي فكرت بها زوجة أخيها رمال، قالت له إنها تطلب منه أن يأخذها إلى أحد أطباء القاعدة الجوية الذين يثق بهم، لكي يزودها بورقة تقول، بأن عليها أن تذهب إلى خارج المملكة للعلاج، ثم عليه أن يترك تحت تصرفها أحد سؤاقيه الذين يعتمد عليهم، لكي يقودهما إلى البحرين، الأم مريضة وابنها ناصر هو المحرم الذي عليه أن يكون معها، وهي تقترح عليه أن يرافقهما في الرحلة حتى دخولهما إلى البحرين، لأنها تريد أن تطمئن على وصول ناصر وأمه سالمين، ثم قالت له زوجته، إن لاجحة لها لأن تبوح لها بأمنيتها، وهو أن ترى يوماً ابنتهما سارة تُزف عروساً إلى ناصر بعد تخرجه في الجامعة.

في اليوم التالي، نفّذ غازي الجاسي كل طلبات زوجته، وأرسل مع رمال وناصر سائقه الهندي المفضل: راجو، القصة وصلت إلى مسامع خالها طبعاً، صحيح أنه لم يعرها اهتماماً في البداية، ففي النهاية ناصر هو رقم عشرين من أبنائه، وبحسبة بسيطة، فقدانه لابنه خسارة، لكن من الناحية الأخرى إنها خسارة بسيطة قابلة للتعويض، ففي النهاية عنده تسعة عشر ولداً، يعوضونه عن ناصر، بالتأكيد هضم الموضوع، خاصة وأن أكثر من عام مرّ على تلك القصة.

موضوع الشيخ يوسف الأحمد هذه المرة، هو نقل سارة إلى مدرسة جديدة، سواء شاء أبوها أم لا! رغم ذلك لم تبدأ سارة في الفصل الدراسي القادم أو في الفصول التي تلتها، لم تبدأ تعليمها لا في مدرسة سبق الإسلام ولا في أية مدرسة أخرى من مدارس الهيئة، سواء تلك التي توزعت في المنطقة الشرقية، حول مدينة الخبر والظهران والدمام وغيرها خصوصاً في إقليم عسير، أو سواء تلك التي بدأت تنتشر مثل نبات الفطر منذ بداية الثمانينيات في المدن القريبة الأخرى، ليس لأن أبها، غازي الجاسي تحدى حماه أو «صديقه القديم»، وهو

الوصف الأقرب إلى قلبه طبعاً، وقال له في تلك الليلة: «سنرى يا يوسف إذا كنت ستهزم الأميركيان؟»، جملة جعلت الشيخ الداعية يوسف الأحمد يقول له: «الأميركان نشترهم ببرميل نפט»، أو ليس بسبب مقاومة سارة للأمر، بل لسبب آخر تماماً.

في اليوم التالي من زيارة خالها لهم وتهديده لأبيها، استيقظت في ساعة مبكرة من الصباح، هيأت حقيبتها المدرسية، دخلت إلى المطبخ ووضعت في كيس نايلون صغير شرائح صغيرة من الخبز وبعضاً من قطع الجبن ثم سارت على أطراف أصابعها، وفي نيتها أن تفتح الباب بنفسها وتغادر البيت، لم تكن نامت بشكل جيد طوال الليل، تقلبت عشرات المرات، كانت تشعر بعدم الراحة ولم تجد حلاً آخر غير الهروب من البيت، لا تعرف إلى أين، أه لو كانت عمته موجودة، بالتأكيد ستثني على إصرارها بالرحيل، ستفهم رغبتها بعدم البقاء تحت رحمة خالها، الداعية الشيخ يوسف الأحمد، لكنها كما هي العادة كلما فكرت بها في أوقات الأزمات، أعيتها الحيلة، لا تعرف الوسيلة التي تسهل وصولها إليها، ربما فكرت بالذهاب إلى سائقهم الهندي راجو لكي تطلب منه أن يحملها إلى عمته، لا بدّ وأنه يعرف عنوانها، ألم يقل، إنه خبير بالتهريب؟ لماذا لا تقول له، «هربني من خالي؟»، لكن ماذا لو رفض راجو، وأخبر أباه أو أمها بذلك؟ كم تمت في تلك اللحظة أن يكون ناصر في البيت، فلربما ساعدها في تنفيذ خطتها.

كانت تلك هي المرة الأولى التي فكرت بابتعادها بعد رحيله إلى البحرين قبل عام تقريباً أو ربما أكثر بقليل، صحيح أنها وحدها ولا حيلة لها وليس عندها أحد تعتمد عليه، إلا أن قلبها يقول لها إن عليها أن تهرب من خالها، ولكي تنجح بذلك، عليها فقط مغادرة المطبخ الآن، والسير إلى الأمام، باتجاه بوابة البيت، وكادت بالفعل أن تنجح في هدفها لو لم تسمع خطوات قادمة من خلف ظهرها وصوتاً يطلب منها أن تتوقف، نعم، ربما كانت سارت حياتها باتجاه آخر، لو كانت

نجحت في مسعاها بالهروب في ذلك الصباح، ولا يهم أن لا أحد سيصدق، أن هروبها كان أمراً قابلاً للتحقيق، لو لم ترَ في اللحظة التي استدارت فيها، أباهما يخرج من الغرفة الصغيرة في عمق المطبخ، غرفة الخادومات، دون أن تفكر لحظتئذٍ بما كان يفعله هناك، يطلب منها أن تتوقف، في تلك اللحظة لم تفكر بشيء آخر غير أن ترمي حقيبتها إلى الأرض بقوة وتهرع إلى المطبخ من جديد، هرولت بسرعة فاجأت أباهما أيضاً الذي لم يعرف للوهلة الأولى ماذا كان عليه أن يفعل، بقي على وقفته وسط صحن البيت، متجمداً في مكانه، فقط عيناه تتابعان حركتها.

كل شيء حدث بسرعة في ذلك الصباح، دخلت سارة إلى المطبخ، اتجهت إلى المخزن القريب من غرفة الخدم وخرجت وهي تحمل بيد قنينة كيوسين أو نفط من ذلك الذي يُستخدم في الطبخ، فيما حملت في اليد الأخرى علبة كبريت، لبرهة وقفت أمامه في وسط صحن البيت، كان ما يزال ينظر إليها مثل المخطوف، رشت النفط حولها على الأرض وقالت بصوت واطئ لكن حازم: «سأشعل النار، إذا أراد خالي إجباري على ترك مدرستي». كان لا بدَّ لأبيها أن يفعل شيئاً ولولا رؤيتها له يتجه ناحيتها، يفتح يديه، يحضنها وهو يتوسل إليها ألا تعود إلى فعل ذلك في المستقبل، تستطيع أن تفعل كل شيء، باستثناء أن تقتل نفسها، «أعوذ بالله»، قال لها، ثم عاهدها وهو يلثمها بقبلاته، بأنه سيفعل المستحيل لكي لا تنتقل من مدرستها، أخذ أبوها منها قنينة النفط وعود الثقاب مع علبة الكبريت، مسكها بيدها، وطلب منها أن يذهب إلى غرفتها.

أولاً عندما رأت خالها بدشداشته الصغيرة وبلحيته المصبوغة بالحناء والذي كما يبدو استيقظ لصلاة الفجر، رآته يقف في زاوية صحن البيت، يحدق بها بعينين بعثتا في تلك اللحظة بريقاً، بالتأكيد ليس بسبب انعكاس أشعة شمس الفجر التي بدأت تتغلغل وسط البيوت، تتحرك على حيطانها، بل أكثر بسبب

بريق غضب ووعيد، فقط في تلك اللحظة، ربما أخافتها عينا خالها أو ربما لم تجد حلاً آخر، بدأت بصراخ عالٍ وطويل، شبيه بالصراخ ذلك الذي أطلقتته ذات يوم بوجه الشيخ الذي أرسلته الهيئة وجاءهم إلى المدرسة الابتدائية في بداية الفصل الدراسي، الفارق أنها في هذه المرة لم تتوقف إلا بعد عناء، بعد أن أيقظت سكان البيت، سادة وخداماً، ولم ينفذوا احتضان أبيها وتهديته لها ولا إلحاحه عليها أن تسكت.

بالتأكيد لم يفعل أبوها ذلك بسبب قلقه عليها في المقام الأول، بل أكثر بسبب قلقه على نفسه، فوجوده في المطبخ في ساعات الصباح الأولى وفي يوم الخميس، حيث عليه أن يكون في تلك الساعة في مدينة خالد العسكرية أو في قاعدة حفر الباطن، وجوده هناك سيثير الشبهات حوله، إذ لن يؤكد شكوك أمها بعلاقته مع الخاديات، والأكثر سوءاً أن يحدث ذلك بحضور حميه الذي وقف أمامه في تلك الساعة والذي رآه هو الآخر متلبساً بالجرم المشهود، «ها أنت تعود إلى مجونك مع نساء الجاوة»، قال له، وهو يقصد الخاديات الآسيويات، كما كان يقول له، كلما ذهب لإقناع زوجته بالعودة إلى بيتها في الخبر، بالتأكيد سيضيف إلى حسابه منذ ذلك الصباح نقطة أخرى إلى صالحه لكي يبتزّه أكثر، سيقول له، «تفضل الأصول الوضيعة على نساء الأشراف»، وهو يقصد أخته مشاعل، لكن ربما بالغ غازي الجاسي في قلقه، لأن الجميع انشغل في ذلك الصباح بأمر سارة التي راحت تصرخ كأنها اكتشفت طاقة كبيرة فيها، خزنتها طوال هذه السنوات، قالت: «لن أترك المدرسة، مدرستي»، وخالها ينادي بصوت عالٍ في صحن البيت: «هذه البنت فيها مس من الشيطان»، ليعيد بذلك الكلام الذي أطلقه شيخ الهيئة القادم من الرياض في التعميم الرسمي على مدارس البنات تحت عنوان: «إثم سارة»، لا بد وأن يكون هذا التعميم وصل إلى مسامعه قبل وصوله إلى المنطقة الشرقية، دون أن يعرف، أن هذه الفتاة

«الممسوسة» في عرفه وفي عرف شيخ الهيئة قبله، لن تهدأ مطلقاً، لن تتوقف عن الصراخ إلا بعد أن تتعب وتنام بين يدي أبيها الذي سيحملها إلى غرفتها ويمددها على الفراش بهدوء، والذي سيغادر غرفتها بعد تأكده أنها نامت بسلام.

كلا، لم تبدأ سارة بالدراسة في إحدى مدارس الهيئة لا في الفصل الدراسي الذي تلا، كما طلب خالها منها، أو الذي سيليه، بسبب استسلامه لها مثلاً لغضبها في صباح ذلك اليوم، أو في الأيام الأخرى، كما حدث بعد شهر تقريباً من تلك الحادثة عندما جاء خالها مرة أخرى لزيارتهم، ليعيد على أبيها التذكير بأن موعد الفصل الدراسي اقترب، إنهم في شهر ذي القعدة أو في شهر أغسطس/آب، ولم يبقَ غير شهر واحد، ليطلب منه أن يشتري لابنته الجلباب، وكل الملحقات الأخرى من ملابس الحجاب، «ابنة أختي أصبحت امرأة بالغة»، قال له قبل أن ينام، «في عمرها كانت سيدتنا عائشة تزوجت من الرسول صلى الله عليه وسلم»، في تلك الليلة من زيارته الجديدة لهم في شهر آب، لم تتم سارة بالفعل، ولو لدقيقة واحدة، كانت ليلتها عذاباً في عذاب، فمثلما عرفت أن خالها لن يهدأ حتى تحقيق مسعاه، فإنها هي الأخرى كانت على يقين، بأنها لن تهدأ حتى تنتهي من هذه القصة، لا بد أن تفعل شيئاً! لكن ماذا؟

في صباح اليوم التالي غادرت غرفتها في ساعة مبكرة أكثر من الساعة التي خرجت فيها في المرة الماضية عندما أرادت إضرام النار بنفسها، هذه المرة ذهبت إلى المطبخ وخرجت وهي تحمل سكيناً، سارت على أطراف أصابعها واتجهت إلى الغرفة التي نام خالها فيها، كانت المرة الأولى التي فكرت فيها سارة بحمل سلاح، ولدهشتها، فاجأت نفسها أنها لم ترتجف أو تشعر بخوف، بل سارت بخطوات ثابتة كأنها كانت متأكدة مما أقدمت عليه، سارت مثل المخدرة أو مثل من يسير في منام، لم تلتفت إلى اليمين أو إلى اليسار، وما كانت صحت من خدرها ورأت السكين في يدها لو لم تسمع لغطاً وضجيجاً، بل وهرولة أقدام،

رطانة ألسن ارتفعت بالتدرج، لم تأت من عمق المطبخ وحسب، بل جاءت من كل مكان، كأن البيت بكل حيطانه بدأ يخرج تلك الأصوات، كان لا بدّ لها أن تتوقف في تلك اللحظة أيضاً، تجمدت في مكانها، كان لا بدّ وأن تصغي، أن تسمع بوضوح أكثر.

لبرهة عرفت أنها أصوات قادمة من أكثر من مذياع، وبدل ترتيل القرآن، كما كان المعتاد في تلك الساعات المبكرة، سمعت أصوات موسيقى عسكرية، لبرهة رأت خالها يقف أمامها مثلما وقف في المرة السابقة في زاوية صحن البيت، لا بدّ أنه استيقظ هو الآخر على صوت الضجة التي حدثت في البيت وقبل صلاة الفجر والذي بالتأكيد لم يجد في حملها للسكين ما يثير الريبة عنده، فمن الممكن بالنسبة له أن يفكر بكل شيء، باستثناء أن يفكر بأنها حملت تلك السكين في ساعات الفجر الأولى وقبل صلاة الفجر، لسبب واحد لا غير، لكي تنقضّ عليه وتنتهي من الأمر، كلا، لم يفكر بذلك، ربما لأن النعاس ما زال يستحوذ عليه أو ربما لأن قلقاً بدأ يستحوذ عليه منذ أن سمعت أذناه أصوات الأبواق وقرع الطبول، وفي تلك اللحظة، لحظة رؤيته لها لم يفكر بشيء غير أن يطلب منها أن تحمل له قدحاً بارداً من الماء، كانوا في شهر أغسطس/ آب، أكثر شهور السنة حرّاً ورطوبة، الشهر الذي لا يستطيع المرء النوم فيها بسهولة، «قدح ماء بارد من الثلاثة بنت أختي»، سمعته يقول لها بصوت فيه شيء من النوم، كم بدا له مشهدهما غريباً، هو وقف أمامها ساهماً يطلب منها قدح ماء وهي وقفت أمامه متجمدة بلا حراك، مسكت بيدها سكيناً، وفي خلفية المشهد تهدر في أكثر من مذياع أصوات مارشات عسكرية، نفخ أبواق وقرع طبول، خطب حماسية وتلاوة آيات قصيرة من القرآن، كما كتبت هي في الرسالة التي كتبتها في ذلك اليوم والتي فكرت بتسليمها إلى صديقتها في أول لقاء قريب، طبعاً لم تذهب سارة إلى المطبخ ثانية لتفتح الثلاجة وتحمل لخالها قدح ماء، بل انسلت

من المكان تدريجياً وعادت إلى غرفتها خائبة، رمت السكين على الطاولة ثم ألقت بنفسها في الفراش، كانت تعباً وذكريات يوم مهيب ما تزال تطن في أذنها، لكنها ولسبب ما شعرت بتوترها يزول، براحة داخلية إلى حد ما وبسلام، نامت في هذه المرة دون أن تُعرف متى وكيف.

كلا، لم تبدأ سارة بالدراسة في مدرسة سبق الإسلام أو ما شابه، أو في أية مدرسة من المدارس الأخرى التابعة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليس لهذا السبب أو غيره، ليس لأنها أرادت ذلك، أو ليس لأن خالها أسلم الأمر، بل لسبب بسيط جداً، لأنه، وتلك هي المرة الأولى في حياته، لم ينجح في تنفيذ البند الأول من بنود الدستور الذي وضعه بنفسه لدولته، دولة الإسلام: إلغاء الاختلاط في المدارس. بكلام بسيط، فشل الداعية الشيخ يوسف الأحمد بتحقيق ما أراد الذهاب إليه، إغلاق المدارس «الفاحشة» على يديه، كما قال، أو على الأقل النجاح بإغلاق مدرسة الصداقة الأميركية السعودية في القاعدة الجوية العسكرية في الظهران أولاً، ليس لأن ولي الأمر، أو السلطات السعودية أو الأمير الاستثنائي، عرابه على الأقل، لم يدعموه في مسعاه، أو ليس لأن الدعاة الشباب الذين تطوعوا بالعمل تحت إمرته في المنطقة الشرقية وحتى آخر الشعاب القريبة من الحدود، افتقدوا الهمة وعازهم الحماس، أو ليس لأن إدارات المدارس المختلطة نجحت في إفشال مشروعه «الظلامي» ذلك كما نعتته مديرة مدرسة الصداقة الأميركية السعودية مدام جنيفير دحلان، أو ليس لأن أهالي المنطقة الشرقية «الرقاصين» و«الفاستدين» و«الذين جاء أغلبهم من البحرين»، كما كانوا يحلو له في وصفهم، وقفوا بوجه ما أراد الوصول إليه.

كلا، إنه لم ينجح في تحقيق مسعاه لسبب بسيط جداً، لسبب واحد لا غير، له علاقة بما حدث في ذلك اليوم، ففي الساعات الأولى من ذلك الصباح من شهر آب، في الصباح الذي حملت فيه سارة للمرة الأولى في حياتها سلاحاً على شكل

سكين، في الصباح الاستثنائي والغريب ذلك وقبل أن يبدأ الفصل الدراسي بأربعة أسابيع، وبالضبط، في صباح 2 أغسطس/ آب 1990 دخل الجيش العراقي إلى الكويت وتلك هي بالتأكيد أول مرحلة لمعركة ستطول، معركة بدأت في الكويت ولن تنتهي إلا بعد «تحرير المملكة العربية السعودية من ملوكها الفاسدين» كما قيل أو كما جاء في تعليق المذيع الذي صدح صوته في ذلك الصباح بوضوح وهو ينقل تصريحاً لرئيس العراق، قادماً من غرفة الخدم ومن كل مكان في البيت، وحسب ما عرفه خالها وبقية الدعاة الشيوخ من زملائه، أن على المملكة أن تتفرغ: حكومة وشعباً، رعية وولاة، مطوعين وصحوات، شيوخاً وشباباً لمعركة واحدة وحسب منذ ذلك اليوم: وقف الزحف العراقي، وكل ما عدا ذلك هو معارك مؤجلة إلى حين، كما جاء في البرقية التي تسلمها الداعية الشيخ يوسف الأحمد والتي حملت توقيع ليس غير الأمير الاستثنائي، عراب الشيخ!

ما حدث في ذلك الصيف بعد ذلك اليوم، فاق كل ما كانت سارة حملته من تصورات عن الحرب. كانت مجرد كلمة قرأتها أو سمعت عنها في محيطها، في البيت أو في الشارع. هذه الحروب التي تحدثت الكتب عنها، كانت حروباً غابرة وبعيدة، حروباً حدثت في زمان ومكان معينين لا ينتميان للحاضر، لا للزمان الذي تعيش فيه ولا المكان، ربما ذلك ما جعلها لا تأخذ الأمر على محمل الجد: ففرع الطبول وترديد الأناشيد الحماسية وتلاوة الآيات القرآنية وخطب الجمعة التي صرخت من قبة الجوامع بصوت عالٍ وهي تتحدث عن انتصارات المسلمين في الماضي، لا يهم ما حملته من زعيق، عجزت عن تقديم توضيح لها لما يدور حولها من أحداث، أو لما يمكن أن تؤول إليه، ومهما عصرت مخها وتساءلت في نفسها، سواء في الليل أم في النهار، ماذا عليهم أن يفعلوا، إذا حصل ووصلت الحرب إلى حدود بيتهم، فإنها لم تشعر بالخوف، ليس لأنها ظنت أن امتداد الحرب هو أمر مستحيل، بل لأنها لم تتخيل أن الحرب ستحدث على الطريقة التي حدثت فيها

في الماضي، كل القصص التي سمعتها أو قرأتها عن الحرب في الكتب المدرسية، طبعت صورة واحدة في ذهنها: صورة مقاتلين لجيوش متحاربة، يغيرون راكبين على خيولهم، يلوحون بسيوف حادة في أيديهم، يهجمون على بعضهم، يزأرون بغضب وعنف، يقطعون رؤوس بعضهم، وعندما يدخلون إلى القرى والمدن يسبون النساء ويغتصبونهن، حتى عندما تحدثت المعلمة قبل أيام عن حرب فلسطين في عام 1948، روت لهم قصة تلك المرأة الفلسطينية التي دخل إليها الجنود الإسرائيليون «اليهود»، كما قالت المعلمة، في حظيرة الحيوانات، مزقوا ثيابها في حرابهم واغتصبوها الواحد بعد الآخر.

لا قصص الماضي ولا قصص الحاضر خلت من تلك الصور، سواء في النصر أم في الهزيمة، كان دائماً هناك غزو ونهب وسطو وقتل وإبادة وسبي واغتصاب، وإلا أي تفاصيل ترويها قصة حروب عبد العزيز بن سعود في توحيد المملكة غير قصص العنف والدم هذه؟ ولم تطرد خوفها، إلا عندما تسمع كلام أبيها وحديثه المتحمس عن «ضرورة الحرب»، وكيف أنها خلقت للرجال، أبوها يقول: «انظروا إلى الأميركيان، إنهم ليسوا جناء مثل الأوروبيين، إنهم رجال بمعنى الكلمة، لا يخافون الحرب، جاؤوا بجيوشهم لتحرير الكويت»، وعندما تذكره أمها، بأنه لا يقول ذلك، لولا معرفته، أن الحرب ستوسع من أعماله التجارية، يسخر منها، يقول لها، إنها لا تفهم شيئاً من أمور الحياة، وإنها تقول كلاماً مثل هذا لكي تغيبه فقط، ذلك هو دينها «المعارضة فقط».

لكن أختها أسماء، معلمة التاريخ، تقول، طبعاً الأميركيان يذهبون للحرب بحماس، لأنهم لم يذوقوا مرارة الحروب مثل الأوروبيين، «حروبهم تدور دائماً على أراضي الغير»، وحسب تفسيرها انتفع الأميركيان من الحرب العالمية الثانية وأصبحوا زعماء العالم، بينما انهدت البيوت على رؤوس الناس في مدن أوروبا في تلك الحرب، الشيء نفسه حدث في الحرب العالمية الأولى، «ملايين الشباب

سقطوا في جبهات القتال وتعفنت جثثهم في الخنادق، باستثناء جثث الاميركان»، ثم تسأل أختها الحاضرين، «هل سمعتم بتلك الوحدة العسكرية التي أسسها البريطانيون، نومانسلاند؟» لتجيب بنفسها، «إنها وحدة متخصصة بالعثور على رفات الجنود المجهولين من ضحايا الحرب الذين سقطوا على جبهات الحرب ودفنوا بطريقة لائقة بهم». وكان أبوها يضحك على تعليق زوجته، كما يسخر من تفسير ابنته أسماء، ويرد عليهما «ما الضير في ذلك إذن؟»، وهو يقصد، إذا كانت أميركا المستفيدة من الحرب، حسب قوله، هذا هو ما يشتركون فيه في المملكة إذن مع أميركا، الآخرون يقاتلون بالنيابة ونحن نستفيد في المملكة، حدث ذلك في حرب إيران والعراق، ويحدث الآن، إحدى وثلاثون قوة دولية ستقاتل عند حدودهم، وإحدى وثلاثون شركة تجهيزات جديدة لشركة الجاسي للأحلام، ربما كان أبوها على حق، فسارة مثلاً كانت قد نسيت أن هناك حرباً دارت لمدة ثماني سنوات بين العراق وإيران، بدأت وانتهت عند النقطة التي انطلقت منها، كما سمعت من أحدهم ذات يوم، ولا تعرف من.

اليوم يتحدث الناس عن الحرب أيضاً، لكن هذه المرة في الكويت، وما دخل صبية مثلها أنهت سن العاشرة للتو فيما يدور هناك؟ إن صديقتها الهنوف التي أشارت لها، بأن كل شيء في تغير، وعندما سألتها ماذا تعني بذلك، أجابتها بأن الطيور اختفت، «خذي وشاهدي بنفسك»، قالت لها بصوت حزين وهي تدس في يديها دفتر الرسم، كأنها طلبت منها التأكيد بنفسها، لترى الأوراق البيض، فقط فراغات وأشكال لطيور خيالية، «الطيور بطلت الهجرة»، قالت لها وهي تأخذ الدفتر منها، لتواصل رسم طيورها الخيالية، ولا حاجة لأن تقول لها صديقتها ذلك، يكفي أن ترفع رأسها إلى الأعلى، أمامها لتجد سماء فارغة، كأن الطيور جميعها قررت الكف عن الطيران، ربما هو ليس موسمها، قالت لنفسها عندما ودعت صديقتها في ذلك اليوم، فكرت وهي في طريقها

إلى البيت، هي الأخرى لم تعد ترى الطيور تزدهم عند شبّاتها كعادتها صباحاً، بعضها كان يظل هناك حتى عند فتحها للشبّاك، لم يشعر يوماً بأيّ تهديد منها، لكن في الأيام الأخيرة كانت نادراً ما تراه، لقد خف ضجيج الطيور، فقط أبوها لم يعترف بذلك، قال لها، حديث صديقتها عن الطيور كلام فارغ لا غير، بالتأكيد تعلمته من أخيها مدير المتحف، الذي بدأ يدسّ أنفه بأمر لا تعنيه، قبل أيام تحدث بكلام غير معقول أمام دانييل بروكس الله يذكره بالخير، عن الآثار، عن آثار حضارة العبيد، وقبور السومريين «وما أعرف إشنو» وكيف أنها تحولت إلى ساحة رمي في القاعدة الأميركية، والآن يدسّ أنفه من جديد بقضية لا تعنيه، «عليه أن يتقي ربه»، قال لها أبوها، «وإلاً ستقوده هذه الأمور إلى حتفه حتماً»، عليه أن يركز على عمله ويبتل الحديث هذه المرة عن تدمير الحرب للبيئة وترهات أخرى، «إشنو علاقة الطيور بالحرب؟»، لم تعرف سارة كيف ترد على أبيها في حينه، في قضية مقبرة السومريين، لأنها لم تفقه ماذا كان يعني ذلك، ولو كانت تعلم أن ذلك سيسبب اعتقال ليس أخو الهنوف الأكبر أولاً، ثم العائلة جميعاً، لبضعة أسابيع، قيل «تأديباً لهم»، كما ستنقل لها الهنوف بعد إطلاق سراحهم من المعتقل، لتعرف بأنهم لم يكونوا مسافرين في إجازة، كما أراد أبوها إقناعها، عندما أبدت له رغبتها بزيارة صديقتها، كما تتذكر في نهاية شهر أغسطس، تعني لو كانت تعلم ماذا كان كلام أخي صديقتها يعني، لكانت فهمت خطورة ما أشار له أبوها.

لكن فيما يخص الحرب؟ كانت تعرف ماذا يعني ذلك، تعرف ما حدث من تغيير، مباشرة بعد دخول الجيوش العراقية إلى الكويت، القضية لا تخص الطيور وحسب، بل كل شيء تغير تحت تأثير الحرب حتى قبل أن تحدث، وكم كانت صديقتها الهنوف على حق، كل شيء بدأ يتغير، ومع الأيام راحت ترى وجوه العديد من الغرباء يحلّون في المدينة، القسم الأكبر منهم سكنوا في الشاليهات

القريبة من البحر ومن الجسر في حي إشبيلية، فيما سكن نفر منهم في حي الإسكان، يتنقلون بسياراتهم الفارهات من كل الموديلات شوفرويه وماليبو وتويتا، يتجولون في الحُبر مول أو على الكورنيش، يרטنون بلهجة غريبة عن لهجة المنطقة الشرقية بعض الشيء، صحيح أن رجالهم لم يختلفوا في لبسهم للدشاديش كثيراً عن الرجال في المملكة، لكن وضعهم لليشماغ والعقال بدا أكثر سلاسة. أما شبابهم فقد قصوا شعورهم و عملوا تسريحات شعر على طريقة المارينز، قصة شعر شاعت في المنطقة الشرقية أيضاً، والغريب أن أغلبية البنات اللواتي رأتهن في المول أو على الكورنيش لم يلبسن الحجاب كما ينبغي، أغلبهن لبسن ثوباً طويلاً تحته بنطلون جينز وعلى الرأس رمين شالاً حريراً غطى جزءاً بسيطاً من الرأس، فيما دهنّ وجوهنّ بالماكياج، أما النظارات الشمسية السوداء التي وضعنهن والتي حملت أحدث الموديلات من ماركات كوجي وشانيل، فلم تفارق عيونهن، كم حسدتهن أختها أسماء، ليس بسبب منظرهن المثير وتبخترهن، بل أكثر بسبب حيازتهن إجازة السوق، بعضهن لم يتنازلن عن حقهن بسيارة السيارة. إلا بعد تعرضهن لأكثر من مرة للاعتقال على أيدي المطوعة، رجال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولأن كل شيء يعدي، كما تقول أختها، جرؤت عشر نساء من الدمام بسيارة سيارتهن علناً، أختها أسماء مثلاً ستقتصد كثيراً من الوقت، ساعتين على الأقل، لو سُمح لها بقيادة السيارة، يومياً عليها أن تنتظر الباص الحكومي العام الذي ينقل الموظفين والمعلمات اللواتي يعملن عند تخوم مدينة حفر الباطن.

ما تفعله هذه البنات القاديات من خارج الحدود يعجب أختها، لكن ما لا يعجبها هو معاكسة الشبان للبنات، وفيما خص المعاكسة، رأّت سارة ذلك بنفسها كلما ذهبّت للمول، وكيف أن الشباب من غير السعوديين لا يترددون في السير خلف البنات، هي نفسها تعرضت أكثر من مرة لمطاردة شباب يكبرونها

بسنيتين أو ثلاث، ولقول الحق أعجبها ذلك، فهي شعرت بتأييد لأنوثتها التي بدأت تنضج، ولا تدري إذا شعرت أختها بالشعور نفسه في دخيلتها، ففي المدرسة مثلاً العديد من الفتيات تحدثن عن الشبان الغرباء الجدد وجرأتهم وجمالهم، ولا تدري إذا كان تحرش الشبان هو الذي جعل الفتيات يهتمن بمظهرهن حتى مع الحجاب، بشد العباءة للجسم، بحلحلة غطاء الرأس قليلاً، بقص شعرهن بتسريحة جديدة، على شكل قصة دالاس مثلاً، أم هي عدوى الفتيات الغربيات انتقلت إليهن، فحتى معاهد التجميل وصالونات حلاقة النساء التي يعرف الجميع في المدينة كيف أنها أغلقت قبل عشر سنوات بدأ بعضها يفتح أبوابه من جديد، ولو لم يبدأ بالذات خالها الداعية الشيخ يوسف الأحمد بحملة كبيرة ضد ما أطلق عليه «الفساد» الذي حسب قوله «هبّت رياحه مجدداً على المملكة»، لو لم يبدأ بحملته التي كان في مقدمتها دعوته لإغلاق هذه المحلات كلها وزج أصحابها في السجن أو معسكرات تأديبية إسلامية، لبقيت يافطات المحلات تلك معلقة، و«لكن بعد مداوات عديدة بين الدولة وهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكي لا تفتقد الدولة هيبتها كما تردد، ولتهديئة علماء الدين والدعاة وعلى رأسهم الداعية الشيخ يوسف الأحمد، أقدمت الدولة على الحل الوسط هذا، رفع اليافطات، كما فعلت ذات مرة في بداية الستينيات عندما أقدمت على حل وسط بأن أمرت برفع اليافطات عن استوديوهات التصوير وإزالة واجهاتها الزجاجية»، كما جاء في منشورات سرية وُزعت في المدينة وحصلت على واحد منها من صديقتها الهنوف.

أمر غريب، قالت سارة لنفسها، أن يحرك وجود القادمين الجدد كل هذا الضجيج، رغم أن البشر هؤلاء كما عرفت قادمون من الكويت، وحسب علمها لا تبعد الإمارة الصغيرة هذه كثيراً عن المنطقة الشرقية، فقط مئتان وستون كيلومتراً تقريباً تفصل بين الخُبر ورأس الخفجي حيث حدود الكويت، «لكن

الفارق بين الاثنين»، كما قالت لها صديقتها الهنوف في الأيام الأولى من شهر أغسطس/آب، «يظل الفارق ليس كبيراً كما يبالغ الناس في تصويره»، ثم راحت صديقتها تحدثها قليلاً عن الكويت، كأنها كانت تعرف البلد منذ سنين، وأولاً قبل اختفائها المفاجئ، أخبرتها الهنوف، أن خالة لها متزوجة هناك، جاءت هاربة بعد دخول الجيش العراقي إلى الكويت، وهي كلما سمعت القصص التي ترويها عن الكويت، ظنّت أن الكويت كوكب آخر وليس إمارة تقع على الأرض، ثم نقلت لها ما قاله أخوها الكبير، الذي يعمل مهندساً في آرامكو، بأن لولا نفوس الكويت القليلة لما سمح الكويتيون لنسائهم بالعمل والحصول على بعض الحرية، فهم في النهاية لا يختلفون في تعاملهم «المتخلف» مع النساء، على حدّ تعبير الأخ الأكبر.

لكن ماذا يعني كل ذلك فتاة صغيرة في مثل سنّها؟ فما كان يهمها هي الصورة التي تراها أمامها، كل شيء كان يقول لها، إن الوضع تبدل منذ دخول الغرباء، ليس نحو الأسوأ، كما يصرخ خالها ودعاته ليل نهار، وهم يدورون هائجين في المنطقة الشرقية من مول إلى آخر، من كورنيش إلى آخر، من شارع إلى آخر، حتى باركات السيارات لم تنتج من غزواتهم، التي أطلقوا عليها «غزوات الإيمان»، والتي شاع خبرها ليس في الحُبر وحسب، بل في كل مدن وقرى وشوارع وأزقة وأسواق المنطقة الشرقية، كل يوم يسمع المرء عن تعرضهم لمجموعة من الشباب والشابات، اعتقالهم أو ضربهم، أو إخضاعهم للأمرين معاً، من غير المهم أن يقصوا شعر الشبان أو يمزقوا ثياب بعض الفتيات اللواتي رفضن الانصياع لأوامرهم، ضحاياهم كما شاع من مختلف الجنسيات، ليس الكويتيون وحسب، وإن جاء هؤلاء على رأس القائمة، بل كل أولئك الغرباء الآخرين الذين بدؤوا يحلّون على المدينة منذ يوم 2 آب/أغسطس 1990 يوم دخول قوات الحرس الجمهوري العراقي للقصر الأميري في العاصمة الكويت، طبعاً ليس المقصود هنا بالغرباء

أولئك القادمين من أميركا وأوروبا، فهؤلاء ومهما حصل خالها على صلاحيات أو سلطات، فإنه سيلاقي حتفه بالتأكيد إذا تعرض لواحد منهم، أو لمس حتى ظفراً من أظافر أحدهم، كما سخر منه والدها ذات يوم، «يا لله، وارين شجاعتك واعتقل أميركي أو أميركية سكرانين»، قال له ساخرًا، كلا، هؤلاء استثناءهم قانون خالها الإيماني، حتى تلك المجندة الأميركية التي ظهرت ذات يوم فجأة على كورنيش الخبر، تتمشى تلبس الشورت وصدرها منتفخ أمامها والتي شاع خبرها سريعاً وجعل الشباب يقودون سياراتهم ويدورون حولها على الكورنيش يصفرون لها وهي تضحك، تردّ عليهم «هاي غايس»، قبل أن تلحق بتحتيتها «نايس تو ميت يو غايسس»، حتى هذه التي رأتها سارة بنفسها، والتي ظلت فضيحة ظهورها ذلك حديث المدينة على مدى أيام، لم يجرؤ خالها أو أحد مطوعته بالتعرض لها، وهي هيئة القيادة العسكرية الأميركية التي عممت كتاباً على وحدات الجيش توصي المجنדות والمجندين، بعدم الظهور بالمظهر غير اللائق أو التصرف بما هو مشين، بما فيه قيادة المجنדות للسيارات إلى شرب البيرة أو مشروبات كحولية أخرى بشكل علني: من الضروري احترام عادات الناس هنا.

كلا، لا الفرنسيون ولا البريطانيون ولا الإسبان ولا أيّ قوة أوروبية أخرى من القوى الواحدة والثلاثين التي شكلت ما أطلق عليه حينه «قوات التحالف» تعرض لهم خالها، فقط الغرباء من القوميات الأخرى والعربية على وجه الخصوص، سواء تلك التي انضوت تحت قوات التحالف أو تلك التي شكلت قوات درع الجزيرة، في النهاية لم يأتِ العسكر وحدهم، بل جاء معهم رهط من التكنيكيين ورجال الاختصاص بالأمن والاستخبارات والاتصالات، وهؤلاء لم يحلّوا على المدينة ضيوفاً وحدهم، بل جلبوا عائلاتهم معهم، وغالباً ما كان يمكن رؤيتهم بصحبة عائلاتهم يتسوقون في مول الخبر أو يتمشون على الكورنيش، حتى في الأسواق الشعبية الكبيرة لم يعد الهنود والباكستانيون

والشرق آسيويون يشكلون المشهد الرئيس في المدينة، بل أصبح منظر وجوه أخرى هو الآخر مألوفاً، حتى وهم في لباسهم العسكري.

لكن من غير المهم ما قام به خالها، فإنه لا يستطيع إرجاع الساعة إلى الوراء، هذا ما أوضحه له أبوها ذات مساء، هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليست هي التي تقرر مصير البلاد، خاطبه أبوها، إنها الجيوش التي ترابط هناك، «الجنرال الأميركي سفارتزكوف وضباطه هم الذين يمسكون عقرب الساعة بأيديهم، لقد ولى زمانك يا يوسف الأحمد»، قال له أبوها، «لا أنت ولا بقية البشر يستطيع بعد اليوم تقرير مصير العالم»، ربما كان أبوها محقاً، وربما بالغ بعض الشيء، لكن في أمر واحد كان على حق: إن ليلة 16 يناير/كانون الثاني 1991، الليلة التي اختارها العسكر لقصف بغداد، لم تكن بداية انطلاق للعمليات العسكرية في الكويت وحسب، بل ستكون بداية تاريخ جديد للعالم جميعاً.

تلك الحرب التي ستدخل التاريخ بقوة، وستثبت أنها ليست حرباً دارت في منطقة الخليج، لها علاقة بتحرير إمارة صغيرة اسمها الكويت وحسب، كما كان الهدف المعلن في الميديا، بل كانت حرباً أكبر وأكثر شمولية، ربما لم تنتبه سارة لاندلاع الحرب في الأيام الأولى، ليس لأن منظر البارجات الحربية وهي تعبر مياه الخليج لم يهمها، كانت ترى منظرها كل يوم وهي ذاهبة باتجاه الشمال، أو لأنها اعتادت منظر النازحين من السكان بعد احتلال الكويت، بل لأنها كانت مشغولة مع صديقتها، فرحة بعودتها من جديد، بإطلاق سراحها هي وعائلتها من السجن، إذن كذب عليها أبوها، عندما سألته في نهاية شهر أغسطس/آب أن يأخذها إلى صديقتها، إنها لم تتصل بها منذ أيام، وهي قلقة عليها، وكان جوابه، وهو يُخرج آهة، أن عائلتها انتقلت إلى مدينة أخرى، أمر غريب، حدثت نفسها في حينه، لأن صديقتها لم تخبرها بأمر الانتقال أبداً.

الآن تفهم، لماذا حمل صوت أبيها نبرة حزن في جوابه، عندما فبرك لها قصة

الانتقال إلى مدينة أخرى، كم هي فرحة بعودتها، قالت سارة لصديقتها وهما يتعانقان ويمسحان الدموع عن عينيهما، لكن مع الأيام، سواء في جلساتها مع الهنوف أم مع الآخرين، اكتشفت كيف أن الحرب حلت مثل ضيف ثقيل، حاضرة دائماً في كل فعل وسلوك، في كل مناسبة فرح أو حزن، وحتى سعادتها أو سعادة صديقتها بعد مغادرة المعتقل، ارتبطت بشكل ما بالحرب، فلولا الحرب لما أطلقوا سراح العائلة، قالت لها الهنوف، «وحدة الوطن هي المهمة»، قالوا لهم، «الآن كل الجهود من أجل المعركة»، لا الهنوف ولا صديقتها يفهمن ما معنى كل ذلك، أية معركة وأية جهود.

كانت معاناة العائلة في السجن مريرة، كما روت لها صديقتها، صحيح أنهم لم يتعرضوا للضرب، لكن الأسوأ، كان هو التعذيب النفسي الذي كان عليهم أن يمروا به، كان فظيلاً، أسابيع طويلة مرت بهم مرميين في زنازين مظلمة ورطبة مع العشرات من المعتقلين، الرجال في جهة والنساء في جهة، أسابيع طويلة، لم يقل أحد لهم التهمة «الخطيرة» التي كانت سبباً لاعتقالهم، مرة واحدة سمعت أحد ضباط الشرطة يقول لأمها، ابنك مدير المتحف يتحدث خرافات لضابط أميركي زاره في المتحف، قال له مكان الرمي في القاعدة الأميركية هو مقبرة قديمة، «هذا كلام لا يخرج إلا من فم أعداء الوطن من الروافض»، وهذا الضابط نفسه، السجن، جاءهم بعد أيام بوجه منطلق، بشوش، يقول لهم، «أبشروا، الحرب»، وهم لم يعرفوا ماذا يعني بذلك وأية حرب، و فقط عندما أصبحوا في الشارع، وتنفسوا الهواء، عرفوا، أنهم طليقون.

«شكراً للحرب»، قالت لها الهنوف بنبرة لم تخل من الاستهزاء، «كل شيء من أجل المعركة»، أجابتها سارة بصوت لم يخل من السخرية هو الآخر، لكن مهما ضحكت الصديقتان، ومهما سخرتا، إلا أن شعوراً يقول لهما، إن كل شيء تغير، وإن لا اعتقال الهنوف وعائلتها حدث صدفة، أو حدث بسبب تصريح بسيط

لأخيها مدير المتحف، بل الأسباب أبعد من فهمهما، شعورهما كان يقول لهما، إنهم ودعوا زمناً قديماً، وإن ما بعد ليلة 16 يناير/كانون الثاني، 1991، لن يكون صباح 2 أغسطس/آب 1990، هو التاريخ الفاصل لدخول عصر جديد، حتى وقبل أن يبدأ القرن الواحد والعشرون.

وفيما خصّ سارة، كان عليها أن تنتظر بعض الوقت، لكي تصدق ظنونها، كيف أن الحرب التي ستدور على الجبهات وعلى مدى شهرين أو أكثر، ستختلف عن كل تلك الحروب التي قرأت عنها في الكتب المدرسية، وكيف أنها هذه المرة لن تكون بحاجة لقراءة كتاب عن الحرب أو سماع أحد قادم من جبهات الحرب يروي ما سيدور هناك، وأن ما ستنقله صديقتها الهنوف عن أخيها الذي يعمل مهندساً للخرائط في شركة آرامكو، وهي توصيها ألا تنقل ذلك لكي لا يعتقلوهم مجدداً، يصح تماماً في وصف هذه الأحداث: لم تعد حرباً تدور على الجبهات وحسب، «الحرب انتقلت إلى صالونات البيوت»، قال أخوها، وهو يقصد طبعاً شاشات التلفزيون، فللمرة الأولى سيبدأ الناس يرون نقلاً مباشراً عن الحرب، للمرة الأولى ستدخل قاموسهم أسماء محطات تلفزيونية جديدة لم يسمعوها بها من قبل، محطات أميركية طبعاً، «سي. أن. أن.» مثلاً، أو «فوكس نيوز»، وسارة هي الأخرى ستعتاد رؤية هذه المحطات، سواء شاءت أم أبت، طبعاً بإمكانها أن تطلب من أبيها شراء جهاز تلفزيون خاص بها، لكي ترى المحطات المحلية التي لم يهتما ما دار على الجبهات.

لكنها ومنذ ليلة قصف بغداد، أو بالأحرى منذ قصف بغداد في ساعات الفجر الأولى من ليلة 16 يناير/كانون الثاني 1991، ليلة إعلان الحرب، لن يصبح بمقدورها الذهاب للنوم إلا في ساعات متأخرة من الليل، بالذات هي التي لم يكن يعجبها الجلوس في الصالون إلا نادراً، هي التي كانت تحب قضاء وقتها في الليل في غرفتها تسمع محطات الراديو، وغالباً ما تكون محطة مونت كارلو

بسبب أغانيها الغربية الجديدة، وإذا ملّت من سماع الراديو أو سمعت أغاني مكررة، فإنها إما أن تتحدث مع صديقتها الهنوف بالتلفون أو تشغل نفسها بكتابة رسالة لها، لكي تسلمها لها في اليوم التالي، تدسها في حقيبتها بالأحرى، التحضير للدروس أو ما شبه كانت تنتهي منه في ساعات العصر، لكن منذ ليلة قصف بغداد سيتغير نظام يومها، كأن الحرب التي ستدور أمامهم على شاشة التلفزيون وتأثيرهم على شكل صور، ستباغتها بكل ما حوته من عنف وخراب، من موت ودمار، من حزن وعويل، كأن تلك الحرب التي هجمت على الناس جميعاً وباغنتهم، لن تستثنيها هي، ستهاجم عليها أيضاً، ستستحوذ على أيامها جميعاً، دفعة واحدة، وستجعلها تتغير كلياً.

حتى صديقتها الهنوف ستتغير، لن ترسم طيراً بعد اليوم، وربما أرجعت سارة تغير صديقتها إلى ظروف الاعتقال، مرة واحدة تحدثت لها الهنوف عن ظروف الاعتقال، في اليوم التالي من إعلان الحرب، عندما جلست معها في حديقة المدرسة، لكن بعدها فعلت كل ما في وسعها لتجنب الحديث، لا بدّ وأنها ظلت تعاني من ذلك في داخلها، كانت سارة تفكر طوال الوقت، لكن عندما استخبرها صديقتها، بأنها منذ اليوم وصاعداً ستبدأ برسم البشر، ستعرف أن الحرب غيّرت صديقتها أيضاً، «الجنود قبل كل شيء»، ستقول لها الهنوف وهي تريها ذات يوم سلسلة من رسوماتها الجديدة، نعم، إنها منذ اليوم لن ترسم إلا الجنود، «هل رأيت صور الجنود العراقيين المساكين؟»، ستقول لها، وهي تقصد أثناء انسحابهم أو فرارهم من الكويت، كأن صديقتها بسؤالها ورسومها الجديدة أرادت ودون أن تدري تأكيد الحالة التي تمرّ فيها، «أخي يقول كل الناس تغيّرت بعد 16 يناير 1991، كل العالم»، وكم كان بؤسها أن تخبر صديقتها، «أخوك على حق»، لأن سارة هي الأخرى تغيّرت أيضاً.

الحرب دارت على الجبهات. يقولون. لكن هل دارت الحرب فعلاً على أراضٍ

بعيدة؟ على الجبهات؟ والصور؟ ماذا عن صور الحرب؟ ألم تدخل صالون كل بيت؟ ألم تصل حتى إلى غرف النوم؟

كانت تلك هي المرة الأولى في حياة سارة التي لم تستطع التفكير فيها بشيء آخر، إنها الصور، صور الحرب هذه وحسب، التي صاحبها ليل نهار، كانت تنام وتصحو معها، كل يوم راحت عائلتها ما إن تستيقظ وقبل تناول الفطور تذهب لتجلس أمام شاشة التلفزيون، جميع أفراد العائلة يستيقظون في ساعة مبكرة، من غير المهم الساعة المتأخرة التي يذهبون فيها إلى الفراش، منذ الليلة الأولى، ليلة إعلان الحرب وقصف بغداد في فجر يوم السادس عشر من يناير/كانون الثاني 1991 وهم ينامون مع صور الحرب ويصحون عليها، والغريب أن هذه الصور بكل تتبعها وتسلسلها لم تلخ بعضها البعض، بل أكملت بعضها، كأنها تبارت في عنف تأثيرها عليهم، سواء تعلق الأمر بصور قصف بغداد التي رأتها على شكل حبيبات لماعة برقت على شاشة التلفزيون، أو تعلق الأمر بصور الجنود العراقيين الهاربين في طريق انسحابهم من الكويت شمالاً باتجاه البصرة، بعضهم تهرأت ملابسه العسكرية، بعضهم خلع تلك الملابس وبقي عارياً، ظناً منه أن طائرات الفانتوم الأميركية، التي حامت فوقه مثل شبح أسود، لن تتعرف عليه. أو صور الدخان الذي تصاعد على ذلك الطريق، الذي سيطلق عليه في التلفزيون «طريق الموت»، من كل السيارات العسكرية والآليات، من كل المدرعات والدبابات التي تركها الجنود على الطريق وقصفتها الطائرات، أو سواء تعلق الأمر بصور الجنود العراقيين المستسلمين أمام الجنود الأميركيين في معركة حفر الباطن.

أية وجوه تعب ويائسة، أي عطش جعل شفاههم تتشقق، قالت سارة لنفسها في حينه، باختصار كل الصور التي رأتها على شاشات التلفزيون أو التي رأتها في دفتر صديقتها على شكل رسومات، جعلتها تشعر بحزن عميق، كيف لها أن

تنسى صورة الجندي العراقي الذي انحنى عند قدم أحد الجنود الأميركيين مسكه بقوة من بسطاره وقبله متوسلاً أن يرحمه! كيف لها أن تنسى صور العراقيين وهم يفرون من مدنهم في الجنوب والشمال بعد فشل ما أطلقوا عليه هناك الانتفاضة، هذه المرة يفرون خوفاً ليس من قصف الطائرات الأميركية بل من قصف الطائرات العراقية، طائرات هليكوبتر، «كيف سمح الجنرال شفارتزكوف للجنرالات العراقيين باستخدام الطائرات السمتية ضد الناس؟»، تساءلت أختها أسماء التي كانت في زيارة لهم، أخذت إجازة طويلة في حينه وجلست عندهم في البيت بانتظار انتهاء الحرب، وعلى عكس كلمة «جنرال» التي كانت تعرفها أصلاً مع رتب أخرى منذ زيارتها للقاعدة العسكرية الأميركية في الدمام مع أبيها وهي طفلة، لم تعرف معنى كلمة «سمتية»، لكن أختها أسماء التي شرحت لها، قالت لها، إنها تسمية أخرى لطائرات هليكوبتر تُستخدم أصلاً لنقل الجنود، لأنها تستطيع الوقوف في السماء بشكل أفقي، «الجندي الذي يجلس فيها وعنده مدفع رشاش يستطيع أن يمطر الناس تحته بالرصاص على رؤوسهم»، كل تلك الصور، صور الأكراد وهم يصعدون الجبال خوفاً من قصف الطائرات السمتية (كانت تلك المرة الأولى التي تسمع فيها بوجود شعب اسمه الأكراد)، أو صور هروب الناس في جنوب العراق باتجاه المملكة، انحفرت في ذهنها إلى جانب صور الحرب الأخرى، وشكراً لأختها الكبيرة أسماء التي لم تبخل عليها في تلك الأيام بإجابتها عن كل سؤال أثار الفضول عندها، كانت تلك هي المرة الأولى التي ظلت فيها أختها الكبيرة وقتاً طويلاً.

كانت المدرسة التي عملت فيها تقع على أطراف مدينة حفر الباطن، ولحسن حظ أسماء، إنها كانت في يوم بدء العمليات العسكرية تتردد إلى مستشفى مدينة خالد العسكرية بسبب آلام في الرحم، وأبوها الذي طلب منها أن تذهب إلى الخبر بعد انتهاء الفحوصات الخاصة بها وأنه سيقوم بنفسه بإخبار إدارة

المدرسة لكي يحصل لها على الإجازة منها، «هذا إذا كانت هناك مدرسة». علق أبوها، دون أن يدري أنه كان على حق، بسبب تحول «الأرطاوية»، حيث وقعت المدرسة التي تعمل فيها أسماء إلى منطقة عسكرية مغلقة أولاً، ثم بسبب تحويلها إلى معسكر للاجئين العراقيين الذين فروا من العراق، ولا تعرف سارة إذا كان عليها أن تشكر الحرب، لأنها أجبرت أختها على البقاء عندهم بانتظار بداية الفصل الدراسي الجديد كما وعدوها في وزارة التربية، فلولاها لما تعلمت الكثير، ليس هي وحدها، بل الهنوف أيضاً تعلمت من أختها أسماء الكثير، فكثيراً ما طلبت منهما أسماء أن يأتيا معها إلى الكورنيش، هناك اعتدن الجلوس على العشب مباشرة أو على إحدى المصطبات يعاين البحر، بينما تتحدث أسماء مع الاثنتين بحميمية، وهي أسماء أيضاً التي شجعت الهنوف على مواصلة رسم الجنود وكل ما تراه على شاشات التلفزيون من صور دمار وتظن أنه يصلح للرسم، طلبت من صديقة سارة، ألا تتوقف عن الرسم، أن ترسم كل ما تراه عيناها أبعد من تلك الصور التي تنقلها وكالات الأخبار والمحطات، «التلفزيون يضخ آلاف الصور حتى نعود على الحرب... حتى ننساها بسرعة»، كما قالت لها ذات يوم بصوت حزين، ثم لتكمل «كل ما نراه حوالينا سيختفي ذات يوم ولن يبقى غير التلفزيون... حتى نحن، سنختفي»، وعندما ترى أسماء في عيني الصبيتين بعض الشك تقول لهما، «انظرا إلى تلك البواخر»، وكانت تقصد البواخر الحربية التي أصبح منظرها مألوفاً في الخليج، بارجات ضخمة تذهب وتجيء، محملة بالعتاد والجنود، حاملات طائرات وصواريخ، ولا تنسى أن تضيف أحياناً وهي تشير بيديها حوالها مثل مَنْ يرسم خارطة في الهواء، «هذه المناطق لم تعرف غير الحرب»، وفي كل جلساتها تلك بدت أختها مهمومة جداً، قلقة، لم ترياها تضحك، فقط في مرة واحدة، في جلستها الأخيرة هناك، رأتا على الأقل الابتسامة على وجهها، كان اليوم الذي انتهت فيه العمليات العسكرية.

في تلك الجلسة أخرجت الهنوف الدفتر الذي جمعت فيه كل رسوماتها من حقيبتها، وطلبت من أسماء أن تحتفظ به عندها، قائلة لها: «أخاف أن يضيع عندي»، ولم تسألها أسماء لماذا تعتقد أنه سيضيع، كأنها عرفت في حينه أو قبلها الكثير عن صديقتها، أكثر من سارة، قلبت أسماء أوراق الدفتر، فيما ارتسمت ابتسامة شاحبة على ثغرها: «أشكرك على هذه الثقة»، قالت لها. كانت رسومات الهنوف أقرب للتوثيق كما أرادتها أسماء، حوت كل ما رمزت له الحرب منذ بدايتها وحتى انتهائها. كأن دفتر الهنوف وضع حدّاً فاصلاً بين تاريخين، زمن ما قبل حرب الكويت، وزمن ما بعدها. أحد أشكال مقاومة النسيان. كأن الصديقتين متفتحتان على ذلك. سينسى الناس الحرب. سيشعرون بالراحة، دون أن يدروا أن ما حدث هو بداية لحروب طويلة أخرى. حرب خالها مثلاً: الداعية الشيخ يوسف الأحمد. «الحرب تأكل الأخضر قبل اليابس»، قالت أختها أسماء ذات يوم، لكنها لا تعرف، أن حرب خالها، الداعية يوسف الأحمد تأكل كل ما له علاقة بالحياة، وأنها ستطبق برحاما على العالم جميعاً.

في خريف ذلك العام أتمت سارة الحادية عشرة من عمرها ودخلت الثانية عشرة، العمر الذي تمت الوصول إليه، كما صرحت ذات يوم أمام صديقتها الهنوف، ولكن ما لم تعرفه قبل ذلك هو أنها ما إن بدأت بهذه السن، حتى وجدت عبثاً، لأنها ماذا جنت من هذه السنة غير الحرب؟ كم تمت أن تكبر بأسرع وقت لكي تصبح في الثالثة عشرة من عمرها، «الثالثة عشرة هي السنّ الصحيحة لكي نحقق أحلامنا»، كتبت في رسالة إلى صديقتها الهنوف، دون أن تقول لها، أية أحلام تعني؟ دون أن تدري طبعاً، أن الثانية عشرة ستكون السنّ الصعبة بالنسبة لها بالفعل، الحد الفاصل بين حياتين، ليس بسبب «بداية حرب الداعية يوسف الأحمد»، كما تكهنت أمام أختها أسماء في ربيع ذلك العام، وحتى إذا شكّت الأخت قليلاً بكلام سارة، إلا أنها سرعان ما سترى بعينها أثناء إقامتها

عندهم كيف أن أختها الصغيرة كانت على حق، لقد تبدلت حياة عائلتها تماماً منذ انتقال خالها، الداعية يوسف الأحمد للعيش في الخُبر، كأنه أراد تقليد الأمراء الذين امتلك أغلبهم بيتاً قريباً من البحر، ليجلس ليس على رقابهم مثل السيف المسلط، فبطريقة ما ظلت المعركة بينه وبين أبيها مؤجلة إلى حين.

كلا، ليس بسبب ذلك كان عاماً خَلدت ذكراه، بل أكثر بسبب ما حدث لها هي نفسها من تطورات. ففي خريف ذلك العام وقبل أسابيع قصيرة من التحاق أختها أسماء بعملها، هذه المرة في مدرسة قريبة من قاعدة حفر الباطن، استيقظت سارة ذات صباح، الأول من أيلول/سبتمبر كما تعتقد، لتشم رائحة غريبة وسائل لزج تجمّد بين فخذيهما، لفتت نفسها بشرشف كانت رمته عند قدميها بسبب حرارة الغرفة، كوّرت نفسها ولفّت ذراعيها حول صدرها كأنها أرادت حماية نفسها ضد عارض خارجي، كانت بلا حيلة، لا تدري ماذا تفعل، الدم سال منها في الليل، وما زال يجري من حين إلى آخر، أما تحت أسفل بطنها عند مئانتها فشعرت بتقلصات وبما يشبه سكاكين تُقطع أحشاءها، لم تخرج من غرفتها في ذلك الصباح وبقيت ملازمة الفراش، ظنت أمها في البداية، أن ابنتها مصابة بحمى أو بوعكة صحية بسيطة، أمور حدثت لها في الفترة الأخيرة منذ شعورها بأنها مهددة من خالها وتدخّله في حياتها، هذا ما قالته الأم لأختها الكبيرة أسماء التي كانت تلقت خبر التحاقها بعملها من أبيها في الليلة الماضية، وكانت الأخت صدقت كلام الأم ولما قررت أن تصعد إلى غرفة أختها لتتأكد من وضعها بنفسها، لأنها كانت قد اتفقت معها أن تذهب في ذلك اليوم إلى أسواق التميمي عند كورنيش المدينة للتسوق، أرادت أن تدلّها على عدة الأصباغ التي استخدمتها الهنوف في رسومها، لأن أسماء ومنذ أن رأت ذات يوم الرسم الذي أهدته الهنوف إلى سارة: طيران ملونان بعيون كبيرة جميلة يحلقان في فضاء واسع، حملا في أجنحتهما صورتين، واحدة لسارة والثانية للهنوف، وهي تفكر بشراء عدة الألوان ذاتها التي رسمت بها الهنوف ذاك الرسم، لقد سحر الرسم

أسماء منذ أن رأته على الكومودين القريب من سرير أختها، جمال الألوان التي برقت في عتمة الغرفة جعلها تظن بأن البريق الذي خطف عينيها له علاقة أكثر بنوعية الألوان، «المهارة وحدها لا تكفي»، قالت لها أسماء، «العدة تلعب دوراً كبيراً»، قالت ذلك كأنها مدرّسة رسم خبيرة وليس مدرّسة في مادة التاريخ، «لا بدّ من شراء هذه العدة»، الأمر الذي أدهش سارة، فهي المرة الأولى التي عرفت عن أختها ولعها بالرسم وحرصها على شراء العدة ذاتها وأخذها معها إلى حفر الباطن، ولأن أسماء تهتئ نفسها للالتحاق بمدرستها فكرت أن الوقت قد حان لشراء الألوان بالفعل، فاتفقت معها أن تدلّها على المحل.

لكن ما إن دفعت أسماء باب الغرفة، حتى تأكد لها ما ذهبت إليه في ظنها، رائحة الدم للزج وصلت إلى أنفها، وعندما اقتربت أكثر من السرير رأت أختها مكورة في الفراش، ترتجف بقوة، كأنها استيقظت على كابوس، فما جعلها تقلق عليها إلا صوت اصطكاك أسنانها وبهذه القوة، من أين لها أن تعرف أن دخولها هي بالذات إلى الغرفة جعل سارة تشعر للوهلة الأولى بالخوف، ثم بالخجل عندما رأت أختها تجلس على حافة السرير وتطلب منها أن تنهض لكي تستبدل الشرف وثوبها، وكانت بقيت مع ربيتها لو لم ترّ ابتساماً أختها، التي قرصتها من خدّها وهي تقول لها «أصبحت اليوم امرأة».

مجيء العادة الشهرية ليس هو الانقلاب الوحيد الذي حدث في حياة سارة في ذلك العام. الانقلاب الثاني حدث بالضبط بعد انتقالها إلى المدرسة المتوسطة، وهذه المرة بدون صديقتها الهنوف. ذات ظهيرة وبينما هي جالسة في صالون البيت تراقب إحدى حلقات مسلسل «السيدة ملعقة»، وفي يدها كوب شاي، دخلت عليها آشا، ابنة الخادمة الهندية الوحيدة التي صمدت أمام أمها بالبقاء عشر سنوات في بيتهم رغم ولادتها بنتاً بعد تسعة شهور من عملها في البيت عندهم، لتسلمها رسالة صغيرة. للوهلة الأولى ظنّت سارة أن آشا الفتاة

التي هي بمثل سنّها والتي لم تسمعها تنطق يوماً بجملة واحدة، أرادت أن تجرب المزاج معها كما فعلت في محاولات أخرى، كأن تفرد يديها على شكل جناحين بمحاولة منها لتقليد حركة الطيرين في الرسم الذي أهدته لها الهنوف، هذه المرة تريد أن تسخر منها بسبب رسائلها التي ترسلها إلى الهنوف، فكرت سارة في نفسها، حتى عندما سألتها، «رسالة؟ لي؟ مِنْ مَنْ؟»، لم تجبها آشا، اكتفت على عاداتها بإخراج همهمة بسيطة منها، وأشارت لها برأسها، أن تفتح الرسالة بنفسها لتعرف، قبل أن تخرج وتترك سارة مع شكوكها.

للوهلة الأولى فكرت سارة بإهمال الرسالة، لكنها جمعت قواها في النهاية وتشجعت على فتحها، كانت رسالة قصيرة، حوت جملتين أو ثلاثاً، لا أكثر، ولو لم ترَ بعينها صورة الإمضاء الذي زُين الرسالة تحت على شكل رسم لفتاة جميلة مدفونة في سرير جنائزي، الإمضاء الذي تعرف أنه ماركة مسجلة لشخص واحد لا غير، لما صدقت عينيها، إنها هي صديقتها ولا أحد غيرها، الهنوف مَنْ كتب لها الرسالة، كيف تنسى تلك الصورة التي وضعتها مديرة المدرسة بعناية في إطار خشبي جميل، والتي رأتها للمرة الأولى مع أبيها على طاولة المديرية وهما يجلسان في ذلك اليوم في مكتبها في مدرسة الصداقة الأميركية السعودية في القاعدة الأميركية في الظهران، ربما نسيت سارة رسومات أخرى لصديقتها، لكن هذه الصورة؟ كيف تنساها، وهي أول صورة رأتها للهنوف حتى قبل أن تراها شخصياً، والآن عليها أن تعرف أنها إذا فكرت منذ اليوم بكتابة رسالة إلى صديقتها «الفتاة العبقرية» هذه، فإن عليها الاحتفاظ بالرسالة عندها، لن تدرسا معاً في المدرسة ذاتها، ولن تنتزها معاً، ولن تزورا بعضهما بعضاً، لن تتصلا ببعض بالتلفون، لأن صديقتها الوحيدة اضطرت للرحيل مع أمها، «علينا أن نغادر»، دون أن تقول، لماذا وإلى أين؟ دون أن تترك عنواناً، فقط، تلك الجملة، صحبتها كلمات وداع، «وداعاً صديقتي

العزيزة، عسى الله أن يجمعنا ذات يوم»، وجملة ثالثة مبهمة، من الصعب عليها أن تطلق عليها كلمة جملة «باننظار أن تتعلمي الطيران».

مع اندلاع الحرب، أطلقوا سراح صديقتها مع عائلتها، مع نهاية الحرب، اختفت صديقتها وعائلتها كما اختفت في المرة السابقة، فلماذا لا يكونون قد اعتقلوهم هذه المرة أيضاً؟ ألم تنقل لها صديقتها تحذير السجن لهم عندما أطلق سراحهم في المرة الأخيرة، عليهم أن يحذروا في المستقبل، «في المرة القادمة لن تخرجكم حتى حروب داحس والغبراء كلها»، قال لهم! ومثلما حارت في المرة السابقة، عندما رأت صديقتها بعد غياب، حارت إذا كان عليها أن تفرح أم تحزن، لأنهم قالوا لعائلتها، بأن عليهم أن يشكروا الحرب، أنهم أصبحوا طليقين، فمن جهة كان عليها أن تحزن بسبب اندلاع الحرب، ومن الجهة الأخرى كان عليها أن تفرح لرؤية صديقتها من جديد، الآن أيضاً، «كل شيء معكوس في هذه المملكة»، قالت سارة لنفسها، ثم حضنت سارة الرسالة، ولم تستطع إيقاف الدموع التي بللت عينيها أولاً قبل أن تشق طريقها على خديها، شهقت وأجهشت بالبكاء، لا تعرف ماذا تفعل، كأن الدنيا كلها ضاقت في عينيها، هل تسأل خالها الداعية الشيخ يوسف الأحمد، على الأقل هذه المرة فقط، فمن غيره يعرف ما حلّ بصديقتها وعائلتها، ألم تسمعه يكرر أمام أبيها وفي العديد من المناسبات، لا مكان لأشباه عائلتها، في المملكة، بإشارة منه لإخوانها الثلاثة، «الروافض لا موطن قدم لهم عندنا. سنطردهم»، ولا يقول إلى أين يريد أن يطردهم؟ في المرة الأولى اعتقلوها مع عائلتها بسبب أخيها مدير المتحف، كما عرفت، والآن ماذا حدث؟ هل أعطوهم بعض الوقت، لكي يعيدوا اعتقالهم من جديد؟ كيف ستتحمل فراقها هذه المرة، ومجرد تخيلها في زنانة مظلمة ورطبة وقذرة، كما وصفتها لها في المرة السابقة، يجعلها تتعذب! في تلك المرة شكراً للويتنانت دانييل بروكس الذي ساعدها آنذاك على تحمل ذلك الفراق، ولو على مريض. طوال فترة اعتقال

صديقتها، شغلت نفسها بإعطائه دروساً في اللغة العربية، والآن؟ إنها غير قادرة حتى للوصول إليه، منذ عودته من الحرب وهو مشغول بمراجعة الأطباء.

«مسكين ابن الحلال هذا، هذه المرة يعاني أكثر»، قال أبوها، «دمرته الحرب، أخذت منه صديقه دافيد باربيرو»، بإشارة من أبيها إلى دخول دانييل بروكس المستشفى للمرة الأولى للنقاهة. هو المسالم الذي لم يطلق طلقة واحدة في حياته، عندما أجبره قبل عام أمر وحدته الرائد راي برينس بإطلاق النار ليلاً، وأين؟ في ساحة الرمي الخاصة في القاعدة الأميركية في الظهران التي أنشأها الأميركيان على مكان كان في القَدَم مقبرة يدفن فيه السومريون موتاهم، لا حاجة لأبيها للإشارة إلى خراب صديقه بعد عودته من حرب الكويت، وهذه المرة معاناته أكثر من السابق، مرة واحدة فقط رأت سارة دانييل بروكس بعد عودته من الحرب، في جلسة قصيرة مع أبيها في الكوفيه شوب التابع لفندق شيراتون الدمام، إلا أنها كانت كافية لكي ترى حجم العذاب الذي يعاني منه، كان وجهه قد هرم وانحرفت التجاعيد فيه، لم يعد «سمائلي مان» الذي عرفته قبل الحرب.

هل ذلك قدرها هي أيضاً؟ هل ستهرم هي الأخرى مبكراً؟ كأن نهاية الحرب التي فرحوا بها، تحولت إلى لعنة بالنسبة للبعض، لدانييل بروكس مثلاً، أو لها، صديقه دافيد باربيرو اختفى من حياته على الجبهات إلى الأبد، وها هي صديقتها تختفي من حياتها هي الأخرى، كم ألمها ذلك، تعرف أن لا شيء يمكن أن يقدم لها العزاء هذه المرة، لا الدموع ولا الرسومات التي احتفظت ببعضها.

عندما نامت في الليل وهي تحضن الرسالة التي سلمتها لها الخادمة آشا في نهار ذلك اليوم، حلمت بصديقتها، كيف أنها سقطت في هاوية عميقة، تبكي وتصيح بها، تطلب منها أن تمدّ لها يديها لكي تنتشلها من هناك، كان الحلم أقرب للكابوس، وبدل أن تمدّ يدها ناحية صديقتها شعرت بيديها ملفوفتين حول صدرها منذ زمن طويل، بالضبط كما كورتها حول جسمها في ذلك الصباح

الذي استيقظت فيه على دم العادة الشهرية وقد لطح فخذها، تلك الحركة التي من الواضح اعتادت عليها في نومها، كما أخبرتها أختها التي نامت إلى جانبها في الفراش طوال أيام عاداتها الشهرية الأولى، بعد أن طلبت سارة منها ألا تتركها وحيدة، «أخاف أنام وحدي»، قالت لأسماء، في طريق عودتهما من أسواق التميمي في ظهيرة ذلك اليوم، أول يوم تزورها العادة الشهرية فيه، وكانت قد انتهتا من تسوق عدة الرسم لأختها مع حاجات أخرى، من بينها حفاظات العادة الشهرية، ليالٍ عديدة لم يضايقها تكوير يديها حول جسمها أثناء نومها، مثل من يحمي نفسه من هجوم مباغت، فقط في تلك الليلة شعرت بالحنق على نفسها وعلى العادة الشهرية، لماذا لم تفتح يديها، لماذا لم تمدّ يديها ناحية الهوة وتنفذ صديقتها؟ وفي عمق الليل، في ساعة متأخرة منه، استيقظت مرعوبة تتصبب عرقاً، فمها جاف، بلعت ريقها وتناولت قرح الماء الذي تتركه لها الخادمة الهندية والدة آشا كل ليلة قريباً من رأسها، ترى ما الذي حدث للهنوف؟ قالت لنفسها دون أن تدري ماذا تفعل؟ بكت في تلك الليلة بحرقه، وتخيلت صديقتها ما تزال في تلك الحفرة، بل تخيلت أنها بعثت لها تلك الرسالة من داخل الحفرة.

لاحقاً لم تستطع القول كيف مرّت تلك الليلة، لكنها تتذكر كيف أنها في اليوم التالي، يوم الجمعة بالأحرى، سمعت أباهما يتحدث عند مائدة الفطور عن هروب أم الهنوف بابنتها، «لا أحد يعرف إلى أين؟»، قال الأب، وهو يتأسف، ليس بسبب هروب صديقتها، بل لأن عليه في المستقبل أن يعتمد على نفسه بإعادتها من المدرسة، أما في الأيام التي يغيب عنها، فعلى سائقهم الهندي راجو أن يجلبها إلى ومن المدرسة، وعندما سألته أمها مشاعل، لكن ماذا يقول زوج أم الهنوف؟ ولماذا هو متأكد أن زوجته لن تعود مع ابنتها؟ أجابها، لا يعرف، الأقاويل والعياذ بالله كثيرة، البعض يقول إنها ذهبت إلى البحرين، والبعض الآخر يقول إنها ذهبت إلى جدة، عندها أخت هناك، لكن لا أحد يعرف سبب هروبها! ذهب

زوجها إلى مخفر الشرطة للتبليغ عنها، طرده، قالوا له، هل نسيت أن رجلاً محترماً لا يذهب للشرطة ويقدم بلاغاً عن زوجته، الرجل الصحيح يلزم زوجته في البيت، «هذا جزء الزواج من رافضية»، كانت سارة تصغي لحديث الاثنتين دون أن تنبس بكلمة، وتحاول عبثاً مضغ لقمة الفطور، و فقط عندما رأت أمها تتطلع إليها، ثم تقول لأبيها: «بالتأكيد الهنوف أخبرت سارة بالقصة قبل الرحيل»، فقط في تلك اللحظة، نظرت سارة إلى أمها وقالت: «لو كنت أعرف لكنت أنقذتها»، دون أن تدري أن جملتها تلك بالذات ستثير الضحك عند أبيها، «تنقذينا؟ لكن من ماذا؟»، سألتها أبوها في تلك اللحظة وهو يطيل التحديق بها، «من ماذا؟»، هي الأخرى لا تعرف «من ماذا؟»، كل ما تعرفه، أنها ستحتاج إلى الوقت الطويل، لكي تفيق من صدمة فقدانها صديقتها.

«يا إلهي»، قالت سارة لنفسها بصوت حزين، «متى أستطيع أن أكون سعيدة؟»، كأن ذلك العام، عام دخولها الثانية عشرة من سنّها، وبكل ما جرى فيه، لم يشأ أن يتركها تعيش بسلام، وهناك انقلاب واحد طبعاً في هذا العام لا تستطيع أن تنساه: الانقلاب الذي يحدثه الحب الأول.

كان أحد أيام الخريف الجميلة النادرة، ربما لأن الفصل بشمسه الفضية قارب نهايته، كانت سارة قد أكملت للتوّ سن الثالثة عشرة وكانت في زيارتهم أختها الوسطى حُدام، وكانت هي التي اقترحت على الأم أن تطلب من سائقهم الهندي راجو أن يقودهم في السيارة إلى سوق الحب في الدمام، صحيح أنها ليست المرة الأولى التي سمعت فيها سارة بوجود سوق بهذا الاسم، إلا أنها المرة الأولى التي ستزور ذلك المكان الذي سبق لها وأن سمعت به مرات عديدة من صديقتها الهنوف. ذات مرة، في بداية تعارفهما، حدثتها صديقتها عن عائلتها، قالت لها، بأنها مثل بقية عوائل الدواسر جاؤوا أصلاً من البحرين، وفي تلك الأزمان التي كان من العبث السؤال فيها عن جنسية أو هوية، كانوا تجاراً ينتقلون في هذه

المناطق، وكانوا قبل أن يقرروا الاستيطان هنا ويصبحوا سعوديين وبينوا الثُّقبة أولاً التي بُنيت عليها لاحقاً مدينة الجُبر، كانوا يأتون من البحرين، ويعرضون بضاعتهم في المكان الذي أقاموا فيه أولاً: حيّ الدواسر، حيث يقع السوق اليوم، سوق الحب، والذي هو من أقدم الأسواق في الدمام، وحسب ما سمعت من أبيها، إن جدها من ناحية أبيها كان متفنناً بتطريز العباءات الرجالية، وكان محله يقع في شارع الحب، وحتى موته قبل عشرين عاماً أو أكثر. كان يعرض بضاعته في السوق، ملبوسات رجالية مصنوعة يدوياً، خصوصاً الدشاديش.

هل سمعتِ بمرارة «دشداشة الأصيل»؟ سألتها صديقتها في حينه، دون أن تنتظر منها جواباً طبعاً، «المرارة التي يعرفها اليوم كل الرجال في السعودية هي من تصميم جدي»، قالت لها الهنوف، ليس من الغريب إذن أن ينشأ أبناء العائلة على هذا المنوال، «أغلبهم يمارسون أعمالاً قريبة للفن»، أخوها الكبير الذي كانت الهنوف تتحدث عنه بشغف والذي درس في كاليفورنيا مختص بعلم الآثار، وهو الآن مدير متحف في المنطقة الشرقية، أما الأخوان الآخران فكلهما تخرج في كلية البترول والمعادن، أحدهما يعمل في مركز الأمير سلطان للعلوم والتقنية، قسم التطور الطبيعي، أما الثاني فيعمل في شركة آرامكو في قسم الماركيتينغ والتصميم، تصميم الخرائط، بالأحرى، أبوها هو الآخر تمنى أن يسير على خطى جدها ولكن مرض عينيه المبكر جعل جدها يُبعده عن تلك المهنة، قال له في حينه، واحد مثلك لا يصلح إلا أن يكون معلماً، كم تمتت الهنوف وقتها زيارة السوق، لكي يدها أبوها على المكان الذي كان يعرض فيها جدها بضاعته، قال لها إن من الصعب عليه أن يفعل ذلك، ليست رؤية المكان وحده، بل رؤية السوق والشارع ستثير عنده الحزن، من الأفضل ألا يفعل ذلك.

رحلت الهنوف أو لنقل اختفت فجأة دون أن تحقق رغبتها برؤية السوق، كم تمتت سارة زيارة السوق معها، وها هي أختها حُذام تقترح عليها وعلى أمها

زيارة السوق، كأنها عرفت برغبتها أو رغبة صديقتها الهنوف قبلها، ربما تقدم عن طريق زيارتها عزاء لصديقتها أو لنفسها، ولمَ لا؟ ربما أنها بهذا الشكل ستتطامن مع غياب صديقتها المفاجئ الذي دخل شهره الثاني أو الثالث، ستقول لنفسها سأرى الشارع والسوق باسمك، ستكونين معي...

كان العيد على الأبواب وكان الجميع يفكر بشراء ملابس جديدة، فلماذا لا تشتري هي الأخرى ملابس جديدة؟ منذ اختفاء صديقتها وهي تلبس الملابس السوداء حزناً عليها، دون أن تقول ذلك علناً طبعاً، كل عام ومع بداية الفصل الدراسي كانت هي التي تصرّ على الذهاب إلى الحُبر مول مع أمها لشراء ملابس جديدة لها، وهذا العام؟ قالت لهم، لا رغبة عندي. زيارة سوق الحب جاءت في وقتها المناسب إذن، هناك ستجد ما تحتاجه، أختها التي تفكر بشراء عباءات وشالات لبناتها، تقول، ليس هناك مكان أفضل منه لشراء المستلزمات النسائية، فالسوق الذي اشتهر ذات يوم ببيع الملابس الرجالية والنسائية ومستلزمات المنزل أصبح وبمرور الزمن يضم في أغلبيته المحلات المختصة بمستلزمات المرأة وزينتها، معظم المحلات التي اصطفت على جهتي الشارع أو تلك التي وقعت في شوارع خلفية صغيرة اشتهرت بين الأهالي، وأغلبها قديمة قدم اسم الحي، معظمها معروف بين السكان، يتناقلون أسماءها من جيل إلى آخر، لكن ذلك لم يمنع أن بعضها حتى إذا لم يكن بقدم المحلات الأخرى يشتهر أكثر من غيره، تلك هي حال محل «جوهرة البلد»، فحسب حُدام المحل افتتح حديثاً في خريف العام الماضي كما تقول، لكن العباءات والشالات التي يصنعها طافت شهرتها في كل مناطق الشرقية، جارات حُدام يتحدثن عن النوعية الراقية لأقمشة الحرير التي تُصنع منها، «حرير خاص من باريس»، كما تقول، أما التطريزات فهي لم ترَ مثلها قبل اليوم، على ذوق المرأة، هي بنفسها رأَت إحدى جاراتها تلبس أحد هذه الشالات، لم ترَ حتى تلك اللحظة، تطريزاً على حافة الشال من

الجهتين، وليس عند حافتي الشال العريضة، كما هي الحال حتى الآن، بل على طول الحافتين الطوليتين، الكل يمدح اليد الماهرة التي وراء تلك الصناعة، وكم ترددت في البداية بالذهاب إلى السوق، لكنها جمعت قواها في النهاية وقالت لأذهب، «لكن ليس وحدي»، قالت أختها حُدام.

كانوا قد تركوا الخُبر وراءهم، وأصبحوا عند المنطقة الصناعية في الدمام، عندما سألتها أمها، إذا كانت تعرف أين يقع المحل، لأنها لم تسمع قبل اليوم بمثل هذا الاسم، فأجابتها حُدام ليس من الصعب العثور على المحل. قالت لها. صحيح أن سوق الحب سوق شعبي كبير نسبياً يضم مجموعة من المحال التجارية الملتفة حول بعضها والمهتمة خاصة بمستلزمات المرأة ومستلزمات المنزل، إلا أن شارع الحب، الشارع التجاري الرئيس الذي يشق السوق يحتوي على جهتين من المحلات مواجهتين لبعضهما، الأولى متخصصة بملبوسات النساء والثانية المواجهة لها بملبوسات الرجال، ولا بد أنهم سيرون القطعة التي تعلن عن المحل هناك، ولكنهن لخيبتهن عندما وصلت السيارة إلى الشارع، لم يعثرن على القطعة، وكان على راجو أن ينزل من السيارة ويسأل بعض المارة، حتى دله أحد أصحاب المحلات، كان المحل يقع في شارع خلفي، فرحت سارة عندما رأت القطعة، ستشتري الشال الذي تريد أخيراً، دون أن تدري سارة بأن المشكلة تكمن باختيار الشال.

هذا ما عرفته مباشرة لحظة دخولها إلى المحل ورؤيتها الشالات معلقة بعناية إلى جانب العباءات، وكان يمكن أن تظل ساعات وساعات عيناها تطوف بين الملبوسات النسائية المعلقة، وبين تلك التي فُرشت تحت زجاج العرض، أو تلك التي كان يخرجها صاحب المحل، رجل في أواسط الأربعين من عمره، وهو يردد بحماس كلما أخرج مجموعة جديدة، «هذه طبعاً أيضاً حلوة، لكن تطريزها يختلف»، وكانت سارة ترى على وجه البائع صعوبة تفضيله مجموعة على أخرى،

عباءات وشالات بتطريزات مختلفة، كلها جميلة من الصعب القول، إن هذه أجمل من تلك، وإذا فكرت أن لمسها للقماش - كما تفعل النساء الناضجات، أمها أو أختها مثلاً - سيساعدها على اختيار الشال المناسب، فإنها اكتشفت بسرعة عبث ذلك، إذ لم يصف اللبس إليها غير تعقيد الأمر، وعندما سألتها أختها بابتسامة عريضة ارتسمت على شفيتها، «ها؟ ماذا تختار أختي الحلوة؟»، فإنها لم تجد غير ابتسامة خجولة تعبر عن حرج، لأنها إذا كانت صريحة مع نفسها، فستقول لها، أريد كل ما تقع عليه عيناى أو تلمسه يدي، لكنها صمتت، وقالت لها، بأنها تترك الأمر لها، أو لأمها باختيار الشال لها، أمر جعل الاثنتين تضحكان، ويحيبانها بصوت واحد: «أو أنت اختاري لنا شالاتنا!»، فهما الأخريان كانتا حائرتين، فيما راحت سارة تدور يائسة في المحل الصغير، صحيح أنها لا هي ولا عائلتها الصغيرة (أو قبيلتي، كما أطلقت عليها في رسالة كتبتها إلى الهنوف) كانوا الوحيدين في المحل، إذ كانت هناك عائلتان أو ثلاث في داخل المحل، إلا أنها كانت الوحيدة ربما التي قررت التوقف للحظة، ربما لأنها يئست من وصولها إلى قرار، أو ربما (وهذا أكثر رجحاناً) لأنها فكرت في تلك اللحظة التنازل عن رغبتها بشراء شال لها، وكانت قد قالت لأختها ذلك بصراحة، لو لم يظهر في تلك اللحظة من عمق المحل، من غرفة صغيرة بابها على شكل مرآة، والتي كما يبدو هي ورشة التطريز، لو لم يظهر شاب وسيم من الصعب تقدير عمره، بين الخامسة والسادسة عشرة من عمره، لبس دشداشة بيضاء وسرح شعره بعناية، يحمل بيده باكيئاً صغيراً، ويتوقف أمامها، يفتح الباكيث ويقول لها، «هذا هو الشال الذي يناسبك»، والذي ستأخذه منه بأوتوماتيكية، وتفتح فيها باندهاش لجمالها، وتنادي على أختها حُدام «هذا هو الشال الصحيح»، ثم تعين الشاب الذي وقف أمامها مبتسماً، والذي سمعته يقول لها: «مبروك»، فتشكره بخجل، قبل أن تعرف بأنه ابن صاحب المحل، وأن اسمه خالد.

منذ ذلك اليوم أصبح من النادر رؤية سارة بدون شال ملفوف حول رقبتها، مع كل يوم جديد شال جديد، بالتأكيد لم تفعل ذلك إعجاباً منها بالشالات وحسب، بل أكثر إعجاباً منها باليدين اللتين طرزتا الحواف، وكانت كلما زارت المحل على الأغلب مع أمها، طلبت من أمها أن تسأل البائع، أيّ الشالات طرزتها يدا خالد، وكانت أمها تنقل كلامها ببساطة، لم تفكر بأن ما تفعله سارة له علاقة بشؤون القلب، فابنتها ما تزال صغيرة ومن المستحيل تتخيلها تفكر على طريقة تفكير العشاق، طبعاً تنسى الأم أنها كانت أيضاً بهذه السن عندما رآها غازي الجاسي، وفكر بطلب يدها من أخيها، ربما كانت أكبر من ابنتها بشهرين أو ثلاثة، لكن هذا الولد الذي رأته مشاعل يحار ماذا يفعل لكي يرضي ابنتها كلما جاؤوا إلى زيارة المحل وعلى مدى شهرين تقريباً، على الأقل بمعدل زيارة واحدة في الأسبوع، يُخرج لها شالات من صندوق صغير احتفظ به في حجرة في عمق المحل، وكان يقول لها: «انظري هذه الشالات جاءت للتوّ من الورشة»، طبعاً لا يقول لها إنها ليست للعرض وإنه بالتأكيد احتفظ بها خصيصاً لها، يعرف بمجيئتهما على الأقل بسبب حمل الأم أحياناً لبعاءات أوصت بخياطتها أو تطريزها أو تعديلها، لا يقول ذلك صراحة، لكن احمرار وجهه وحركة يديه المرتعشتين تشيران إلى ذلك، من غير المهم إذا كانت سارة عرفت ذلك أم لا، المهم أنها هناك، حتى أصبح حضورها مع أمها على الأغلب، باستثناء مرتين فقط.

في واحدة رافقتهما أختها الوسطى حُذام وفي المرة الثانية أختها الكبرى أسماء التي زارتهما أصلاً لحمل عدة ألوان جديدة مثل تلك التي اشترتها مع سارة في أسواق التميمي في الخُبر مول قبل شهرين أو أكثر من زيارتها الثانية. لا الأم ولا ابنتها وجدن في تلك الزيارات ما هو مثير أو معيب، كانت بالنسبة لهن زيارات روتينية، حتى عندما كن يطلبين من راجو أن يأخذهن في سيارة الجي. أم. سي. الثانية للدمام، فإنهن فعلن ذلك فقط في الأيام التي عرفن بأنه لن يذهب بمهمة أعطاهها له رب عمله وسيده غازي الجاسي.

على مدى شهرين أو أكثر واطبت النساء على الذهاب إلى الدمام للتسوق في شارع الحُب، وربما تناولن وجبة غداء في ماكدونالد أو بورغير كينغ أو في كنتاكي الذي تفضله سارة على غيره، هناك يجلسن في الجناح المخصص للعوائل لمدة نصف ساعة على أكثر تقدير، قبل أن تطلب الأم من راجو أن يرجعهن إلى البيت، وفي كل تلك الأيام، كنّ يصلن في وقت مبكر قبل وصول غازي الجاسي إلى البيت، ليس لأنه يتأخر بسبب أعماله وتنقلاته، بل أكثر من ذلك بسبب جلساته في المطاعم أو بعض الفنادق، والتي أصبحت ليلية تقريباً، هناك في جلساته التي أحب أن يطلق عليها جلسات عمل، كان يلتقي بأصدقاء أو بمعارف جدد، يتحدث معهم بشؤون السوق والعمل، بعض تلك الجلسات تطول حتى منتصف الليل، وفي كل تلك الليالي حتى في حالة عودته المتأخرة كان من النادر أن يشكو من شيء، عدم وجود طعام عشاء له أو أي شيء آخر، وغالباً ما يسأله الخدم عن ذلك، خصوصاً الخادمة الهندية المسؤولة عن تنظيم أمور المطبخ والدة آشا، وكان يهز رأسه، لا، حتى إنه أوصاهم ألا يسألوه عن الأكل، الأكل في ساعة متأخرة من الليل أمر مضر بالصحة، على المرء تجنبه، سهرات غازي الجاسي الليلية منحت مشاعل من الناحية الأخرى بعض الراحة، فهي لم تعد تشغل نفسها بانتظار مجيئه لكي تطمئن من أن مائدة العشاء أُعدت له وأن كل شيء على ما يرام، على العكس تأخره حتى ساعات منتصف الليل أحياناً، جعلها تخذل للنوم مبكراً، تراه فقط في ساعات الفجر الأولى ولدقائق قليلة فقط، لأنها عندما تستيقظ للصلاة يكون هو قد انتهى من تناول فطوره الذي أعدته له الخادمة الهندية والدة آشا، وعلى مدى الشهرين الأخيرين ومنذ زيارتهن لشارع الحب في الدمام لم يختلف الأمر، حتى أصبح ذهاب النساء ومجيئهن أشبه بالروتين، لدرجة أن لا مشاعل ولا سارة ولا إحدى البنيتين الأخريين فكرن بالحديث عنه أمامه، إلى

حين عودتهن ذات يوم شتائي، قبل أعياد الميلاد بيوم على ما تتذكر سارة، لأنها في ذلك اليوم بالذات حصلت من خالد على شال لم تعتقد أنها رأت شالاً قبله بجدوته وبجماله، شال أسود لكن مطرز بخيوط زرقاء.

فرحتها بالشال الأسود الشفاف المطرز بخيوط زرقاء علقت بها خرز لونها توركواز لم تدم طويلاً، انتهت بسرعة، مباشرة بعد دخولهم إلى البيت، عندما رأت أباها بانتظارهم، جلس في غرفة الطعام وجهه إلى الباب مباشرة، ينهض ويجلس، مثل من سمع نبأ غير سار ولا يعرف ماذا عليه أن يفعل، كانت تلك هي المرة الأولى التي رأت فيها أباها في تلك الحالة، ولم تعرف أن عينيه اللتين بدتا جاحظتين، دارتا في محجريهما مثل خرزتين صغيرتين، عبّرتا عن غضب عبثاً حاول كتمانها، ففهمت لماذا قال لهن راجو وهو يفتح باب السيارة لكي ينزلن: «السيد راح يغضب هواي». وعندما حدقت به أمها بنظرة مستفسرة عن السبب، قال راجو بسرعة: «لأن كان يريدني أروح اليوم معاه بشغل». وجه أمها اكفهز هو الآخر في تلك اللحظة، فسمعت أمها تقول لحذام: «ليش خبأ الخبر علينا هذا الغبي، سيغضب، لأننا أخذنا سائقه إلى الدمام، زوجي وأعرفه، طبعا لن يقول ذلك بصراحة، سيلتف على الموضوع ويقول: كيف يأتي إلى البيت في تلك الساعة والنساء غير موجودات؟».

لم تعر سارة الحديث ذلك انتباهها قبل دقائق، لكن الآن في اللحظة التي أصبحت فيها أمام أبيها، فهمت ما عنته أمها، عندما سمعته ولخبيتها يؤنبهن كما توقعت أمها، مباشرة بعد دخولهن إلى الغرفة، راح يصب كلماته الغاضبة مثل مدعي عام أو محامي في أحد تلك الأفلام التي رأتها في التلفزيون، أمر جعلها تحزن، لا تعرف ماذا عليها أن تفعل بعد أن وقفت عند عتبة الباب، لفتها الحيرة بدوامتها، ألصقت كيس النايلون الذي حملت فيه باكيث الشال إلى صدرها، كانت خططت أصلاً أن تخرج الشال من الكيس، لكي تطلب من أبيها

مشاركتها فرحها، بل كانت نوت أن تحدّثه عن خالد، أرادت أن تقول له، إنها المرة الأولى التي ترى فيها شاباً بهذه اللطافة، ربما ستستعمل كلمة أفضل من تلك، «الجنتمانية» مثلاً، تلك الكلمة التي كثيراً ما سمعت أباها يقولها في وصفه لدانييل بروكس، لمساعدته له، كانت تريد أن تقول لأبيها، بأنها هي الأخرى عثرت على جنتمانها، بالضبط، مثلما شعرت عند رؤيتها لابن خالها ناصر، وإن شكت في ذلك، لأن خالداً له يدان ساحرتان، رأت أصابعه التي تشبه الأقلام الناعمة وهو يسلمها الشال، وعندما جلست في زاوية المحل وجلس هو أيضاً إلى جانبها، رأت يديه بوضوح، وهي حتى الآن لم ترَ يدين ناعمين لرجل مثلهما، كل الرجال في المملكة أصابعهم خشنة، مثل أيديهم، ووجوههم الخشنة، رغم أن أغلبهم لا يعمل كما تعرف، أرادت أن تقول ذلك لخالد مباشرة، لكنها تعرف أنها بنت، والبنت يجب أن تحافظ على رزانتها، كما علمتها أمها، لا تتفوّه بكلمة إلا عندما يُطلب منها ذلك، صحيح أن أمها انشغلت وأختها حذام مع الرجل صاحب المحل، وهو يدور معهما في أطراف المحل، يريهما البضاعة التي عنده، لكنها بالتأكيد ستنتبه لها إذا ما فتحت فمها ونطقت، يقيناً ستلتفت وتنظر ناحيتها بشزر، على عكس أبيها الذي لم يطلب منها يوماً أن تغلق فمها، من غير المهم المكان الذي أخذها معه إليه، لكنها ولخيبتها اصطدمت للمرة الأولى في حياتها بوجه أبيها العابس، بيديه المضمومتين، باضطرابه، نعم، بل بعصبيته، عصبية ذكرتها بشجارته التي لا تحصى مع أمها.

حتى ذلك اليوم ظنت أن أيام الشجارات ولّت إلى الأبد، فإلى أي بيت ستلجأ أمها في حالة زعلها منه؟ لقد انتهت قصة بريدة منذ انتقال أخيها يوسف الأحمد إلى المنطقة الشرقية، وحتى بيته في الخبر لن تفضل اللجوء إليه، أولاً لأنه قريب وفي المدينة نفسها، وإن زوجها سيرجعها بسرعة، وثانياً لأن أخاها الذي عرفته في الماضي ما عادت تعرفه، أصبح شخصاً آخر، في رأسه أمر واحد، تطبيق

شريعته الإسلامية على الجميع، «انظروا إلى قوة الإسلام، كيف أنها تهدي حتى العصاين رجالاً ونساء؟»، تلك هي جملة المحببة في ذلك الوقت، «فمن كان يظن أن معلمة كانت يوماً غير محجبة لا تصبح من المؤمنات فقط إنما تهدي رجلاً من أهل الذمة وتُدخله على يديها في الإسلام».

كان يقصد بالمرأة، التونسية كنزة، التي تحدثت عنها أختها أسماء ذات يوم، كيف أنها تعرفت إليها في حفر الباطن، وكيف أنها كانت متزوجة من عراقي مدير محطة راديو للمعارضة العراقية، والتي لم تكتفِ بحجابها وعملها معلمة في مدرسة في القاعدة الأميركية في الظهران، بل أصبحت أيضاً المسؤولة عن نساء «السكينة» أولئك النساء اللواتي يطفن من مكان إلى آخر لكي يهدين النساء للباس الحجاب، كما يُقال رسمياً، لا أحد يدري ما الذي حصل لها، لكي تتحول من امرأة عصرية إلى مؤمنة متزمتة دفعة واحدة، وأقله يعرف المرء الأسباب التي دعت اللويتنانت صديق أبيها وشريكه دانييل بروكس، أن يتحول إلى الإسلام، صحيح أنه في السنوات الأخيرة، منذ نهاية الحرب الأخيرة تقريباً، تغير كثيراً، أصبح أكثر غموضاً «صاحب صفات طويلة»، أو «غائباً دائماً عن المكان»، كما شكوا أبوها في بعض المرات، «خاصة بعد فقدانه لصديقه المخلص دافيد باربيرو في الحرب»، وحسب معلومات أبيها «يقولون إنه قُتل في الحرب»، صحيح ذلك، إلا أن اللويتنانت بالتأكيد لم يتحول للإسلام بسبب قوة الشريعة الإسلامية التي تحدثت عنها خالها الداعية، بل من المحتمل جداً، أنه فعل ذلك بسبب الحب؟ من يدري؟ لأنه بهذا الشكل فقط استطاع الزواج من كنزة، الاثنان يعيشان اليوم سعيدين تحت سقف واحد، وخالها لم يتوقف عن استخدام مثلهما بالضغط على الرجال الآخرين، بأخذ مثال دانييل بروكس، أو دانييل حسين كما أصبح اسمه بعد دخوله الإسلام، الذي تغير كثيراً، حتى أصبح رجلاً بشوشاً، «لا يعرف الصفات» منذ ذلك الحين، والنساء مثال المعلمة التونسية كنزة، التي كانت تمشي على

«حلي» شعرها، كما ردد مرات عديدة، والآن حجابها لا يضاهاه حجاب، «مثال الأخت المؤمنة، باركها الله»، بالتأكيد سيطلب منها هي أيضاً، أي مشاعل، أن تتحجب رغم أنها لم تعد تلك المرأة الشابة التي يتوجب عليها الاحتشام، إنها الآن جدة ومنذ سنوات لم تعد «جوهرة يجب المحافظة عليها»، كما قال ملك هذه البلاد مبرراً في معرض إجابته إلى صحيفة إنكليزية من بي. بي. سي. سألته عن سبب حجاب المرأة في المملكة وطردها من كل الأماكن العامة.

أما أبوها فقد ظنت أنه لم يعد يملك لا الوقت الكافي ولا الرغبة للشجار، كان يقضي أغلب وقته بالتنقل بين قاعدة عبد العزيز الجوية في الظهران وبين قاعدة حفر الباطن الجوية، وفي الأيام الأخيرة بين مقر قوات درع الجزيرة في حفر الباطن ومدينة خالد العسكرية هناك، توسعت أعماله، وما يشغله أكثر هو التفكير بوسيلة جديدة يوسعها أكثر، لدرجة أنه كف عن الردّ على خالها، كما اعتاد أن يفعل من قبل عندما يسمعه يغالي في أحاديثه الدينية، بل لم يتردد حتى في زيارته في الدمام في مقر هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فحسب اعتقاده «من الضروري تقديم الهدايا لموظفي الهيئة»، أموال وبضائع، رغم أنها لا تعرف ما هو المقصود بذلك عندما سمعته يقول لأمها تلك الجملة حرفياً ذات يوم.

لكن بغضّ النظر عن كل ذلك، تذكرت سارة بأنه حتى في شجاراته تلك، كان أول ما يفعله عند مغادرته غرفة الضيوف أو الطعام غاضباً، هو مناداتها لكي يخرجها معاً، كانت سارة هي ملجأه في حالة زعله، مثلما كان بيت خالها في بريدة ملجأً لأمها، الآن كما يبدو، أصبحت هي وأمها متعادلتين، فمثلما لم يعد بيت خالها مهماً، فقدت هي أهميتها عند أبيها، لم يبخل بعدم فتح يديه لاستقبالها كما فعل مئات المرات سابقاً وحسب، إنما أشاح أيضاً النظر عنها، كأنها لم تكن هناك، سواء عندما وقفت والكيس إلى صدرها عند عتبة الباب، أم عندما

تحركت بعد ذلك بدقائق وجلست على الصوفا قبالته بعد أن تعبت من الوقوف، كم تلفتت ناحية اليمين وناحية اليسار، كم حركت جسمها إلى الخلف وإلى الأمام، كأنها أرادت أن تقول له: «أبي، ها أنا هنا قبالتك حاضرة». عبثاً، لم يلقِ عليها ولو نظرة واحدة، كان منشغلاً بشتَم أمها وأختها حُذام، لم ينظر إليها هي سارة التي ظنت أن مكانتها عنده لا تفوقها مكانة، كان مخدراً بغضبه، يشتم، ولم تجد حتى ولو ثغرة صغيرة لكي تسأله عن بعض التوضيحات، ماذا جرى؟ لماذا يقول كلاماً مثل الذي قاله في تلك اللحظات، وهو يردد جملة واحدة أكثر من غيرها! «سوق الحب؟ سألهما، «تأخذن هذه البنت الصغيرة إلى سوق الحب؟»، حتى في تلك اللحظة، كان أصعبه فقط التي يحركها بإشارة لها، لا نظرة، لماذا لا ينظر إليها، إذا كان قلقاً عليها إلى هذا الحد؟ لماذا سوق الحب فاسد في رأيه؟ لماذا يعتقد أن كل المحلات هناك، هي محلات لعمل الفاحشة لا غير، «تأتي المرأة تدخل إلى المحل محجبة لا يعرفها أحد، لتدخل مع الرجل إلى خلف المحل؟». قال أبوها ذلك، وأمها تطلب منه أن يسكت، عيب أن يذكر هذا الكلام، لكنه لا يتوقف، «الثُّقبة مكان المنحرفين، مثلها مثل العدامة، مثل السوق، ومن يبيع هناك غير سكان الثُّقبة؟ ومن هم سكان الثُّقبة؟ من هم إن لم يكونوا مجرد طبقة صناع، قبائل وضيعة لا أكثر ولا أقل؟» و فقط عندما وصل إلى تلك النقطة صاحت به أمها بصوت عالٍ، طلبت منه أن يسكت، لأن «ما حدث لأختك سارة هو ليس المقياس لكل النساء»، ثم طلبت من سارة وحُذام أن تأتي معها، من الأفضل ترك أبيها مع غضبه وحده، قالت لهما وهي تصفق باب الغرفة.

في تلك الليلة عرفت سارة للمرة الأولى من أختها حُذام أن هناك قبائل يُطلق عليها بالقبائل الوضيعة، وأن احتراف الصنائع وخصوصاً النسيج، أحط عمل بالنسبة للناس في المملكة، «نحن أصولنا بدوية»، قالت لها أختها بافتخار، ثم أوضحت لها كيف أن كلمة الصانع يطلقها الناس للإهانة والتحقير، ربما ظنت

سارة أن أختها تمزح وهي تتحدث عن الصنّاع، أرادت أن تُلمح بالتأكيد إلى الشاب الصغير خالد الذي حدثها عن عشقه لمهنته، نسج العباءات والشالات وتطريزها، لذلك غمزت لها بعينيهما عندما ذكرت حرفة النسيج قبل غيرها، ولم تعرف بجديّة كلام أختها إلّا عندما سمعت أباهما يعود للموضوع بعد أيام، جلس معها وحدها في غرفة الضيوف وطلب منها أن تصغي لما يقوله جيداً، وتسجل كل كلمة يتفوّه بها في مخّها، قال لها، إن عليها أن تعرف أن بيت الجاسي بالذات ينحدرون من أنبل ممثلي الجنس البشري، لأنهم كانوا رعاة إبل في القديم، يتفوقون حتى على الحضر وأشباه البدو، كانوا أبطالاً، قال لها، وكان العمل الوحيد اللائق بهم هو الغزو وتربية الإبل والقوافل وأحياناً التجارة، ثم روى لها، كيف أن جده ذبح أحد أبنائه لأنه ولكسله فضل أن يتحول من راعي إبل إلى راعٍ للغنم، قال له: «كيف أسمح لك بذلك، وأنت تعرف أن رعاة الغنم في قبيلة بدوية كريمة مثل قبيلتنا المحترمة يشغلون مراتب وضيعة ولا يتمتعون بالاحترام، وأن تحوّل راعي إبل إلى راعٍ للغنم أو مُزارع يهبط به من منزلته الرفيعة من المستحيل عليه بعدها العودة إلى حظيرة البدو الأقحاح؟ أصولنا تعود إلى قرون طويلة، إلى عهد قبائل العرب الأولى، من سلالة قبائل عدنان وقحطان، وأنت تريد تدنيسها؟».

لم يترك أبوها لها المجال لتسأله: «لكن الله خلق الجميع بالتساوي؟» لأنه سواء في تلك المناسبة أو مناسبات شبيهة أخرى لم يترك لها مجالاً لمقاطعته أو لمجرد أن تعلّق، أيّ تعليق، كأن تسأله، مثلاً وماذا عنك الآن، أنت تمارس التجارة؟ ماذا عن خالي يوسف الأحمد؟ في أية طبقة يمكن تصنيفه هو والدعاة مثله؟ ومن يكفل أن الأغلبية من الدعاة هؤلاء لا تعود أصولهم هم أيضاً إلى تلك القبائل التي يحتقرها البدو كما قال أبوها؟ ماذا إذا كان آباؤهم رعاة أغنام أو في درجة أوطأ، مُزارعين؟ ماذا لو أرادوا عن طريق عملهم كدعاة أو في الصحوات التغطية على أصولهم؟ من يضمن أن أجدادهم لم يكونوا من تلك الطبقة التي سماها

أبوها الطبقة المنعزلة تماماً، صناعاً، بل وأحقر صناع، حدادين مثلاً؟ أليس أغلب هؤلاء الصُّناع معتوقين وأجانب، كما أكد لها أبوها؟ هي رأت العديد من الدعاة في التلفزيون، أشكالهم سود، شفاهمم غليظة، أليست تلك هي صورة العبد كما تعلمت في الشارع والسوق والمدرسة؟ أليست تلك هي الصورة السائدة بين الناس عن العبيد والمعتوقين؟ وهل هناك أوطأ درجة في المجتمع من هؤلاء؟

طبعاً في ذلك المساء لم تكن الصورة واضحة بهذا الشكل أمام عينيها، وكان يجب أن تمرّ أعوام، أن تنضج وتكبر لتستعيد كل ما سمعته من أبيها في تلك الفترة، وتدوّنه كلمة بعد كلمة وهي تكتب في الدفتر قصتها، لنفسها أولاً وحسب، قبل أن تجعل أحداً يطلع عليها، هارون والي مثلاً، كاتب رواية «الآثام الخمسة» (كما ستفعل بعد سنوات)، وما تزال تتذكر ويقوة، أن ما سمعته من أبيها آلمها كثيراً، ولقول الحق ليس حزناً على الطبقات الوضيعة أو على تلك التي تواجدت على أوطأ درجة من السلم الاجتماعي في بلادها، لأنها لو كانت بهذا الشكل لفكرت بوضع الخدم عندهم في البيت، لتحدثت معهم، سألتهم عن حياتهم، أو على الأقل لاهتمت بشؤونهم، تصحو كل يوم وتجد خادمة طُردت وأخرى جديدة جاءت، لكي لا تتحدث عن المكان الذي ينام ويأكل الخدم فيه، مكان حقير، مرة دخلت إلى خادماتهم الهندية الوحيدة التي بقيت عندهم ورأت نسيج العنكبوت في زوايا الغرفة والصراصير تنتقل بحرية في الغرفة، بعضها كان ينتزه على الفراش إلى جانب آشا، كلا، إن أشد ما آلمها كلما سمعت أباهما يتحدث بتلك الطريقة، هو حزنها على تغيّر أبيها، هل من الممكن أن تكون الحرب جعلته يتغيّر هو الآخر؟ عبثاً، أن تعثر على جواب عن ذلك، فهو لم يردد تلك الجمل وهو يصنف الناس والجنس البشري إلى طبقات عن مزاج أو عن خبرة كما يقول، كما أنها لا تريد التبرير له، لا عذر له في كل كلمة قالها، لكنها تعتقد أن أمانتها للصدّاقة هي التي جعلتها تشعر بأنها معنية بكل ما يطرأ عليه

من تغيير، الصداقة هي القلق على الصديق، قالت لها الهنوف ذات يوم، وكم كان بؤدها في كل المناسبات التي سمعت فيها أباهما يتحدث بهذا الشكل، كم تمنّت أن تكون الهنوف موجودة ولم تغب عنها كل هذا الوقت، لكي تتحدث معها عن الموضوع، ولتقول لها كم يقلقها وضعه، منذ أن بدأت تصنيفاته للبشر تتوسع بتوسع أعماله. خصوصاً وكما لاحظت، في الأيام التي يعود فيها من جولته في مقر قوات درع الجزيرة في حفر الباطن.

في تلك الأيام بالذات كانت تتفتح قريحته بشكل غير ملحوظ، «أسألوني أنا الذي أتعامل مع بشر من الهويات والملل والنحل وسأجيبكم كيف أن الناس طبقات، كان يقول: لنبدأ بالمصريين مثلاً، المصريون؟ رقاصون على دقة ونصف، ليس عندهم أخلاق، يصومون ويصلون في النهار ثم يذهبون للرقص والشرب في النوادي الليلية في المساء؛ السوريون؟ بخلاء وبلا ضمير، لا مبادئ عندهم، يتحركون باتجاه الليرة، الحذر من التعامل معهم، يلقون الواحد في الماء ويخرجونه يابساً؛ المغاربة؟ وضيعون من الصعب عليهم أن يكونوا بغير هذا الشكل، هم خليط من صناع ومزارعين، يبيعون نساءهم وأولادهم في وضح النهار؛ الجزائريون؟ رعاة أغنام جزارون وكفى؛ التونسيون؟ إنهم نساء المغرب العربي، ركبتهم كلهم وسيلة زوجة بورقوية، فكيف تريدونهم أن يكونوا في الجزيرة العربية؟ اللبنانيون؟ أعوذ بالله منهم يذكروننا بقبيلة هتيم، تسيب خلقي يبيعون نساءهم محظيات بالمليم، اذهبوا إلى جدة والرياض؛ الأردنيون؟ أحفاد الشريف الحسين لا يعرفون غير أخذ الخوة، جبناء في القتال؛ الفلسطينيون؟ من الأفضل تسميتهم فلس طين، باعوا شرفهم وعرضهم لليهود، يندبون حظهم ليل نهار يكون مثل الأرامل؛ الليبيون؟ وهل تعرف ألسنتهم نطق كلمة واحدة في حياتهم غير كلمة العقيد؟ الله الوكيل ولو ترك الأمر لهم لتركوه ينام بكل نياشينه في أسرتهم الزوجية بدونهم لكن مع زوجاتهم؛ العمانيون؟ من الأفضل أن نسكت،

خولات في خولات؛ الكويتيون؟ كيف لا يسمحون لزوجاتهم بركوب السيارة وهنّ راكبات لهم ليل نهار؟ الإماراتيون؟ ماذا أقول؟ رجالهم يذهبون إلى جنوب شرق آسيا من أجل البغايا ويتركون زوجاتهم تعمل شرطيات وحراس حدود؟ يقولون، لا خوف عليهن، لأنهن مختونات، ولا يدرون أن نساءهم مثل نباتات الأعشاب، كلما قطعت جزءاً منها، ظهر جزء جديد، ولكن لماذا نعتب عليهم، لسانهم طويل على المملكة، لكنهم أمام الإيرانيين مخنثون، جاء الإيرانيون وعسكروا في جزرهم الثلاث، دون أن يفعلوا شيئاً؛ القطريون؟ وهل تستحق بقعة صغيرة، لطفة على الخريطة كل هذا الكلام؟ انظروا إلى رجالهم المخنثين، جميع سكان قطر يمكن أن نسكنهم في فندق واحد من فنادق الدمام، في الشيراتون مثلاً؛ البحرينيون؟ بلادهم هي حنفيتان من الماء لا غير، وهي الوقاحة التي جعلتهم يطلقون عليها بحرين، هراء: البحرين ماخور للسعوديين والبحرانيون قوادون لا غير؛ اليمينيون؟ كيف يعرفون درجة الوضاعة التي هم فيها وهم مخدرون بنبتة القات ليل نهار، لدرجة أنك تجدهم يحفرون بأنوفهم حتى وهم نيام دون أن يلاحظوا ذلك؛ السودانيون؟ عبيد حتى أبد الأبدين، رغم أنهم ولقول الحق أعلى درجة من العبيد الصوماليين والموريتانيين والجببوتيين؟ شر البلية ما يضحك، كل هؤلاء الأفارقة العبيد السود يدعون أنهم عرب مسلمون، قبح الله أصولهم، لا يعرفون أنهم من أب وجد عملوا عبيداً للعرب؛ والآن لنأت للعراقيين، أهل الشقاق والنفاق، لا غيرة عندهم ولا ناموس، لكن...».

فقط عندما يصل إلى العراقيين يتوقف أبوها عند نصف الجملة كأنه ندم على ما قاله، دون أن تعرف لماذا، أقصى ما كان يقوله بحقهم، إنهم «أرض الشقاق والنفاق، لا غيرة عندهم ولا ناموس»، وإذا تعدى ذلك أحياناً، يقول «بييع الأخ أخاه»، أو «باعوا بناتهم على الكويتيين»، وكان يجب أن تمرّ سنوات أخرى لكي تعثر سارة ولو على خيط منطقي بسيط يربط شتائم تلك، لكن أيضاً لكي

تعرف سبب توقفه عند العراقيين أيضاً، على عكس ما حدث لها في ذلك الوقت، ففي تلك المناسبة مثلاً، التي أخذ أبوها لنفسه الحرية بإلقاء خطبته التي لا تبالغ إذا ما أطلقت عليها بالتاريخية، لدرجة أن حتى خالها الداعية يوسف الأحمد أصغى إليه وقد عقدت الدهشة لسانه، غير مصدق شتائم نسيبه، فهي وإن كانت هي الأخرى لم تصدق ما سمعته أذنها منه، إلا أنها ربما لصغر سنّها، أو ربما حبّها لأبيها جعلها تتحول إلى مستمعة إلى أبيها، لم تعلق بشيء كما فعلت أمها في حينه، عندما لاحظت توقفه عن الكلام، فضحكت وقالت، «والآن؟ لماذا سكت؟ هل لأن لولا هؤلاء العراقيون لما توسعت أعمالك أصلاً، وعليك أن تشكرهم، لأن لولا احتلالهم للكويت لما جاءت كل هذه الأقوام التي شتمتها وعسكروا في مقر عملك في مقر قوات درع الجزيرة؟».

طبعاً سمعت سارة بكل البلدان العربية التي ذكرها أبوها والتي أرسلت قواتها العسكرية للقتال إلى جانب قوات التحالف الأجنبية التي عسكرت عند مثلث الحدود السعودية العراقية الكويتية تنتظر إشارة الانطلاق للزحف باتجاه بغداد، لكن لا أحد في مدرستها تحدث بالطريقة التي تحدث فيها أبوها عن العرب، على العكس، لقد سمعت المديح، معلمتها قالت: «ها هم إخواننا العرب يهبون لنجدتنا ضد العدو الغاشم، وها هو حديث النبي محمد «صلى الله عليه وسلم» يتحقق: المسلمون سوية مثل أعضاء الجسم، إذا مرض عضو تداعى له بقية الأعضاء بالسهر والحمى». ترى ماذا كان فعل أبوها لو عرف أن جدّ صديقتها بالأصل وبشكل ما ينحدر أيضاً من طبقة الصناع، نساجاً؟ هل كان أبوها على سجيته كما عرفته عندما وافق على مصاحبته لصديقتها في سيارة أخويها؟ ماذا سيقول عن خالد، النساج ابن النساج؟

كان على سارة أن تنتظر ما ترويه لها أمها لكي تعرف سبب تبدل أبيها، وكيف أن تعرفها على خالد جعله يتذكر ما حدث لعمتها سارة، «قصتها بدأت بالشكل

نفسه الذي بدأت قصتك، حتى عمرها كان بعمرك نفسه، وكان أبوك يصغرها بخمس أو ست سنوات»، قالت لها أمها، قبل أن تخبرها، بأن أباها كان يسكن في ذلك الوقت مع جدها في المنطقة القريبة من منطقة الدواسر، حي الزهور على ما تظن، وهي ما تزال تتذكر البيت البسيط المبني من الطوف الذي سكنت فيه عائلة والدها الصغيرة، فبعد وفاة جدتها موزة لم يبق في البيت غير جدها وأبيها وعمتها سارة، وهي (مشاعل) لم تسكن في ذلك البيت أكثر من شهرين بعد زواجهما، لكنها كانت مدة كافية لأن تسمع النساء اللواتي سكنن في الجوار القصص التي دارت عن عمتها سارة، عشرات القصص، ربما جميعها يصح، ربما ولا واحدة، لكن بغض النظر عن مجرى القصص تلك بكل ما حوته من خبث ووشاية ونميمة، فإنها تتفق على أمر واحد وهو أن عمتها أحببت ويعمر مبكر أحد الصنّاع اليدويين، صحيح أنه لم يكن نساجاً، كما في حالة ابنة أخيها سارة، بل أسوأ: صنّاع حليّ نسائية: فهي ما إن أصبحت فتاة ناضجة وأصبح بمقدورها الذهاب إلى السوق، حتى وقعت وفي أول زيارة لها للسوق بحب فهد المنقور، وكما عرفت أمها من أبيها الذي روى لها القصة بصوت حزين، كان لا بدّ أن يكون فهد صاحب سحر خاص به، فهو يستطيع أن يحلف بأغلظ الأيمان، بأن الشاب الذي يكبر أخته في حينه بست سنوات أو أكثر حمل كل صفات القبح وافتقد لكل ما يُمكن أن يُطلق عليه صفات الرجولة، قوة الجسم وانتفاخ العضلات أو طول القامة مثلاً، كل تلك الصفات التي تغري فتاة صغيرة مثلها، كلا، فحسب قول أبيها، كان فهد المنقور اسماً على مسمى، امتلاً وجهه بحفر صغيرة كأنها آثار نقرات لصقر.

نعم، كان - مثل بقية كل الصنّاع - رجلاً قبيحاً بكل معنى الكلمة، لدرجة أن أباها وبالرغم من سنّه الصغيرة آنذاك لم يستطع تمالك نفسه من سؤال أخته، لماذا كلما ذهبنا إلى السوق زارا المحل نفسه؟ ولماذا تضحك مع الرجل

ويضحك هو معها؟ لماذا يهتم به الرجل كثيراً لدرجة أنه كان يصّر على جلوسه على الكرسي الصغير كلما دخلا إلى المحل وكان يجلب له مشروب كوكا كولا، وكان يعرف فرحته لشربه، لأن المشروب المنعش هذا كان قد دخل إلى المملكة قبل فترة قصيرة، وكان الناس يتحدثون بإعجاب عنه، عن معمل تصنيعه في المنطقة الشرقية، عن واجهته الزجاجية الواسعة التي تكشف عن المعمل ومكائنه؟ في بعض المرات لا يتردد فهد في سؤاله إذا كان يرغب بزجاجة ثانية، وإذا هزّ غازي رأسه بالنفي، ربما خجلاً منه، لأنه في دخيلة نفسه، كان يودّ العكس، فإنه سيسأله إذا كان قد أعجبتة قطعة من الحلبي؟ عليه أن يقول له ذلك لأنه سيقدمها له هدية؟

«بالتأكيد عرف فهد المنقور، أن عليه إرضاء الأخ الأصغر لعمتك في المقام الأول»، قالت لها أمها. ومن هنا جاء إصراره في أسئلته عن تسوّكك في شارع الحب. وكان على الرغم من صغر سنّه آنذاك، يشعر أن هناك ما يشد أخته لذلك الرجل، لكن ما لم تتوقعه أخته، هو أن أخاها بدأ يشعر ببعض الغيرة، وأنه وحتى لاحقاً، لحظة روايته القصة لزوجته الشابة مشاعل، ورغم مرور كل هذه السنوات، كان ما يزال يتذكر بصورة جيدة، كيف أن الغيرة التي جعلته يطلب من أخته المغادرة بسرعة كلما دخلا إلى محل فهد المنقور، وعندما رآها ذات مرة تدخل مع الصنّاع إلى الغرفة الخلفية في المحل بعد أن طلبت منه أن ينقل كرسيه الصغير إلى باب المحل وأن يصرخ بهما حالما يرى زبوناً قادماً، صرخ مباشرة بعد ثوانٍ من دخولها هناك، رغم عدم وجود زبون في ساعات الظهيرة تلك، وعندما رأى أخته تخرج حاسرة الشعر، سقطت قطعة القماش التي لفت بها شعرها، بينما انفتح زيج ثوبها وظهر صدرها، شعر بغيرة قوية، وراح يبكي ويطلب منها العودة للبيت مباشرة، وهي الغيرة ذاتها التي جعلته أيضاً يبسط كفيه أمامها ويعرض عليها يوماً أن ترى أصابعه الناعمة،

ألا ترين، سألهما، يداي أكثر نعومة من يدي المنقور، كما واطب على تسمية فهد، وهو لم يقم بتلك الحركة لو لم يكن سمع أخته تتحدث مع إحدى فتيات الجيران، تخبرها عن نعومة أصابع فهد، وكيف أنها لم ترَ صانع حلي فنان مثله من قبل، أصابعه أصابع ساحر، أقلام ياقوت؟

نعم كان يغار عليها، كانت بالنسبة له ومنذ وفاة أمه بمثابة الأم، وهذا ما جعله يشعر بالغضب أيضاً كلما رأى أحدهم يتقدم لطلب يدها من أبيه، غالباً ما دخل صالون الضيوف راكضاً باتجاه أبيه مباشرة، يفاجئه في جلسته مع الضيوف الذين جاؤوا لخطبة أخته، يرمي نفسه على صدره، يعانقه، ويهمس في أذنه أن يرفض الموافقة على زواجها، كم استشاط غضباً كلما رأى أباه أو الضيوف يضحكون عليه، كان يريد الاحتفاظ بها، هي أخته الوحيدة، ألا يخسرهما، ألا يراها مع أحد غيره، ومع مَنْ؟ مع صنّاع؟ وهي الغيرة التي نمت معه، وجعلته بعد مرور سنتين من علاقة أخته بفهد المنقور يفشي سرها، دخل إلى أبيه ذات يوم وباح له بكل ما دار في سوق الحب، لم يُصدق الأب أذنيه للوهلة الأولى، لكنه عندما طلب من ابنه أن يسكت وألا يقول لأخته بأنه روى القصة لأبيه، شعر غازي الجاسي بالخوف، عرف أن ما سيحدث بعد ذلك لن يكون ساراً، وأنه سواء شاء أم أبى، ارتكب عملاً شريراً، خان أخته التي يحبها، أفشى سرها، أراد أن يقول لأبيه، إنه كذب عليه، لكنه لا يدري لماذا انعقد لسانه، في اليوم التالي تبعهما الأب حتى محل فهد المنقور، هناك فاجأ الأب ابنته وفهد قبل أن يدخلوا إلى الغرفة الخلفية، سحب الأب ابنته من يدها، نظر بغضب إلى فهد، لم يتفوّه بأية كلمة، لكن نظرات عينيه امتلأتا بالوعيد، أمر فهمه جيداً فهد المنقور. ففي اليوم التالي عندما جاء أبوه مع رجال الحسبة وجدوا المحل مقفلاً، سألوا أصحاب المحلات المجاورة عن فهد المنقور، فقليل لهم إنه جمع عدته وحليه مساء أمس وأخبرهم أنه ذاهب لتعلم فنون النقش في بلاد البنغال، غرب القارة الهندية، رغم ذلك

فتح رجال الحسبة المحل بالقوة وحطموا كل ما وجدوا فيه، تركوه خرابة مفتوحة
يلعب فيها الصبيان نهاراً وليلاً تتجول فيها الكلاب السائبة.

فيما يتعلق بها، - بالعمة سارة - فهي ومنذ عودتهم تلك من السوق أصبح
ممنوعاً عليها مغادرة البيت، «إلى حين تقرير مصيرك»، كما قال لها أبوها. لكن
كان من الصعب على غازي نسيان نظرات أخته الحزينة، كلما تطلعت إليه، لم
تغضب منه، فهي بالتأكيد حدست بما حدث، صحيح أنها لم تؤنبه أو تسأله،
لماذا فعل ذلك، لكنها في كل سلوكها عبّرت عن أسفها، أنها سببت له كل هذا
الحزن لدرجة أنه أخبر أباه عنها، ذلك ما شعر به كلما تطلعت إليه أو عند
بكاؤها، صحيح أنها أبقّت على مسافة صغيرة بينهما، أحاديثهما شحّت، إلّا أن
الاثنين كانا يعرفان أن ساعة فراقهما قادمة. وهذا ما حدث ذات صباح، عندما
طلب والد غازي من ابنته أن تنهض في ساعة مبكرة من الفجر، لأنهم سيسافرون
ثلاثتهم إلى حفر الباطن، ذلك هو الحل الذي عثر عليه أبوها، تزويجها بالقوة من
ابن عمها الذي سبق لها وأن رفضته عشرات المرات، تزوجت سارة من سلمان
الإبن الأصغر لعمها المقيم في حفر الباطن.

كان يوماً أسود بالنسبة لغازي، فهو لم يعرف أنه بهذا الشكل لم يعجل
بزواجها فحسب، بل دفع بها للسكن في مدينة تبعد عنه مئات الكيلومترات. في
ليلة سفرها إلى حفر الباطن احتضنته للمرة الأولى بعد انفضاح قصتها، قالت له
وهي تمسح دموعه، عليه ألا يبكي، فهي سامحته على وشايته بها، الغريب - كما
روت الأم لسارة نقلاً عن أبيها - هو أن عمها لم تبك أو تصرخ ليلتها، لم يعرف
هو في حينه ما كانت أخته نوت عليه، وكيف أنها على العكس من ظنون أبيها
وجدت في زواجها من ابن عمها سلمان الوسيلة التي تقودها للخلاص من سجنها
في البيت، لم يدم زواجها أكثر من يوم واحد. ما إن وصلت مع أبيها إلى حفر
الباطن، حتى انسَلت وقبل أن يدخلوا إلى بيت عمها من موكب العرس، دسّت

نفسها وسط الحشد واختفت كأنها لم تكن هناك، عبثاً بحثوا عنها، لا أثر تركته وراءها باستثناء ثوب العرس الذي عثروا عليه مرمياً على الأرض بعد انفضاض موكب العرس، لم تظهر عمتها سارة بعد ذلك الحين، بعضهم قال إنها هيأت نفسها لذلك اليوم، لبست ملابسها العادية تحت ثوب العرس، وإنها ما إن سنحت لها الفرصة فنزعت ثوب العرس وغادرت المكان مع موكب المحتشدين، بعضهم قال إنه رآها تسير حافية في اليوم التالي عند أطراف حفر الباطن على الطريق، قالت له إنها ذاهبة باتجاه الصحراء باتجاه وادي الرمة لكي تدفن نفسها هناك بين جبل قطن وحبيته جبل طمية كما روت الأساطير عن تشكل ذلك الوادي بعد انخساف الأرض وفراق الجبلين الحبيبين عن بعضهما، البعض الآخر يدعي أنها تعيش في حفر الباطن وأنه رآها تعمل مع المهريين هناك، البعض الآخر يقول إنها وليس غيرها المرأة التي تنتظر السيارات ليلاً على الطريق وتغري سائقها بالذهاب معه دون أن يعرفوا أنهم سينتهون إلى مقبرة قريبة، بعضهم أشاع أنه رآها تبيع الحلبي النسائية مع صانع يدوي قبيح.

قصص كثيرة قيلت فيها لم يشأ غازي تصديقها، بل لم يشأ أن يأخذها بأمر الحسبان، باستثناء قصة واحدة طبعاً جعلته لا يغمض له جفن وهو صغير، القصة التي تقول، إن فهد المنقور سمع بزواجها، وإنه هو الذي تنكر بهيئة بائع عسل (مربي نحل خاص للعrsان)، ودخل إلى موكب العرس لكي يقنع زوجها سلمان ببيعه عسله، قال له إنه عسل خاص من مناطق جبال الرس، لا بد أن يجربه العrsان، هو سلمان الذي طلب منه، أن يبيع العسل هذا على زوجته سارة أيضاً، بعد ذلك لا أحد يعرف ما جرى، سوى أن سارة هربت معه مباشرة بعد ذلك، وهي منذ ذلك الحين تعيش مع فهد المنقور رغم أنها لا تزال بدمة ابن عمها سلمان، تنتقل معه من سوق إلى آخر في أرجاء المملكة يبيعان الحلبي المصنعة يدوياً.

تلك هي القصة وليس غيرها التي جعلت غازي الجاسي لا يغمض له جفن منذ ذلك الحين، ظل يفكر بها طوال كل هذه السنوات، حتى عندما روى القصة لمشاعل زوجته، القصة هذه بالذات، قال لها، تجعله يغلي غضباً، كلما سمع أقاويل الناس، وكان زواجه من مشاعل مناسبة له لكي يطلب من أبيه الانتقال من الحي الذي سكنوا فيه حتى ذلك الحين، كان يريد أن ينسى، وكما قالت مشاعل لسارة، إنها سمعت أباها صدفة يقول لوالده وهما جالسان وحدهما في غرفة الضيوف: «حان الوقت يا والدي لأن ننتقل، لا أريد أيضاً أن تعرف مشاعل زوجتي بالقصة»، فقال له الأب: «إذا كنت تقصد أختك سارة فأنت تعرف، أنها ماتت بالنسبة لي منذ سنوات طويلة، وغيره لا أدري عن أية قصة تتحدث؟». وعندما أعاد غازي الجاسي موضوع الانتقال على أبيه مرة أخرى، قال له الأب: «أنا بنيت البيت هذا لبنة فوق لبنة، أمك ماتت هنا وأنت تريدني أن أنتقل إلى الخُبْر؟ ما يصير هذا إلا على جثتي! كانت الخُبْر بُنيت للتو مع مجيء شركة آرامكو، وكان أبوك مصراً على ترك الحي»، قالت مشاعل لسارة. ثم روت لها، كيف أنها لم تشأ أن تكون سبباً في شقاق العائلة، وهذا ما قالته بكلام صريح لزوجها، قالت له: «يصعب عليّ أن أكون السبب بالفرقة بينك وبين والديك»، فقال لها غازي: «إنه تعب من سماع الموضوع، أينما ذهب في المقهى في السوق في العمل، في كل نظرات الناس أشعر باتهام الناس وتعييرهم لي، خلاص الانتقال هو الحل الوحيد». والآن، قالت لها الأم وهي تتطلع إليها: أبوك يخاف أن تتكرر القصة نفسها التي حدثت لعمتك، أن تحب ابنته أحد الصناع». تلك الجملة التي ختمت بها الأم حديثها، وقعت على رأس سارة بقوة، يقيناً أرادت الأم وعن طريق كل ما روته لسارة التأكيد على أهمية ما ترويه، وهذا ما جعل صوتها يحمل تلك النبرة الوعظية القوية، من غير المهم أن تكون القصة التي شغلت أباها صحيحة أم لا، من غير المهم أن تكون عمتها ما تزال على قيد الحياة وتعيش مع فهد المنقور

بالفعل، بل من غير المهم، إذا كانت هي الأم نفسها لا تريد التصديق أن ابنتها هي الأخرى وقعت في حب صانع يدوي، هذه المرة: نساج؟

سنتان أو أكثر بقليل ظل الاثنان، غازي الجاسي وابنته سارة يناوران كل واحد منهما على طريقته في معركته مع الآخر، ومن ناحيته هو بذل كل ما في وسعه للتأثير على ابنته لكي يجلبها إلى صفّه، كما فعل معها وهي صغيرة. في المرحلة الأولى عمل لها بطاقة «كرديت فيزا» في البنك، قدّمها هدية لها في عيد ميلادها الرابع عشر، قال لها، إنه فتح لها حساباً في البنك، وإنها تستطيع التسوق في أسواق التميمي أو في الخُبر مول ما تشاء، سقّف بطاقتها مفتوح، وعليها ألا تفكر بثمان الأثواب والفساتين، والعمّور والماكياج، والأحذية والأكسسوارات، بل وصل به الأمر أن يشتري لها بنفسه العطور الثمينة والأحذية التي على مقاس قدميها، ومن أحدث الموديلات: شانيل وكوجي وكريستيان ديور وإيف سانت لوران وبرادا، بل وجلب لها المجلات المتخصصة بالموضة، قال لها: «انظري كل هذه الموديلات الحديثة القادمة قبل أيام من باريس تحت تصرفك، فقط قلّي أنت وتحصليين عليها فوراً».

في العطلة الربيعية التي تلت عيد ميلادها ذلك، جاء إليها يحمل تذاكر طيران إلى مدينة أنتفيربين، قال لها وهو يلوّح بالتذاكر مع أوراق الحجز في فندق الموفين بيك هناك، إنه منذ سنوات لم يذهب في الإجازة، وإنه يريد أن يذهب معها إلى ذلك الميناء البلجيكي، وإن مفاجأة تنتظرها هناك، لم تكن تلك أول رحلة بالنسبة له خارج حدود المملكة بل بالنسبة لها أيضاً، لكنها كانت إحدى تلك الرحلات المنظمة أهداها له حقيقة اللويتنانت الأميركي دانييل بروكس أو دانييل حسين، ردّاً على كرمه معه طوال كل هذه السنوات، قبل أسبوع من ذلك سمعه صديقه، يقول متأففاً، كيف أنه يتس من العثور على هدية لابنته سارة لعيد ميلادها الرابع عشر، «يجب أن تكون هدية خاصة جداً، نادرة مثل

بنتي»، كما قال بعربية فصحة اعتاد الحديث بها مع صديقه، منذ أن تعلم دانييل بروكس اللغة العربية، في البداية ولمرحلة قصيرة على يد سارة، ولاحقاً على يد زوجته كنزة طبعاً، وبعد أسبوع من حديثهم في مقر عمله الجديد في مقر قوات درع الجزيرة، سلمه «دانييل، الله يذكره بالخير» المظروف هذا، قال له: «خذ المظروف، ستجد فيه كل ما تحتاجه، تذاكر الرحلة وورقة الحجز في الفندق، كل المصاريف مدفوعة مقدماً، اذهب مع سارة إلى أنتفيربين، مدينة بورصة الديامنت، هناك ستعثر بالتأكيد على الهدية الخاصة التي تبحث عنها»، قال له: «إنها هدية مني لا تعادل كرمك وكرم سارة معي، كل هذه السنوات». عانق غازي صديقه دون أن تُصدق أذناه ما سمع، نعم بورصة الديامنت، فهل هناك أحسن منها؟

في أنتفيربين وعلى مدى الأسبوع الذي حجزه لهما دانييل بروكس طاف غازي الجاسي معها من محل إلى آخر، في اليومين الأولين كلفته زيارة المحلات الجهد الكثير، كان عليه أن يبلع خوفه، ليس لأنها رحلته الأولى إلى خارج المملكة، بل لأنها المرة الأولى التي يرى فيها يهوداً في حياته وجهاً لوجه، لم يعرف كيف يتصرف وهو يرى هذا العدد الكبير من اليهود يلبسون الملابس الدينية التقليدية، لُقوا جدائل عند شعورهم ولبسوا القبعات، بعضهم تدلّت من ملابسه خيوط بيض رفيعة، منظر غريب بالنسبة له، وإذا كان يمكنه غضّ النظر عن رؤيتهم وهم يمرّون به في شوارع المدينة، فكيف يمكنه القيام بذلك عندما يزور محلات الديامنت أو الألماس، وأن كل أصحابها من اليهود؟ مرات لم يستطع تمالك نفسه، فراح يتمتم ويستعيد «من شر الشيطان الرجيم»، ولم تعرف سارة، إذا كان قصد بالشيطان اليهود أم قصد نفسه هو، لأنه حاول تمالك نفسه وألا يرتكب فعلاً مشيناً ضد اليهود الذين يمرّون به، ولحسن حظه إن سارة التي رأت ارتبাকে قالت له في اليوم الثاني أو الثالث من إقامتهما في أنتفيربين، بأنها ترى

في عينيه استغراب ورفض منظر اليهود المؤمنين هؤلاء؟ لماذا يعتقد أن منظرهم غير طبيعي ومنظر رجال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طبيعي؟ ألا يلبس رجال الهيئة الدشاديش القصيرة؟ ألم يطلقوا هم الآخرون شعورهم على شكل ضفائر تحت الغترة واليشماغ؟

ربما فكر في اليومين الأولين بالعودة إلى المملكة، لكنه ما إن فكر بأنه جاء إلى هذه المدينة من أجل هدف واحد، شراء حلي من الألماس لسارة، ولا يهمله إذا سكنها يهود أو مسيحيون، كفار أم سكان فضاء، المهم أن يُرضي سارة، أن يجعلها تنسى سوق الحب وشالات وعباءات «الأصيل»، وكل تلك الملابس التقليدية، وأنه على استعداد للقيام بكل شيء، شراء هدية نادرة مثلاً تدخل السعادة إلى قلبها، حتى إذا كان ثمنها خيالياً، المهم أن تنسيها النساج خالداً، كما اعتقد عندما اشترى لها قطعة ألماس على شكل قلب صغير، نعم، إنه على استعداد أن يذهب إلى المريخ على أن يفقد ابنته مثلما فقد أخته سارة، كم يخيفه تكرار ما حدث، أن تسير البنت على خطى عمتها، وفي كل ما قدّمه لها حاول منحها الانطباع أنها ابنته المدللة الوحيدة التي لن يتخلى عنها أبداً، وهذا ما حاول البوح به لها أثناء عودتهما وهما جالسان في الطائرة، قال لها، كم يرغب أن تقول له، أين تريد الدراسة في الخارج، وكم حزن عندما سمعها تجيبه: «الدراسة في الخارج كانت أمنية قديمة بابا، ذهبت مع ذهاب صديقتي الهنوف».

«الهنوف قصة ثانية» قال لها، وكم ندمت أنها لم تسأله في حينه «ماذا تقصد بقصة ثانية؟ هل تعرف شيئاً وتخفيه عني؟»، ربما خافت أن تسمع ما لا تودّ سماعه، فعلى الأقل عدم معرفتها بمصير صديقتها، يجعلها تأمل عودتها يوماً، ربما هذا ما جعلها تفكر بدل ذلك بإجابة أخرى، قالت له: «لا تحزن يا بابا، عندنا في المملكة أفضل الجامعات»، فأجابها بنبرة حزينة بجواب فاجأ به هو

ذاته نفسه، «أشك»، لكن بالرغم من تلك النبوة لم يشأ غازي الجاسي الاستسلام في حينه، قال لها: «أنت الآن في الصف الرابع ثانوي، بعد سنتين وتنتهين من الدراسة الثانوية، بالتأكيد راح يتغير رأيك».

طبعاً لم يتغير رأيها، لا في تلك السنة ولا في السنة التي تلت، وكان على غازي الجاسي أن ينتظر عيد ميلادها السادس عشر، في ذلك اليوم حجز صالة للاحتفال بالمناسبة في فندق الشيراتون، وعندما ظهرت سارة وسط الحفل بشال جديد طُرزت حافته بخرز زرق مثلما طُرز في وسطه اسم: شالات الأصيل، عرف غازي الجاسي أنه خسر معركته مع سارة إلى الأبد، في ذلك اليوم فاجأ نفسه للمرة الأولى، أنه لم يسمّ ابنته سارة تيمناً بأخته لأنها تشبهها وحسب، بل إنه فعل ذلك لأن صوتاً داخلياً قال له في حينه إن ابنتك ستسير على خطى عمته وإنه مثلما قاد عن طريق وشايتيه بأخته ذات مرة إلى حتفها، دمغ ابنته بالمصير نفسه، منذ أن أطلق عليها هذا الاسم: سارة. وإن أشد ما سيغضبه هو أن يفشل بإنقاذ ابنته أيضاً، وإنه إذا لن يتصرف بسرعة ستضيع منه ابنته إلى الأبد.

في الليلة ذاتها وبعد الانتهاء من حفل عيد الميلاد، ووداعه الضيوف، قالت له، إنها تكره الحفلات، وأولها حفلات عيد الميلاد، طلب غازي الجاسي من سائقه راجو أن يوصل العائلة إلى البيت، أما هو فتوجّه في سيارة جي. أم. سي. إلى بيت حميّه الداعية يوسف الأحمد، طرق عليه الباب في تلك الساعة المتأخرة من الليل، فخرج له هذا في دشاشته القصيرة، وقبل أن يسلم عليه، بل وقبل أن يلبي دعوة حميه ويدخل إلى صالون البيت، قال له وبحزم: علينا تزويج سارة، اليوم قبل الغد.

ما لا يعرفه الاثنان، صاحب شركة الأحلام للتجهيزات غازي الجاسي والداعية المطلق ورئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المنطقة الشرقية يوسف الأحمد في جلستهما تلك وهما يرسمان المصير الذي على سارة أن تنتهي

إليه، أن الفتاة «المضلة» هذه كما وصفها الاثنان بالتناوب كأنهما اتفقا للمرة الأولى في حياتهما على إرجاع تفاهمهما وصدقاتهما القديمة، أن سارة هذه لم تعد تلك البنت الصغيرة التي يمكن التحكم بمصيرها بسهولة، وأنها منذ أن جاءتها العادة الشهرية قبل أكثر من ثلاث سنوات، عرفت كيف تدير معاركها الأخرى، في المدرسة أو في الشارع، في المدينة أو في السوق، وأنها في كل ما فعلته لم تفعل شيئاً غير أنها لبّت نداء الحواس، وأنه لا عمّا بكل ما حملة من قوة وجبروت سلطة ودين، بكل رجال الحسبة والهيئة الذين خضعوا لتصرفه ولا أبوها بكل ما حمل من ثروة ووسائل إغراء يستطيعون ثنيها عما نوت عليه، إنها تعرف ما تريد وإن الطريق الذي قررت السير عليه يخصّها هي وحدها، إنها هي التي تختار الشاب الذي تحب وحسب، بل هي التي تقرر أيضاً متى وكيف، وإذا شاءت الخروج مع أحد أو مغالزته، مبادلته القبلات أو النوم معه، فإن القرار يعود لها وحدها، لا أحد غيرها، حتى خالد لا يقرر ذلك، نعم، إنها لا تستطيع أن تخفي شعورها نحوه، ميلها إليه، إعجابها به، لكنها لا تستطيع أن تعدّه بحب أبدي، هذا ما قالته لخالد أكثر من مرة، إنها تحبه منذ سنتين، لكنها وفي كل المرات عندما ترى شاباً يعجبها تضغط على نفسها بقوة على رغبتها بمغالزته.

مرات عديدة استحضرت وهي تمارس العادة السرية، صورة شباب آخرين، شباب تعرفهم أو مروا بها بشكل عابر، وكلما قررت التوقف عن حك بظرها، ربما لشعور بالذنب إزاءه، شعرت بأن هذا الشعور بالذات هو ما يجعل بظرها يصبح أكثر تصلباً، أكثر سخونة بالدم الذي تدافع هناك، فتروح تسرع في تمرير أصبعها عليه كأنها تريد الإسراع قبل أن تُسلم نفسها لشعورها بالذنب الذي يحملها على التوقف عن الحكّ، خالد يقول لها: «هذا هو الحب، أن يعجبك شباب آخرون، لكنك أخيراً تأتين لي، تفضلينني عليهم»، ربما كان على حق، ربما لا، وهي تعرف أنه بكلمة «الحب» يقصد الزواج فعلاً، وهي لا تفكر بالزواج،

وإذا فكرت به فقط لأنه الوسيلة الوحيدة التي تفتح لها «الطريق»، أن تنتهي من الغشاء، رغم أنها سمعت في المدرسة ومن طالبات زميلات لها يكبرنها طبعاً بالسن، أن الغشاء لم يعد مهماً، يمكن خياطته، هناك امرأة هندية عجوز، مشهورة في الثُّقبة متخصصة بعمليات الإجهاض السرية ورقع غشاء البكارة، بل يمكن شراؤه في الفترة الأخيرة، ولو ليس بشكل علني تماماً، إلا أنه يُباع في الأسواق، في البحرين بشكل خاص، أيضاً في حي الزهور في الدمام، صحيح أنه غشاء بكارة اصطناعي تصنيع الصين، لكنه فعال له فعالية الغشاء التقليدي ويمكن لصقه في داخل المهبل، لكن رغم ذلك القضية بالنسبة لها ببساطة، هو أن الغشاء يزعجها، ولا تريد تسليمه إلا لمن تحبه، ولكن لماذا كلما اختليا في الحجرة الخلفية لمحل بيع العباءات والشالات في أوقات الظهيرة (عندما يكون خالد وحده وتغلق جميع المحلات بسبب وقت الصلاة من الثانية عشرة وحتى الثالثة ظهراً) وكلما حاول خالد نزع ملابسها، كانت توافق شريطة ألا تقترب يده من نزع اللباس الداخلي، نعم يستطيع أن يتحسس بيديه فرجها، يداعب بظرها، لكن من فوق اللباس، ممنوع عليه رؤية فرجها الحليق أو نزع لباسها، لماذا تمنعه إذا كانت تحبه؟ لماذا لا تريد تسليمه الغشاء؟ هل جاء امتناعها عن خوف أم من قلة ميل؟ كيف كانت ستكون علاقتها بخالد لو لم يبدأ أبوها في الستين الأوليين، ثم عمها بعد زيارة أبيها له، لو لم يبدأ بالضغط عليها، بعدم زيارة محل «أنسجة الأصيل»، وبقطع علاقتها بهذا «النساج»، كما أطلقوا عليه! ماذا لو أنها ما كانت أصرت على علاقتها مع خالد، لو لم تكن سمعت أباها وخالها يلفظان مهنته باحتقار، خصوصاً خالها الذي كان بعد نطقه لتلك الجملة يبصق، أحياناً يبصق حتى وهو في صحن البيت، فتضطر إلى تنبيهه أن البصاق ينقل العدوى وأن النظافة من الإيمان، كما شدد رسول الإسلام! هل هي الرغبة بالعناد والمقاومة هما اللتان جعلتاها في تلك الأيام تصرّ على اختيار

رجل واحد، رجل واحد لا غير، اسمه خالد، من دون كل أولئك الشباب المغرین الذين مرّوا بها، كل أولئك الشباب الذين هتفوا باسمها عند رؤيتهم لها في الخُبر مول أو في أسواق التميمي أو وهي تتجول عند الكورنيش؟

لا تدري، ولا تريد أن تدري، لا تريد البحث عن جواب، المهم أن تواصل تحدّيتها وليكن ما يكون، حتى عندما جلس معها الاثنان في اليوم التالي من حفلة عيد ميلادها الخامس عشر تلك في صالون البيت، يخبرانها بأن زواجها أصبح على الأبواب أو «أصبح قراراً نافذ المفعول» حسب قول خالها، كأنه في حديثه عن زواجها تحدث عن إحدى قرارات هيئته التي أشرف على عملها، لم تجد غير جواب على ذلك تتحدى به الاثنيْن: «ومَنْ سيكون صاحب الشرف هذا؟»، سألتهما وهي ترفع رأسها بتحدّ، ليأتيها الجواب: «مَنْ سيكون غيره: إنه ابن خالك، ناصر».

ربما بدا الحماس الذي ظهر على خالها يوسف الأحمد غريباً لمن يعرفه، لكن أباه الذي كان مخدراً بنشوة الانتصار، بنشوة الوصول إلى هدفه الذي أراده وهو أن تنتهي من علاقتها بالنساج خالد عن طريق هذا الزواج، لم يفكر ولو للحظة واحدة بالأسباب التي جعلت يوسف الأحمد يوافق على هذا الزواج ليس بهذه السرعة وحسب، بل إنه طلب من زوجته أن تخبر ناصرًا ابنيهما بأنه على استعداد لطّي صفحة الماضي، وأنه سيساعد ابنه في كل ما يتطلبه الزواج من مصاريف، حتى البيت، قال لزوجته، سيشتريه لناصر إذا شاء، ولكي يطمئنهما، قال لها إنه تحدث مع الشركة المشرفة على بيوت إسكان الخُبر الجديد بهذا الشأن، على الجهة الجنوبية من الحي، وحسب ما عرف منهم، ما يزال في الحي الجديد هذا العديد من قطع الأراضي التي لم يُبنَ فوقها حتى الآن، وإن أصحاب الامتيازات وحدهم الذين يستطيعون شراء قطعة أرض هناك، طبعاً أخبار مثل هذه أفرحت أم ناصر أيضاً، فتلك كانت أمّيتها منذ سنوات طويلة، كم حلمت

بعودة ابنها ناصر تحت رضا أبيه، بل كم حلمت أن يتزوج وتصبح عنده عائلة، أن يسكن مع عائلته في مكان قريب منها، وأن ترى أولاده، أحفادها وقتما تشاء، ناصر هو ابنها الكبير والذي كُتِبَ عليها أن تخسره مبكراً، ليالي طويلة بكت لتلك الخسارة وندبت حظّها العاثر الذي جعلها تتزوج من رجل قلبه لا يلين، وها هو اللّهُ يستجيب إلى دعائها ويجعل زوجها يعود إلى رشده يسامح ابنه ويساعده في زواجه مثل بقية الآباء الآخرين، لكنها ولخبيتها لم تعرف مثلها مثل أختها، بل حتى مثل سارة وناصر، أن رجلاً مثل يوسف الأحمد من غير الممكن أن يفكر بطريقة سوية مثل بقية الآباء، وأن كل ما ينويه يسير وفق مخطط رسمه بعناية، مخطط لا يمكن أن ينتهي إلّا إلى الهدف الذي وضعه نصب عينيه، ويخيب ظن من يعتقد أن الداعية يوسف الأحمد يفصل بين عمله في الهيئة وبين سلوكه اليومي حتى كأب ورب عائلة، كلا، وظيفته في الحياة هي مثل وظيفته في الهيئة، إنه كما قال عن نفسه ذات يوم، داعية على مدار الساعة، ليل نهار، في كل عمل يقوم به أو سلوك، لا يهمه أيّ طريق ملتوية يلجأ إليها من أجل تحقيق هدفه حتى في هذه المرة، فهو لم يبيد ممانعة من زواج ابنه ناصر إلّا - كما يقول المثل - لغاية في نفس يعقوب، إذ ما إن رأى سارة تنهض من جلستها بعد سماعها فكرة الزواج وتغادر الصالون، حتى اقترح يوسف الأحمد على أخته مشاعل أن تلتحق بابنتها وتغادر هي الأخرى الصالون، قال لها، إنه يريد أن يتحدث حديث رجال مع غازي، وكان يمكن أن يتوقع غازي الجاسي من حميه أن يسمعه أيّ شيء باستثناء أن يقول له بصوت حازم، بأن شرطه الوحيد قبل مباركته النهائية على هذا الزواج هو عرض سارة على نساء الهيئة، لكي يفحصن عذريتها.

كلا، لم يتوقع غازي الجاسي أن خال ابنته بالذات يشك بعفة وبكارة ابنة أخته وينطق بجملته تلك بكل هدوء، دون أن يتنحج، دون أن يرفّ له جفن، وكان عليه هو الذي مثل من طعن بشرفه، عليه أن يهضم الإهانة، أن يجمع قواه، أن يضم

قبضته ويطماسك، ألا يخرج عن طوره ويرتكب حماقة تُفسد عليه فرحته بزواج ابنته، بانتهائه من قصة النِّساج، وبدل أن يغضب وأن يطلب من حميه مغادرة البيت، قال له بصوت باغت به نفسه، بصوت هادئ هو الآخر، «كل ما تريده يا يوسف يصير على مرامك»، ثم طلب منه أن يمنحه مهلة يومين، لكي يفكر بطريقة بإقناع سارة في الأمر، طبعاً لن يقول لها تلك الجملة بنفسه، سيترك الأمر لأمرها تقوله لها على طريقته، النساء يفهمن بعضهن بعضاً، قال بصوت شبه مفعوج، ولم يفهم الفرحة التي ارتسمت على وجه حميه وهو يسمع الموافقة على هذا الاقتراح.

بعد يومين من تلك الجلسة، دخلت سارة إلى هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما كانت تتطلب إجراءات الفحص. كانت تلك هي المرة في حياتها التي دخلت فيها المبنى الضخم المقسم إلى قسمين، الرئيس للرجال عند الشارع العام والفرعي للنساء عند البوابة الخلفية، من تلك البوابة دخلت سارة بصحبة الخادمة الهندية آشا، أوصلهما سائقهم راجو حتى البوابة، رفضت أن تصاحبها أمها، قالت لها، سأنتهي من القصة وحدي، ولولا رفض الأم القاطع أن تذهب وحدها، لما قالت لها في النهاية، حسناً سأخذ معي آشا، ولم تفهم أمها سبب إصرار ابنتها على الذهاب وحدها، مثلما لم تفهم موافقتها السريعة على الاقتراح، وهي منذ أن أخبرها زوجها غازي الجاسي بالشرط العجيب الذي وضعه حموه، وهي تفكر بالطريقة التي ستخبر بها ابنتها، تعرف عناد سارة وفورة غضبها، طبعاً لم تشك بعذريتها يوماً، صحيح أنها فتاة طائشة، لكنها ابنتها وتعرفها، ولو كانت غير ذلك لكانت لاحظت الأمر منذ زمان، طبعاً توقعت كل شيء من ابنتها باستثناء أن يأتي رد فعلها بعد سماعها الاقتراح على شكل ضحكة رنانة، قالت لها: «عظيم، من الضروري الحصول على الشهادة الفخرية هذه، خاصة وأنها تأتي من هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، الشق الثاني من الجملة نطقته بطريقة مسرحية مفخمة.

كانت تلك هي المرة الأولى في حياتها التي شعرت فيها الأم بالخوف على سارة، موافقة سارة وبسرعة على الذهاب إلى الهيئة أضاف لها الكثير من الغموض وكأنها نسيت أن ابنتها جُبلت على التحدي وأن اقتراح خالها لا يخيفها، أمر يصعب على غيرها فهمه، وأقله على موظفة الاستعلامات في الهيئة التي جلست مثل شبح أسود وراء منضدة سوداء هي الأخرى والتي لم تعتقد أنها ستسمع في حياتها فتاة تقول لها بكل هذه الصراحة: «أنا هنا لأن خالي أراد فحص بكارتي»، فقط صوتها المرتعش وصل إلى سارة، وهي تبلع ريقها وتتنحنح، «خالك؟ مَنْ هو خالك؟»، «مدير الهيئة الشيخ الداعية يوسف الأحمد» قالت لها سارة بنبرة مفخمة لم تخلُ من الإلقاء المسرحي، و فقط عندما رأت سارة المرأة ترتد إلى الكرسي بجذعها كأنها بوغتت بالجواب، فقط عندما رأتها تجلس صامتة لثوانٍ قليلة ثم لتنهض من مكانها وتغادر الغرفة حتى دون أن تطلب منها الانتظار، عرفت سارة أنها تسرعت بالموافقة على المجيء إلى هنا، وهذا ما تأكد لها أكثر عندما رأت الموظفة المحجبة الشبح تدخل إلى الغرفة من جديد، هذه المرة بعزم وبخطوات ثابتة، لتطلب منها ودون أن تنبس بكلمة أن تصاحبها، ثم لتشير لأشأ بالبقاء في مكانها والانتظار هناك.

لبرهة شعرت سارة برجليها ترتعشان، بقواها تخور، وعندما أصبحت في نهاية ممّر مظلم لم يلمع فيه غير ثوبها الأزرق، وعندما دخلت إلى غرفة مظلمة، وعندما رأت المرأة تقف عند سرير في زاوية الغرفة شرشفه بيض برقت وسط العتمة، وعندما رأت المرأة تتقدم ناحيتها تسحبها من يدها وتمدها على الفراش، وعندما رأت المرأة تباعد بين فخذيهما تسحب لباسها الداخلي بهدوء، وعندما رأت المرأة تنهض وتقف في زاوية الغرفة البعيدة، وعندما رأت شبحاً أسود جديداً يقترب بهدوء لكن بخطوات حازمة من السرير، قبل أن ينحني عليها ويجلس عند قدميها بالضبط على حافة السرير، وعندما

رأت هذا الشبح بالذات يباعد بين فخذيها قبل أن تتحرك يده باتجاه فرجها المحلوق، وعندما شعرت بأصابع الشبح تمسد فرجها بهدوء، في الوهلة الأولى مسدت الشفرين الخارجيين ثم الشفرين الداخليين، بهدوء كأن كل هدوء أو وقت العالم جلبه الشبح معه، وعندما شعرت بأصبع الشبح الغليظ يدخل فتحة فرجها بغتة، عرفت أن كل ما حدث لها في مبنى الهيئة وفي الغرفة المظلمة تلك حتى الآن جرى وفق مخطط متقن: تمزيق الغشاء، ربما شكت في الوهلة الأولى، ربما ظنت أنه خوفها الذي جعلها تذهب في ظنونها إلى هذا الحدّ، وأنها مجرد هواجس هجمت عليها بسبب الظلام، لكنها عندما شعرت بلزوجة دم التصقت بفخذيها، عرفت أنها لم تخطئ بظنونها وأن عليها أن تنتظر ثواني قليلة فقط لكي تعرف أن الشبح الذي جثم عند قدميها وأدخل أصبعه في فرجها قبل لحظات، أن الشبح الذي وقف عند رأسها ثم شمّر عن ذراعيه مثل مَنْ يقبل على الوضوء للصلاة قبل أن يرفع سبابته التي التصق بها الدم أمام وجهها بإشارةٍ للندير، أن الشبح هذا الذي أطلق قهقهة عالية، قهقهة متشفية، وهو يقول لها، الآن بإمكانك الزواج ممّن تشائين، إن الشبح هذا هو ليس غير شبح الشيخ، خالها: الداعية يوسف الأحمد.

زواج سارة

المرّة الأخيرة التي رأت فيها سارة ناصراً كانت قبل ست سنوات، عندما زارهم مع أمه لكي يساعده أبوها بعبور حدود المملكة باتجاه البحرين، وها هو يعود من هناك بعد تلك السنوات شاباً أنيقاً، ظهر عليه الاتزان، وكما عرفت أنه أنهى دراسته في الهندسة الكهربائية، وهو لم يزر المملكة منذ أن تسلّم أبوه مهمة الإشراف على هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المنطقة الشرقية، حتى أمه عندما كانت تشتاق إليه، كان عليها أن تزوره في مكان إقامته في العاصمة البحرانية، المنامة، وكان على غازي الجاسي في كل تلك الزيارات أن يصحبها حتى تعبر الجسر وتصبح في البحرين، وكان ناصر على دراية بحجم المغامرة التي كانت تقوم بها أمه، كانت تحمل معها البطاقة الشخصية لعمته مشاعل، وكان غازي الجاسي يعبر معها بصفته المرافق الذكر أو المحرم كما يطلق عليه السعوديون والذي لا بدّ من وجوده بصحبة المرأة عند سفرها إلى خارج البلاد، ولأن حرس الحدود لا يطلبون من النساء الكشف عن وجوهن، خاصة وأن التهديدات المسلحة أو الاضطرابات لم تكن قد وصلت إلى حدود المملكة بعد، كانت الحيلة تنطلي، كانت الأم تعرف أن ابنها لا يستطيع عبور الجسر، لأن اسمه موجود في سجلات حرس الحدود بأمر من أبيه، لكن لا الأم ولا ابنها شاءا الدخول بمعارك جديدة مع يوسف الأحمد، خصوصاً من جانبه،

هو ناصر الذي لم يعد موجوداً بالنسبة لأبيه، كم حاولت من طرفها إقناع ابنها بالعودة، قالت له، سأرسل شخصيات معروفة من الهيئة أو الحكومة لكي يتحدثوا مع والدك وترجع، «أريد أن أراك مع زوجة وأطفال يا ولدي»، قالت له، لكن عبثاً حاولت، قال لها: «كلا يا أمي، أنا وأبي قطبان لا يلتقيان».

في زيارتها الأخيرة له، في بيت الطلاب في المنامة، فاجأها بخطته بالانتقال إلى لندن مع صديقه طارق، وعبثاً حاولت أن ثنيه، لأنه كان قد اشترى تذكرة الطائرة وحزم حقائبه، أخبرها كيف أن صديقه طارقاً هياً كل شيء وإلا لكان لزاماً عليه بعد الانتهاء من دراسته الجامعية وحصوله على شهادة التخرج العودة إلى المملكة أولاً للانتهاء من كل الترتيبات البيروقراطية المتعلقة بتصديق شهادته أو تجديد جوازه أو الحصول على الفيزا البريطانية، لكن صديقه طارقاً يعرف أحداً يعمل في السفارة السعودية في لندن، ابن عمه، اسمه أنور، لكن لقبه يختلف، العولقي، رتب لهما كل شيء، وهو ما إن سمع بهوايتهما الاختراع حتى تحمس لجلبهما إلى لندن في كل الأحوال، لدرجة أنه اتصل بهيئة البعثات وحصل لهما على بعثة دراسية، وهو ابن العم نفسه، الذي وفر لهما أيضاً فرصة للعمل هناك، أوصاهما أن يتصلا به ما إن يصلا إلى لندن.

طبعاً حزنت أمه للخبر، لكنها من الناحية الأخرى فرحت، لأن الفرصة سنحت لها لوداعه قبل رحيله إلى بلاد الغربية، «لندن»، كما قالت له أمه وهي تقبله قبل الرحيل. في اليوم التالي وصل طارق وناصر إلى لندن، كل شيء جرى على ما يرام، وعن طريق أنور حصلنا على فرصة عمل في سفارة المملكة في لندن، وإلا ما كان عرف الاثنان كيف سيتدبران أمرهما بعد ذلك، لأن المنحة التي حصلنا عليها كانت مثلها مثل أية منحة رسمية أخرى في المملكة لمدة عام فقط، كان الراتب الذي حصل عليه الاثنان سمح لهما بالعيش ببخوذة لا بأس بها، أجر الصديقان، طارق وناصر، شقة صغيرة في حي نوتينغ هيلل في مركز المدينة، لكن ناصرأ وطوال

إقامته في لندن حافظ على علاقته بأمه، واطب على الاتصال بها تلفونياً كل يوم جمعة، ولولا أمه لما عرف ما يدور في المنطقة الشرقية من حين إلى آخر، نعم كان يقرأ الصحف السعودية والعربية التي عندهم في السفارة، مثلما كان يتابع نشرات الأخبار، لكن تظل للتفاصيل الصغيرة التي دارت هناك في المملكة لها نكهتها الخاصة بها، وهي أمه التي كانت تزوده بأخبار التفاصيل هذه كل جمعة، خصوصاً التفاصيل المتعلقة بعمل أبيه وبالمصير الذي انتهى إليه أغلب إخوته من أبيه، تسعة عشر أحياناً من زوجات أبيه الثلاث قبل أمه، لا أحد يعرف إلى أين ذهبوا، قالت له أمه، وكان بودّه أن يقول لها، إلى أين يمكن أن يكونوا قد ذهبوا إن لم يكن إلى الباكستان؟ لكنه كلما أراد فتح فمه ارتد لسانه في فمه مثل صمام، لماذا عليه أن يشغل أمه بهذا الموضوع، يكفيها الوضع الذي فيه ولو عاد الأمر له لطلب منها الالتحاق به في لندن، لكنه يعرف أن بعض الأمانى في المملكة غير قابلة للتحقيق، مثل أمنية أمه بعودته إلى المملكة والعيش مثلما يفعل بقية الناس، كما قالت له ذات يوم، لكن كيف يقول، إن هذه التفاصيل الصغيرة التي ترونها له عمّا يدور هناك تجعله لا يفكر بالعودة في وقت قريب، وهو كلما سمع تلك التفاصيل زاد رفضه للعودة، ومع الوقت أصبحت الإقامة في لندن هي الأمر الطبيعي الوحيد، على عكس ما كانت عليه الحال في البحرين، وإنه بالفعل لأمر غريب، لأن الناس تشعر بالغبرة عادة كلما أصبحت المسافة التي تفصلهم عن أوطانهم أكثر بعداً، لكن ما هي الأوطان؟ ما هي المسافات وكيف تُقاس؟

صديقه طارق قال له، إن عملهما في السفارة جعلهما لا يشعران بالغبرة، السفارة في النهاية هي البلاد مصغرة، وهو يعتقد العكس، أن عمله في السفارة جعله يحب لندن أكثر ولا يستبدلها بمدينة أخرى، وكما يعتقد، أنها مسألة وقت وسيتحرر من العمل الروتيني هذا، ففي النهاية هو لم يصبح عبثاً مهندساً

كهربائياً. وهذا ما خطط له بالفعل، تقديم استقالته في نهاية هذا العام والبحث عن عمل له علاقة بهوايته القديمة، الاختراع، لم ينس ذلك، طوال كل هذه السنوات، حتى في سنوات دراسته في جامعة المنامة لم تتوقف محاولاته في الاختراع، ومن زار قسم الطلاب الذي سكنوا فيه أو حديقة بناية كلية الهندسة كان سيجد كل المكائن والأجهزة الصغيرة التي خرجت من بين يديه، كان رئيس الكلية فخوراً به مثله مثل مدير الأقسام الداخلية، كان يقول له، سنضع على كل قطعة اسمك وسنوات إقامتك عندنا، وسيأتي اليوم الذي نرجع لك هذا الدّين، ولم يعرف ناصر ماذا كانوا يعنون، فهو وفي كل ما قام به من اختراعات ظل أميناً للطفل ناصر الذي كانه ذات يوم، ناصر الطفل الذي أدمن على الاختراع، كيف ينسى ذلك؟

طبعاً عمله في السفارة وبسبب ما كان يبعثه فيه من إرهاب لم يمنحه الوقت الكافي للتفرغ لاختراعاته، فقط في نهاية الأسبوع، ثم إن المواد الأولية التي كان يحتاجها غالية في لندن، وكان يضطر أحياناً للذهاب إلى أسواق الهنود، ساوث هول أو أكتون تاون لكي يشتري من الباعة هناك بعض قطع الخردة فروش، ولولا حماس ابن عم صديقه طارق، أنور العولقي لما استطاع شراء بعضها. في كل يوم سبت كان العولقي يزورهما في شقتهما ويشجعهما على الذهاب لشراء ما يحتاجانه من قطع غيار، حتى في تلك الأيام التي لم يرغب فيها بالخروج بسبب المطر أو البرد مثلاً، كان يقول لهما، عليهما ألا يفكرا بالمال، سيوفر لهما كل ما يحتاجانه، وإذا كان الأمر طبيعياً لطارق، لأن العولقي ابن عمه ولا عيب في تسلّم المال منه، كان الأمر بالنسبة لناصر غير مريح، كان يتقبل مساعدته على مضض، في البحرين كانت الأمور أسهل، ليس لأن قطع الغيار التي كانا يحتاجانها أرخص بل لأن اختراعاتهما كانت أبسط، الآن بدأت الاختراعات تكبر وتتعقد، وهو يخشى أن يأتي اليوم الذي لن تسع فيه شقتهما للأجهزة والمعدات، لكن

من الصعب على صاحب الوجد التوقف عن وجده، وهذا ما جعل أيامهما هو وطارق تأخذ منحي آخر، كان يقسمان العمل والواجبات بينهما، فعندما يذهب أحدهما للسوق يقوم التالي بترتيبات المنزل، وحتى فيما يتعلق بالاستقالة من العمل في السفارة، قال ناصر لطارق، قدّم أنت الاستقالة، وأنا أبقى أعمل في السفارة إلى حين عثورك على العمل الذي يناسبك، لا بدّ لأحدنا أن يعمل، وإلا كيف سنعيش، لندن مدينة فاحشة الغلاء، ولا أريد أن نعيش على رحمة ابن عمك العولقي، وكان صديقه يقول له أنت على حق، هذا ما فكرت به أنا أيضاً، فمباشرة ما إن يحصل صديقه على وظيفة جديدة، حتى يطلب منه أن يقدم استقالته من العمل. تلك كانت خطة الاثنين، أو تلك كانت خطته على الأقل وكان فرحاً بتحررها نسبياً من رحمة العولقي الذي أصبح بالنسبة له مثل كابوس، يتدخل في حياتهما في كل صغيرة وكبيرة.

لكن في يوم الجمعة الماضي، عندما اتصل بأمه، قالت له: «حسناً اتصلت يا ولدي، وإلا لكنت اتصلت بك» ثم أخبرته بما حصل في البيت، عرف أن كل ما خطط له الصديقان، أو ما خطط له هو على الأقل انقلب على عقبيه، عليه إعادة النظر فيه، «هل تتذكر ابنة عمك سارة؟» سألته أمه، لتخبره كيف أن أباهما يصرّ أخيراً على زواجها به، لم يعرف كيف يجيب أمه فهو فكر بكل شيء باستثناء أن يتزوج ذات يوم، ومن من؟ من ابنة عمته سارة، ليس لأنه اعتاد عليها، لعب معها وكانت بمثابة أخت صغيرة له، بل لأنه لا يريد إلحاق الضرر بها، الزواج مسؤولية، قال لأمه، من الصعب عليه تحقيق هذه المهمة في هذا الوقت، ما تزال أمامه مئات الأفكار للاختراع، «ثم ماذا ستصنع سارة هنا في لندن؟» قال لأمه، ثم أكمل، فلو كانت أكملت الدراسة على الأقل لتحدث مع العولقي مضطراً، لكي يحصل لها على بعثة دراسية على الأقل لكي تعيش السنة الأولى بدون مشاكل، لكنها ما تزال في الصف الرابع الثانوي؟ فأجابته أمه: «لا عليك، أبوها غازي

الجاسي مصرّ على زواجها منك، وأنت تعرف الثروة التي يملكها، شركة الأحلام التي يملكها أصبحت الشركة رقم واحد للتجهيزات في المملكة، لكن بغض النظر عن ذلك»، قالت له، بأنها نفسها، تبارك هذا الزواج، وستساعده مالياً وقتما يشاء، «منذ زيارتنا لهم أنا وأنت قبل ست سنوات وأنا أتمنى من كل قلبي أن تتزوج سارة»، قالت له: «هل نسيت أن غازي الجاسي له فضل عليك، فمن غيره ساعدك بالذهاب إلى البحرين؟ كيف تردّ طلباً له؟».

لم تخفِ أمه عنه، كيف أن الأمر إذا تعلق بأبيه وحده لما شجع على هذا الزواج، لكن إصرار غازي الجاسي ثم إصرار أخته مشاعل، عمته والدّة سارة أجبره على القبول، وحتى ذلك الحين لم يفهم ناصر لماذا هذا الإصرار، طلب من أمه أن تمهله بعض الوقت للتفكير، كان ذلك أكثر ما يمكن أن يفكر به في تلك اللحظة، كان ما يزال يملك في داخله شعوراً غامضاً إزاء صديقه طارق، شعوراً لا يعرف كنهه أو لنقل شعوراً لم يتبلور بعد، وهو هذا الشعور الذي جعله يعتقد أن ارتباطه بشخص جديد سيبعده عن صديقه، كل هذه السنوات وهما معاً لم يفترقا عن بعضهما، ولا يعرف كيف سيوضح لصديقه ما أقدم عليه، بالتأكيد سيكون الزواج هذا بمثابة خيانة لصداقة الاثنيين، رغم أنه لا هو ولا صديقه يستطيعان تعريف العلاقة التي ربطتهما، الغريب أنه لا هو ولا صديقه تحدثا عن نية أحدهما بالزواج يوماً، حتى في أحاديثهما عن المستقبل كانا يتحدثان عن علاقتهما ببعضهما، كأن بقاءهما إلى جانب بعض كان أمراً مفروغاً منه، يخصهما وحدهما وحسب، هذا ما قالاه للعولقي ابن عم طارق، الذي يكبرهما بست أو سبع سنوات والذي لفت نظره ارتباط الاثنيين مع بعض ليل نهار، قال لهما: «حتى التوأمين يتصرفان بطريقة مختلفة، إلا أنتما»، الآن وفجأة تدخل عليه ابنة عمته سارة على الخط.

قال له صديقه ما إن سمع الخبر منه، لماذا يُحمل القضية أكثر من وزرها،

فهذا الزواج كما يفهمه زواج مدبر، وهو لإنقاذ البنت لا غير، أغلب العائلات تصرّ على زواج بناتها فقط عندما يكون حدث للبنت ما هو ليس على ما يرام بالنسبة للعائلة، أن تكون أحببت شخصاً ترفضه العائلة أو أن تكون فقدت عذريتها، «لا تقلق، ابنة عمك ستفهم أن زواجك بها هو حالة إنقاذ وليس زواجاً مثل بقية الزيجات، لا واجبات عليك ولا هم يحزنون». ذلك ما قاله له صديقه بالحرف الواحد. فطمأنته له بهذا الشكل جعلته يتصل بأمه بعد يومين، قال لها، إنه عائد إلى المملكة لكي يساعد ابنة عمته بالخروج من المحنة، ربما كان تردد قليلاً، ربما فكر بثني سارة عن الزواج، ربما فكر بصعوبة أن يفهما بعضهما بعضاً والحديث بصراحة في هذا الموضوع.

لكن ما إن وصل إلى المملكة واتصل بها في التلفون، وما إن اتفق معها على الخروج معاً، وما إن رآها للمرة الأولى بعد سنين تجلس قبالة على العشب عند كورنيش الخُبر، حتى شعر بحميمية غير مألوفة، طريقتها في الحديث، جلستها، حركة يديها وهي تحرك العباءة، نبرة صوتها الواثقة وهي تلقي بجملها، كل شيء فيها بدا له مألوفاً، وإن كل ما عليه أن يفعله هو ليس الإصغاء إليها فقط وهي تروي قصة لو كان سمعها من فم فتاة أخرى لما صدقها، إنما عليه أن يمنحها وهو يتطلع إليها هذا الشعور الذي يقول لها بأنه يصدق كل كلمة تقولها، وهو يعرف أنها تعرف ذلك، وإلاً ما كانت روت له كل شيء، ربما بدت نبرتها واطئة عندما أخبرته بما حصل لها في مبنى الهيئة، ربما ترددت مثله هي الأخرى بالبوح بكل شيء أمامه، فهي في النهاية لم تلتقي به منذ سنوات طويلة، لكنها عندما تطلعت إليه مرتين أو ثلاثاً، خصوصاً في المرة الثالثة عندما ركزت النظرة عليه، أصبحت نبرة صوتها واضحة، سواء في علوها أم في الغضب الذي بثته في ثناياها، اعترفت له بأنها مهما روت من القصة فإنها على يقين أن ليس هناك مَنْ يصدقها، سيقولون إنها كذبت، فهل من المعقول أن خالك الداعية

والشيخ الكبير يرتكب هذا الفعل المشين؟ وعندما سألتها لماذا فعل والده ذلك، أجابته بأنه انتظر بالتأكيد ليلة عرسهما لكي يكتشف ابنه كيف أن العروس التي تزوجها لم تعد بكرًا ويرجعها إلى أهلها مثلما يفعل الرجال مثله في هذه الحالة، إنه أراد تدميرها لا غير، لكي يغضب عليها أبوها، ويحكم عليها بالسجن في البيت، أو يقتلها إخوانها، ثم أخبرته، بأنها كلما قلبت الأمر في ذهنها، لا تعرف سبباً آخر، لماذا فعل أبوه ذلك، وأنها كلما تذكرت ذلك اليوم المشؤوم، الذي لحماقتها، سلمت نفسها فيه بطواعيتها، سيطرت عليها الرغبة بالتقيؤ، لدرجة الشعور بالاختناق، قالت له وقد حمل صوتها نبرة منكسرة كأنها هيأت نفسها إلى فترة صمت قصيرة، ربما بسبب الجملة التي قالتها له بعدها، أخبرته، كيف أنها في كل المرات وكلما ارتسمت هيئة يوسف الأحمد أمامها فكرت بأمر واحد، هو قتله، نعم قتله، قتله، كررت تلك الجملة أمامه.

كانت تلك اللحظة الوحيدة التي شعر بأنها لم تنظر إليه، رآها تخفض بصرها وهي تبوح بذلك، كأنها تجنبت نظرات الشك التي بثتها عيناه، كأنها تقول لها، عمّ تحدثين؟ إن واحدة مثلها لا يمكن لها أن تقتل يوماً، ربما هي تلك النظرات الحميمة، التي جعلتها تشعر هي الأخرى بحميمية إزاء ناصر، وما شجعها بالتأكيد على الحديث معه بصراحة حتى في تبريرها لعدم إقدامها على قتل أبيه، قالت له: إن الأمر الوحيد الذي منعها من تنفيذ ذلك هو حبها لخالد، وإنها لم توافق على الزواج إلا على مضض، إنها تعرف أن ابن خالها ناصرًا سيتفهمها، سيحترم حبها لحبيبها، وهي تقول له ذلك، ليس لأنها لا تكن ودًا له أو لا تجد فيه الموصفات التي تتمناها كل فتاة في عريسها الجديد، على العكس، فهي ومنذ زيارته الأخيرة لهم قبل مغادرته للبحرين تكن له كل ما يتخيله من الود، له مكانة خاصة عندها، مكانة اختلط فيها الاحترام مع الحب، لا تدري كيف تصف له ذلك، لكن أمرًا واحدًا عرفت من قبل وتأكد لها وهي تجلس معه على العشب

عند الكورنيش، أن ناصرأً مختلف عن بقية إخوانه التسعة عشر، ناصر هو ليس غير أبيه، ناصر فيه البذرة ذاتها التي حملها معه في كيس الولادة، بذرة التصرف بحرية بدون إجبار، السير على الطريق الخاص، وهي تقول له ذلك، لأنها مثله تعرف ماذا تريد، يستطيع الزواج بها، وهي لن تمانع بذلك، لكن عليه أن يعرف في الوقت نفسه، أنها صحيح ستكون زوجته، بل زوجة حريصة على تنفيذ كل ما تتطلبه الحياة الزوجية منها، لكن مشاعرها، وقلبها، ستكون في مكان آخر، حيث يكون حبيبها خالد، من غير المهم القرار الذي سيتوصل إليه، فإنها تشكره من صميم قلبها، أنه سمح لها بأن تبوح له بكل ما تريد.

إن حديثها المفتوح هذا ما جعل الفتاة التي رآها ناصر في المرة الأخيرة صغيرة وعمرها تسع سنوات والتي أصبحت فتاة يافعة جاهزة للزواج كما يقول الناس، تصبح أكثر من امرأة ناضجة كبيرة أمام عينيه، صحيح أنه لا يستطيع تصنيفها في مكان معين، أن تكون الأخت أو الزوجة أو الصديقة، إلا أن أمراً واحداً أصبح له في حينه بحكم المؤكد، هو أنه هو وهذه الفتاة ارتبطا منذ ذلك اليوم بالمصير نفسه، كأن الاثنين هو وسارة ولداً مربوطين بحبل سرة واحد، وأن من الصعب فصلهما عن بعض الآن، هي الأخرى شعرت بذلك، ذلك ما قاله له حدسه، ولم يبقَ أمامه غير توضيح طريقهما بعد الآن، وهي المعرفة التي جعلته يقول لها بصوت واضح، بثقة العارف بكل شيء، بأنه هو الآخر سيكون أكثر حيث يكون صديقه طارق، فما يربطه بصديقه يصعب عليه تعريفه، لكن قلبه يقول له إن علاقته بصديقه منذ الطفولة هي فوق كل شيء، رغم ذلك، قال لها، إن عليها الاعتماد عليه، لها ما تريد، قراره من قرارها، سواء شاءت البقاء في الحُبر أم المجيء معه إلى لندن، سواء أبقيت علاقتها مع خالد أم قطعها. إنه مثلها سيقوم بكل ما تتطلبه شكلية الزواج من مستلزمات، الأمر الوحيد المهم الذي عليها أن تعرفه، قال لها في ذاك اليوم الخريفي الجميل قبل أن ينهض وينفضا ما علق

بهما من عشب ويتجها صوب البيت، قبل أن تتلامس يداهما برقة لثانية واحدة أو اثنتين، أو ربما ثلاث، قبل أن تسري في جلدهما رعشة كهربائية قصيرة، ليس لها علاقة بتلك الرعشات التي يجلبها تلامس جسد أنثى بجسد رجل، بل لها علاقة أكثر بتضامن أولئك الذين يشعرون بأنهم مطاردون، قال لها وبصوت حنون، عليها أن تعرف، أن زواجهما شكلي، يساعدان بعضهما بشكل ما، وإذا اضطررا للنوم في غرفة واحدة فإنهما لن يناما على السرير نفسه، وأقله أنهما سيمارسان الجنس!

في ربيع عام 1996 تزوجت سارة ناصر بن يوسف الأحمد، وكان لها من العمر خمسة عشر عاماً ونصف تقريباً، كان زواجاً غريباً في كل الأحوال، جاء على عكس ما خطط له خالها الداعية يوسف الأحمد، على الضد من كل تصوراته، من أين كان للداعية أن يعرف أن الاثنين، ابنه وابنة أخته، العروس والعريس سيتفكان على تحويل العرس إلى مناسبة لأخذ الثأر منه بطريقة أخرى، بل سيكون العرس بالنسبة لهما بداية لمعركة طويلة معه، معركة سيستخدمان فيها كل ما يقع تحت أيديهما من سلاح، كأنهما انتظرا كل هذه السنوات مناسبة مثل هذه، مرات ففكر هو الآخر بقتل أبيه، وإن لم يبيع بذلك لأحد حتى لصديقه طارق، وكان كلما استحوذت عليه تلك الرغبة بقوة، شعر بالخوف لدرجة أنه كان يصلي ركعتين أو ثلاثاً لطرده تلك الفكرة، كلا، القتل، كان يقول لنفسه، إنه لم يُخلق يوماً للقتل، مثله مثل سارة، «اطردي فكرة القتل من رأسك»، قال ناصر لسارة في طريق عودتهما بعد مغادرتهما الكورنيش باتجاه البيت، وحتى إذا أُلحِتَ عليها تلك الرغبة أن تفعل كما فعل ناصر ذات يوم، أن تصلي ركعتين أو ثلاثاً، وهو لا يقول لها ذلك عن خبرة وحسب، بل لأنه يمكن أن يعتقد بكل شيء باستثناء أن تملك هي مؤهلات قاتلة، ولكي يطمئنهما بأنه يقف إلى جانبها، قال لها، هناك طرق عديدة لأخذ الثأر من أبيه، فهو يعرف الغيظ الذي تشعر به، الحنق الذي يضايق صدرها، الغضب الذي يفور في دمها، لكنه من الناحية الأخرى واثق بقدرتها على قتله

بطريقة أخرى، أبي ومهما أبدى من جبروت هسّ قابل للاستفزاز، قال لها بنبرة هادئة وواثقة، وكانت هذه النبرة فضلاً عن لمسة أصابعه الرقيقة وهو يلامس بها كتفها ما جعلها تصغي إليه، تأخذ كل كلمة منه على محمل الجدّ، ليس في ذلك المساء وفي الأيام التي تلت، وطوال أيام الأسبوع التي بقي فيها عندهم، بل حتى في مكالماته التلفونية معها لاحقاً من لندن خلال الستة شهور التي استغرقتها التحضيرات للزواج، وما بدا للوهلة الأولى أحاديث روتينية بين شخصين يحضران للعرس، تطور في النهاية إلى خطة ليس للثأر من الداعية يوسف الأحمد بل أكثر من ذلك وضع شيخ يدعي الوقار مثله، وبهذه المكانة الاجتماعية، موضع السخرية والاحتقار.

في البداية اقترح ناصر عليها أن ينتظرا مدة أطول، بضعة شهور حتى يتزوجا، لأن حسب رغبة أبيه (وأبيها طبعاً) كان يجب أن يتمّ الزواج فوراً، قال لها، تلك هي النقطة الأولى من الخطة التي عليهما تجربتها، الوقوف بوجه أبيه، نجاحها سيشرحها على الذهاب باقتراحاتهما أبعد، بالفعل لم يحتج لا الكثير من الوقت ولا الكثير من الحجج لكي يقنع أباه بفكرته، قال له، تنفيذ الزواج بهذه السرعة سيجعل الألسن تتناقل الكلام غير المريح، وكيف يسمح رجل في مركزه ومقامه أن يُقال عن زوجة ابنه كلاماً سيئاً، علينا أن ننتظر ستة شهور على الأقل، ثم عليه ألا ينسى، أن ناصرأ يعمل في سفارة المملكة في لندن، أهم سفارة للمملكة في خارج البلاد، بعد سفارتها في واشنطن، وأنه يحتاج التحضير للإجازة، بلع الأب القرار على مضض، وكان عليه أن يحتمل خروج سارة مع النساج خالد، وهي التي لم تعد بكرأ، لكن ما لا يعرفه يوسف أن ذلك الأمر لم يشغل سارة، لأنها أصلاً اتفقت مع ناصر على خياطة بكارتها، قالت له بأنها ستذهب إلى امرأة هندية متخصصة في هذه المجال، بيتها في حي الثُّقبة، وعندما سألها لماذا تفعل ذلك، فهما في النهاية لن يناما مع بعض؟ أجابته بأنها تعرف بأن ظهور دم على

المنديل أو على شراشف الفراش بعد ليلة العرس شر لا بدّ منه، ولهذا السبب عليهما الاحتفال بليلة العرس في وقت مجيء عاداتها الشهرية، لكنها إذا خاطت بكارتها فإنها إنما تفعل ذلك لنفسها ولا تريد للصدفة التحكم بمصيرها، «ماذا لو أُضربت العادة في ليلة الزفاف؟ ماذا لو طلب أبوك من إحدى نساء الهيئة التأكد من بكارتي قبل ساعات من ليلة العرس؟ كلا»، قالت له، «لا العادة يمكن الوثوق بها ولا أباك». فمثلاً لا يمكن الوثوق بمجيء العادة دائماً بالوقت المضبوط من الصعب التكهن بسلوك ثعلب مثل أبيه، لهذا السبب عليها أن تأخذ كل الاحتياطات، إشهار عدم بكارتها أمام الملاً نهاية لها ولأبيها، يجب التصرف على الضد مما يتصورُ أبوه، تخيل كيف سيكون وجهه عندما يعرف أنها ما زالت عذراء بالفعل؟ عندما يرى دماً على المنديل؟ بالتأكيد سيكون ذلك بداية لزعة إيمانه، لا تظن أنه سيفكر بوجود عيادة طبية في المملكة وأقله في المنطقة الشرقية التي تقع تحت سيطرته المباشرة، لرتق البكرات، كلا، سيفكر أن الله أراد ذلك أرجعها بكرّاً على الضد من رغباته، رغم أصابعه التي عبث فيها، وهي لهذا السبب تريد أن تحضر الحفلة شخصيات كبيرة من المنطقة الشرقية، ليس من هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحسب، بل من القاعدة العسكرية الأميركية في الظهران، يجب أن يكون أجنب في الحفلة، تلك هي مهمة أبيها طبعاً، أن يدعو أصدقاءه وشركاءه بالعمل هناك، أريد أن أرى وجهه وهو يرى المنديل.

كان ناصر يضحك لسماعه اقتراحاتها، يتخيل هو الآخر وجه أبيه، ليس لرؤيته المنديل وحسب بل أن تكون حفلة بهذا العدد من المدعوين، فالعرس الذي ظنه حدث بالقوة رغم أنف ابنة أخته سيتحول إلى حقيقة أمام عينيه، إلى مناسبة للاحتفال، فهو وحتى يوم وصول ناصر إلى مطار الظهران، منذ سماعه خبر موافقته على الزواج بسارة، كان يظن أن الزواج سيتم في حلقة عائلية صغيرة وسيكون مناسبة للحزن أكثر منها للفرح، ولم يظن أن العريسين سيصرّان

على تنظيم احتفال كبير، خاصة أنه سمع ذلك من ابنة أخته ذاتها تقول لأبيها بأنها تريد حفلة كبيرة في فندق شيراتون الظهران، حفلة لا يحضرها شخصيات نافذة في المملكة والمنطقة الشرقية على وجه الخصوص، بل يدعو لها ما تبقى من أصدقائه الأميركيين في القاعدة الأميركية وفي قاعدة حفر الباطن، للأسف غادر اللويتنانت دانييل بروكس مع زوجته التونسية كنزة إلى بلاده، وإلاً لكان دعا الاثنين، نعم، حفلة زواج استثنائية، تريد أن تُحييها فرقة موسيقية كبيرة، أن يغني فيها مطربون عرب كبار، أليس غناء هؤلاء له علاقة بالفلوس؟ فهل يبخل أبوها بدفع 60000 ألف دولار ثمناً للحفل الذي يطلبه كل واحد من هؤلاء أجراءً؟ أما النساء المدعوات، قالت له، سيريّن الحفلة في القاعة المنفصلة على مونيتور كبير، فندق شيراتون عنده أحدث القاعات.

لم تنزل كل تلك الأخبار مثل الصاعقة على يوسف الأحمد وحده، بل هو الآخر غازي الجاسي فغر فاه من المفاجأة، مثله مثل حميه عجز عن فهم ما يدور، وعلى عكس مشاعل أم سارة وأم ناصر اللتين رأتا في حماس سارة وناصر والإصرار على الحفلة وخصوصاً جلب مطربين معروفين عربياً تعبيراً عن فرحتهما بالعرس، وجد غازي الجاسي ويوسف الأحمد أن هناك ما هو مريب في الأمر، خاصة يوسف الأحمد، وعندما عرف عن طريق نسيبه أن العروس سارة طلبت تنظيم مسابقة جمال في حفلة عرسها أيضاً، زار صديقه للاستفسار عما يدور في ذهن ابنته، فأوضح له هذا، أنه هو الآخر لا يعرف، لكن سارة أكدت له أن المسابقة ستكون بين فتيات محجبات بالنقاب فقط، لا يفهم طبعاً ماذا يعني كل ذلك، لكنه إذا عصر رأسه فلن يجد فيه غير بقية طيش في عقل ابنته، دون أن يعرف، أن ما يقوله لن يبعث الطمأنينة في قلب نسيبه، لأن يوسف الأحمد وفي كل ما سمعه، لم يشأ تصديق أن العريسين يتصرفان بصورة طبيعية، لأنه نفسه لا يعتقد أن هناك شخصاً ما في العالم لا يتصرف حسب خطة أو قانون.

وُزعت الدعوات وحُدد يوم الاحتفال، وباستثناء العريسين سارة وطارق، لم يعرف أحد لا من المدعوين ولا من عائلتهما، بأن الحفلة التي ستبدأ في مساء يوم من أيام الربيع ستكون حديث الناس إلى سنوات قادمة أخرى، لأنها المرة الأولى التي يحضر فيها مدعوون بهذا العدد إلى حفلة عرس، شخصيات رسمية من الحُبر والدمام والظهران، موظفون كبار من الهيئة، ضباط أميركان في القاعدة الجوية في الظهران وفي مدينة خالد العسكرية في حفر الباطن، ضباط سعوديون أغلبهم ضباط مباحث، كما أنها المرة الأولى التي تُنظم فيها مسابقة جمال، وبدل أن تكون فتاة الاستعلامات في هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي عريفة الحفل في قاعة النساء كما طلب يوسف الأحمد وجدت نفسها ما إن أصبحت على المسرح تتفاجأ بسماع صوت عريف الحفل في قاعة الرجال (لبناني أرسله من العاصمة الرياض المقاول اللبناني رفيق أبو ديغول هدية لغازي الجاسي رداً على دعوته له بحضور حفل العرس التي تعذر حضوره لها بسبب انشغاله بالانتخابات البرلمانية في بلاده) يعلن أمام الحاضرين وهو يعرض صورتها بكامل حجابها ونقابها على مونيتور كبير، بأن المرأة المؤمنة هذه التي ترونها على الشاشة واقفة على منصة قاعة المدعوات والتي هي موظفة الاستعلامات في هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المرأة المؤمنة هذه أيها السادة اختارها العريسان لكي تكون ملكة جمال المنطقة الشرقية وعندما صفق الحاضرون وصرخ بعضهم طالباً منها نزع النقاب هرولت المرأة إلى خارج الصالة وهي تنادي «الله أكبر» ثلاث مرات، كما أنها المرة الأولى وأمام حشد ضخم من الشخصيات يطلب فيها عريف حفل عرس (عريف الحفل ذاته)، وتلك سابقة فريدة من نوعها أيضاً في تاريخ الأعراس، من الضيوف الانتباه لأن المفاجأة التي ستكون في آخر فقرة قبل أن يختم المطرب حفل المساء، تلك المفاجأة هي ليست غير هدية صغيرة تريد العروس أن تقدمها بنفسها إلى عمها، والد

العريس، ولو لم يجد الداعية يوسف الأحمد نفسه في وضع محرج لكان غادر القاعة مباشرة بعد خروج موظفة الاستعلامات، لأن ما حصل لموظفة استعلامات الهيئة المؤمنة التي لا تفوقها امرأة بالإيمان، والتي اختارها بنفسه لوظيفتها تلك، هو إعلان واضح لفوائح أخرى قادمة في ذلك المساء.

لكنه ولسوء حظه في ذلك المساء ظل محافظاً على جلسته في مقدمة الضيوف، مباشرة بمواجهة الكرسي الذي جلس عليه ابنه العريس، خلف عريف الحفل، ولا يستطيع المغادرة بسهولة، نعم، كان يعرف أن هناك ما ينتظره، لكن كيف عليه أن يرفض وقد رأى عريف الحفل يتقدم منه ويمسكه من يده ويقوده حيث وقف ناصر ينتظره عند المايكروفون، مسك بين يديه علبة صغيرة احتفظ بها بعناية مثل مَنْ يحتفظ بعصفور، وقبل أن يصبح أبوه عنده تماماً ويعدل غترته ربما في ذلك المساء للمرة العشرين، قرب فمه من المايكروفون وأوعز لسارة أن تبدأ، فدوى صوتها في سماعات الصالة قادماً من صالة النساء.

ألقت سارة خطبة قصيرة عدت فيها فضائل خالها الداعية يوسف الأحمد «نصره الله» ربما استخدمت كلمة «نصره لله» مثل فارزة في تلك الليلة بين الكلمات، قالت بصوت اختلط فيها الجذ مع السخرية، (بأنها سعيدة جداً في تلك الليلة أن تتاح لها الفرصة للحديث عن خالها «نصره الله»، خاصة أمام أولئك الذين لا يعرفون مخطوطاته التي فنى نفسه بتأليفها، مثل «الدرر البهية في الألغاز الأنثوية»، «هل تبحث عن وظيفة يا سعادة الشيخ؟»، «اركبها ولا تتردد»، «في بطن الحوت لا أحد يموت»، «عاشق في غرفة العمليات»، «الدرر البهية من فتاوى ابن تيمية»، «أين تذهبون ومع مَنْ تتناكحون»، «هل طرقت الباب خلصة»، «كم إلهاً تعبد؟»، «أفكار المسلم اليومية»، «ألا يعبدون»، وأخيراً وليس آخراً «رحلة إلى السماء بتذكرة عذراء»، ربما بدت عناوين تلك الكتب غريبة، ربما ظن بعضكم أنني اخترعتها على هواي، لكن زيارة بسيطة للمكتبات

وستجدون كل كتبه موجودة هناك، ليست هناك جامعة أو مدرسة لا توزع فيها كتبه على الطلاب وبالمجان، حتى في معارض الكتب التي تشترك فيها مملكتنا في كل مكان، زيارة واحدة لتلك المعارض منكم وستأكدون مما أقول بأنفسكم، سترون كل هذه العناوين بعضها نُشر باسم آخر، لأن خالي «نصره الله» هو شخصيات متوزعة ليس على طول المملكة وعرضها، بل في كل أرجاء المعمورة، في المغرب والصومال، في اليمن والسودان، في الباكستان وأفغانستان، في لندن وفي بقية أكبر عواصم القارات والبلدان). وهي لا تريد أن تفسد على الضيوف سعادتهم بالاحتفال في هذا المساء، لكنها وقبل أن تسلم الراية للمطرب الذي جاء دوره، تريد التأكيد أنها ممنونة لخالها «نصره الله» لأنها تعلمت من كتبه وقبل كل شيء من كتاب «نزهة العبر في حياة البكر»، والذي هو وليس غيره من ألهمها بتسليم خالها تلك الهدية المتواضعة التي سيتشرف زوجها العزيز ناصر بتسليمها إليه، (صفقوا معي لخالي «نصره الله»). قالت ذلك ثم نادى ناصر أن يبدأ، ربما ظن الشيخ يوسف الأحمد في حينه أن المساء مرّ بسلام، ربما تتم بينه وبين نفسه بكلمة «الحمد لله»، ربما فكر في هذا أو ذاك، وذلك ما جعله يحافظ على هدوئه وإن لم يتوقف من تعديل غتره طوال الوقت، لكنه في كل ذلك، في كل ما تصوّر، في كل تعديل للغترة لم يكن في حسابه أن ناصر هو الذي سيفتح العلبة بنفسه وبأنه سيرفع عالياً وأمام جمهور الحاضرين، يرفع وبوقاحة بيده منديلاً مطلياً بالدم يلوح به وسط مهممات الضيوف، ثم يستدير وبعد أن يُرجع المنديل إلى العلبة، يسلمها له وهو يخاطبه بصوت هادئ وخجول: «هذه هي هدية العمر لك يا والدي العزيز».

ليالي الأُنس في لندن

قبل أن يصل العريسان إلى مدينة لندن في اليوم التالي، وقبل أن تتناقل الصحف المحلية ما دار في ذلك المساء في فندق شيراتون الدمام، شاع الخبر بسرعة وتناقلته الألسن في عموم المملكة، ليس في البيوت والشوارع والمقاهي والمؤسسات وحسب، بل وصل حتى إلى أروقة البلاط: فتاة طائشة وفتى طائش وحفل عرس فضيحة حضره مَنْ؟ رئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المنطقة الشرقية؟ ترى ماذا كان فعل لو كان العريس ليس ابنه؟ لو كانت العروس ليست ابنة أخته؟ كيف يسمح داعية مثله بمهانة مثل هذه؟ ألم يعرف ببرنامج الحفل من قبل؟ كيف سمح لنفسه بالذهاب إلى حفل أكد بعضهم أنه حفل مختلط وفيه غناء؟ متى كان رجال الهيئة مع اختلاط الجنسين؟ ومتى تسمح الهيئة بوجود مطربين؟ بل متى سمحت الهيئة بعرض المنديل الملطخ بالدم في ليلة العرس أمام الملاء؟ ألا لعنة الله على هؤلاء الزناديق، لا يكتفون بالرقص والغناء بل يمارسون كل ما هو مخدش للأخلاق ومحظور؟ أين استخبارات الهيئة؟ أين الدعاة؟ أين المطوعة؟ كيف سمحوا للعريسين بالذهاب إلى البيت؟ كيف وصلا إلى المطار؟ بل كيف طارا من هناك إلى لندن بسهولة؟ هل من المعقول أنهما كانا قد حضرا لكل شيء؟ حجرا وللتمويه تذكرتين بالطائرة للذهاب والإياب؟ كيف نجحا في سعيهما إن لم يكن الداعية هو الذي سهل عليهما مغادرة المملكة؟

كل هذا وأسئلة أخرى قيلت في السر والعلن، كأن ما حدث أطلق شرارة نار كانت كامنة تحت الرماد، طبعاً كان للداعية يوسف الأحمد بعض الأعداء حتى في الهيئة نفسها، وإن كان من الأفضل تسميتهم بالمنافسين، وهو يعرف ذلك، يعرف حماس البعض الذين يعتقدون أنهم أكثر كفاءة وقدرة وحرصاً، هو الآخر كان ذات يوم بهذا الشكل، يتذكر فرحته عندما زاره الأمير آنذاك في سجن القنفذة في الرياض، قال له: «اخترناك على رأس الهيئة، تختار الدعاة بنفسك»، يعرف أن سلطة الأمير ليست كما هي في الماضي، وبعد خروج الروس من أفغانستان أصبح أمر الجهاد أكثر تعقيداً، بعض المجاهدين الذين تعلموا على يديه عادوا إلى المملكة، بعضهم زاره في مكتبه، قالوا له، إنهم غير راضين عما يدور في المملكة من فساد، ولولا تفهمه لهم لطلب منهم مغادرة المنطقة الشرقية فوراً، رغم معرفته أن هناك في الهيئة مَنْ لم يرضَ عن استقباله لهم في مكاتب الهيئة، البعض منهم أسماؤهم على قائمة المطلوبين، لكنه وفي كل ما فعله حتى الآن كان يلبي نداء ربه، لم يفكر يوماً وفي كل ما قام به، أنه يغامر، كل فعل قام به كان أمراً طبيعياً، كل ما يريده هو ألا يخسر رجلاً واحداً، الدعاة كلهم سواسية بالنسبة إليه مثل أسنان المشط، وإذا أخطأ أحدهم اليوم فإن الله سيهديه إلى طريق الصواب غداً، المهم هدفه المؤاخاة بينهم، وهي ثقته بهم التي جعلته يفكر بذلك، على عكس ما كان يظنه منافسوه، يقولون له إنه يتصرف بهذا الشكل، لأنه فقد العزم، لم يعد الداعية يوسف الأحمد الذي كان.

لكنه وفي كل ما سمع ووصل إلى أذنيه لم يعتقد أن البعض من منافسيه وصل الأمر به أن يطالب بإزاحته من منصبه، ووجد في حادثة فندق شيراتون الدمام فرصة مواتية. ففي صباح اليوم التالي من ليلة العرس وقبل أن يدخل الداعية الشيخ يوسف الأحمد إلى مكتبه في الهيئة رأى سيارتين فخميتين، إحداهما جي. أم. سي. عرف أنها تابعة لشرطة مباحث المنطقة الشرقية والثانية للشيخ

محمد عبد الرحمن العريفي، داعية شاب، أصغر منه سنّاً لكن طموحاته كبيرة، إنه على عجلة للصعود، جاء من أفغانستان قبل فترة قريبة وهو أكثر منافسيه على منصب رئاسة الهيئة سطوة، حجته التي يستخدمها في ذلك، هو أن من الضروري ضخّ هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدماء شابة جديدة، وهو هذا الشيخ الذي خاطبه من مكانه حتى قبل أن ينزل من سيارة جي. أم. سي..، أنزل فقط زجاج المقعد الخلفي للسيارة، قال له: «كل شيء ستجده أمامك، كل أوراقك في المكتب جُمعت ووضعت في صناديق، أما كتاب نقلك فستسلمه لك فتاة الاستعلامات، سترى عليه إمضاء الديوان الملكي، أنت منذ اليوم منقول إلى مدينة حفر الباطن». ثم أنزل زجاج السيارة وغادر، ولكي يقتصد باستفساره تقدم منه ضابط المباحث الذي وقف هناك، عرفه مباشرة، صلاح المحترش العتيبي.

مَنْ لا يعرف العتيبي في المنطقة الشرقية إن لم يكن في عموم المملكة؟ إنه أشهر من نار على علم، ليس بسبب شكله القبيح ووجهه الذي نهشه الجدرى وهو صبي، بل بسبب شهرته في صرامته مع السجناء، ليس هناك موقوف يحقق معه العتيبي ولا يعترف بجريمته فوراً حتى إذا لم يكن هو مرتكبها، وبالنسبة له سبق له وأن تعاون معه في أكثر من مجال، خاصة وهو الذي سهل له عمليات الجرد للسكان من غير السُنّة والتي قام بها في أول أيام مجيئه، العتيبي هذا تقدم منه، صافحه، عانقه، حكّ أنفه بأنفه، ثم واساه، قال له إنه يأسف لما حدث أمس، الكل يعتقد أن الترتيبات كلها جاءت منك، حجز القاعتين، دعوة عريف الحفل السكران (أراد أن يوضح الأمر، أنه شخصياً لم يقم بذلك، لكنه عدل)، و...و...و، لا حاجة لأن يشرح له الأمر، إنه يعرفه، قال له العتيبي، لكن أنت تعرف الأوامر، ثم يضيف بتأسف: وزير الداخلية اتصل بنفسه وسأل كيف سمحنا بما حدث؟ ثم أخبره العتيبي وهو يؤشر ناحية سيارته، كيف أنه ذهب مع زملائه الجالسين في السيارة لاعتقال العريسين هذا الصباح، للأسف وصلوا في وقت متأخر، قيل لهم

سافرا في الطائرة التي أقلعت في الثانية ليلاً، ماذا نفعل؟ من ناحية ناصر سيجد خبر طرده من العمل في السفارة أمامه، الوزير غاضب جداً، دمه يغلي، أخبرني بنفسه، بأنه حاول التوسط عند الحكومة البريطانية لاعتقال ناصر في المطار وتسليمه للمملكة، لكن وزير الداخلية البريطاني، رفض، قال لسعادة الأمير وزير الداخلية: «بلدنا ديموقراطي لا يعتقل أحداً ويسلمه بدون تهمة»، لكن على الأقل، وهذا ما أكده له سعادة الأمير وزير الداخلية، أن ناصرأ سيُطرد من عمله في سفارة المملكة في لندن. صمت العتيبي قليلاً، ثم واصل، المهم، أنه جاءه بقدميه لكي يودعه ويتمنى له رحلة موفقة، كيف ينسى تعاونهما المشترك في أكثر من مناسبة؟ ولا يحتاج له أن يذكره، القضاء على خلية الشيوعيين في آرامكو التي قادها مهندسان من عائلة «روافض» وهذا واحد من أمثلة عديدة، قال له وهو يغمز بعينه، ثم صافحه من جديد، واتجه ليصعد سيارته، وسار إلى جانبه الداعية يوسف الأحمد، من يدري، الأقدار بيد الله، وهو لن يستغرب إذا وجد نفسه يعمل معه يوماً في حفر الباطن، ولقول الحق، أكمل العتيبي وقد جلس هذه المرة عند مقود السيارة، العمل في مدينة التهريب هذه يبعث على السعادة، ولو خيّر بين العمل في الحُبر وحفر الباطن، لاختار حفر الباطن، مدينة المهريين، لقد ملّ العمل في الحُبر والظهران، في القطيف والدمام، لقد ملّ العمل بين طائفة «الرافضة» المشاغبيين، «إذا لم يكونوا خمينيين فهم ملاحدة وشيوعيون»، قال له وهو يختم كلامه، قبل أن يصعد زجاج نافذة السيارة ويُشغل المحرك، ويضغط على دواسة البنزين.

عندما ستسأل سارة في المستقبل عن أحلى سنوات حياتها، ستقول سنوات الإقامة في لندن، «ليالي الأنس في لندن»، كان ذلك دائماً جوابها، بإشارة منها للأغنية المشهورة «ليالي الأنس في فيينا»، التي غنتها المغنية السورية الأسطورة اسمهان، أو «متع شبابك في لندن»، إذا أرادت التلميح للمقطع الثاني من الأغنية

«متع شبابك في فيينا»، ليس لأنها كانت سنوات مريحة، على العكس، كانت سنوات صعبة جداً، بل بالضبط لهذا السبب، لأنها كما تقول، سنوات الاختبار بالنسبة لها، سنوات النضوج، خمس سنوات متواصلة وربما أكثر، أقامت هناك مع ناصر بصفتها زوجته الرسمية، وفترة قصيرة بدونه.

في المرة الأولى أقامت معه في نوتينغ هيل، في الشقة الصغيرة التي تقاسمها ناصر مع صديقه طارق، ستة شهور لا غير، في البداية أراد طارق ترك الشقة لهما، لكن ناصرأ طلب منه ألا يفعل ذلك، فهما في النهاية ليسا زوجين مثل بقية الأزواج، صحيح أنهما أمام العالم الخارجي وبشكل رسمي زوج وزوجة، لكنهما لم يفعلوا ما يفعله الأزواج عادة، لم يناما مع بعض، لذلك فضل هو النوم في الصالون وترك لها الغرفة، الشقة صغيرة لكنها مقسمة بشكل جيد، غرفتان صغيرتان مستقلتان عن بعض وصالون للجلوس، مطبخ صغير وحمام، وكانت كافية لثلاثة شباب مثلهم، «ثم إنك تخرج في ساعة مبكرة في الصباح للعمل في السفارة ولا تأتي إلأ في المساء، وفي بعض الأحيان في ساعة متأخرة من الليل»، قال له ناصر، لكن سارة التي أخبرت ناصرأ، أن من الصعب عليها البقاء في هذه الشقة، ليس لأنها تفكر بشقة كبيرة الحجم على الطراز الفكتوري تؤثثها على ذوقها الخاص وحسب، بل لأنها لا تريد أن يعرف صديقه كل صغيرة وكبيرة عن حياتها، لا تريد أن يلجأ حبيبها خالد للإقامة في الفندق في حالة زيارته لها كما اتفقا.

لم يبد ناصر اعتراضاً على ما تقوله، كان يحتاج منها أن تمهله فقط بعض الوقت، يعرف أن قرار انتقاله وتركه لصديقه سيكون أصعب قرار يتخذه في حياته، لا بد له أن يفعل ذلك، لكن عليه أن يعثر على عمل أولاً، كان يستيقظ مبكراً، يتناول مع صديقه كوب قهوة في المطبخ، ثم ينزل ليشتري صحف الصباح، بعد ذلك يجلس ساعة إلى ساعتين في المطبخ ويبدأ بقراءة الإعلانات

بحثاً عن وظيفة، فعل ذلك كل صباح طوال الشهور الستة الأولى كان عليه إعالة نفسه، رغم أن صديقه طارقاً لم ييخل عليه، يساعده، على الأقل في دفع إيجار الشقة، لكنه لا يريد العيش عالة على صديقه، لأن من واجبه إعالة سارة أيضاً ولأن رخصة العمل الإنكليزية ستنتهي في نهاية العام، وحتى ذلك الحين عليه تدبّر حاله، وتدبير أمر إقامته أولاً قبل التفكير بالعمل. طبعاً أرسلت له أمه بعض التحويلات المالية، لكنه يعرف وضعها المادي، ومغامرتها في إرسال الحوالات، وكيف أنها تكافح باقتطاع جزء من مصروفات البيت لكي توفره له، وهو يعرف أن أباه ربما لم يلاحظ ذلك سابقاً عندما كانت ترسل له الحوالات المالية للبحرين، لكن الآن بعد انتقالهم إلى حفر الباطن، وبعد تقليص العديد من الامتيازات التي كان يتمتع بها، سيلاحظ أبوه هذه المرة بدقة أين يذهب كل ريال، وهذا ما جعل ناصراً يلغي حسابه في البنك وينتقل إلى بنك آخر.

كانت تلك الوسيلة الوحيدة لكي يوقف أمه عن إرسال الفلوس، على الأقل الحوالات التي أرسلها غازي الجاسي لابنته بعثت فيهما بعض الطمأنينة، وبقدر تعلق الأمر به لا يريد أن يعيش أيضاً عالة على والد سارة، ثم إن سارة لها متطلباتها الخاصة بها والتي هي كما لاحظ في تزايد، رأى بنفسه أثناء جولاتهما في المدينة فضولها ونهمها بشراء الأثواب والفساتين والحقائب اليدوية، ربما اكتفت في المراحل الأولى بالتسوق في محلات هارو ومحلات أوكسفورد ستريت، لكن المصيبة بدأت بعد اكتشافها محلات ليبرتي، المشهورة بملابسها المصنوعة من الحرير، وبالأسعار العالية بشكل واضح، لكن والدها كان يدفع، ثم ذلك هو حقها، لم يشأ التدخل في شؤونها، في الأيام الأخيرة اتجهت أكثر إلى شراء أدوات الماكياج والزينة والعطور، بل ولشراء من حين لآخر أدوات للمطبخ، رغم أنهما لا يطبخان، مرتين أو ثلاثاً حاولا طبخ مكبوسة ففشلا، رماها في المزبلة، لم يستطيعا أكلها. أما أكل البيتزا والتسوق، فكانا هوايتهما المفضلة في لندن،

على الأقل في الشهور الأولى، وعندما بدأ البيت يزدحم بالفعل، عندما لم يعد هناك مكان في غرفتها، في المطبخ، في الحمام، في الصالون، اضطر أن يطلب منه صديقه طارق ذات يوم، أن يسألها التوقف عن الشراء ولو لفترة محدودة، ستختنق في غرفتها بالملابس، فلماذا تخنقنا معها في البيت؟ كان جواب ناصر الضحك، «دعها لحالها»، قال، ربما ستنتبه هي في حينه وتطلب النجدة، لكنها بدل أن تطلب النجدة، قالت له إنها ستسأل أباها أن يشتري لها شقة في لندن في منطقة جيسيك، حيث يسكن العديد من الفنانين الإنكليز.

كان يعرف أن أباها لا يردُّ لها طلباً، فهي ابنته المدللة، قال لها، فكرة سيّدة، لكن عليها أن تترىث إلى حين عثوره على وظيفة، فهو لا يريد أن يعيشا في لندن عالة على أبيها، وافقت على مضمض، كأنها عرفت أن من الصعب عليه العثور على وظيفة، فماذا يفعل شاب سعودي خريج هندسة كهربائية في لندن؟ من يوظفه؟ الوظيفة الوحيدة التي اقترحها عليه في الأيام الأولى العولقي، معلم في جامع التوبة، المكان الذي فضلاً عن عمله في السفارة السعودية في لندن، عمل فيه العولقي إماماً، قال له وهما يجلسان في مقهى عربي في أدغار رود، ولكي يطمئنه قال له إنه سيعمل معلماً للهندسة الكهربائية، يدرس صبياناً بين العاشرة والثانية عشرة من عمرهم، شكره ناصر وقال له، إنه سيفكر بالموضوع.

لم يكن ناصر الودَّ للعولقي أبداً، كان شخصية غامضة بالنسبة له، وهو لم يفهم لماذا يحرص شخص مثل العولقي يعمل موظفاً في سفارة المملكة في لندن على تعليم صبيان صغار مسلمين وفي جامع، الهندسة الكهربائية؟ رغم أن العمل هناك يوفر عليه التفكير برخصة العمل، «لا تحتاج لا إلى رخصة ولا إلى إقامة»، أخبره العولقي، الدستور الذي يسير عليه الجامع هو دستور الله: القرآن، قال له قبل أن يودعه، ثم طلب منه أن يفكر بالأمر بجدية، طبعاً فكر ناصر بالأمر عميقاً، إنه أمر مغرٍ بلا شك، لكنه لم يشأ الاستسلام، لم يفكر يوماً

بالعمل في جامع، كم كره الجوامع، كم اشمئز من سماع كلمة جامع، ربما ارتبط ذلك بعمل أبيه، فهو ومنذ أن كان طفلاً وسأل أمه عن أبيه، قالت له إنه مشغول في الجامع، ولم يفهم في البداية كيف يكون الجامع مهماً إلى هذه الدرجة، لدرجة أنه يشغل أباه عنه، أما ذهاب إخوته مع أبيه إلى الجامع، جميعهم، فكان بمثابة خيانة بالنسبة له، والآن يريد العولقي منه العمل في جامع، وماذا؟ معلماً للهندسة الكهربائية؟ وربما هو خوفه أن يضطر لقبول اقتراح العولقي بالعمل هناك ما جعله يوافق على الانتقال بعد ستة شهور إلى الشقة الجديدة مع سارة، قالت له سارة، عليهما الانتقال بسرعة، ألا يضيعا وقتهما بعد الآن، ففي النهاية اشترى لها أبوها شقة فاخرة في لندن وفي الحي الذي تريده، في جيسيك، كان لا بدّ له أن يوافق، أن ينتقل معها، فهو بدأ هذه القصة معها وعليه أن ينهيها معها، من غير المهم الثمن الذي يدفعه لذلك، فقدانه الوظيفة في السفارة أولاً، وفقدانه صديقه طارقاً بعد الآن.

حتى سارة لم تصدق ذلك، عندما أخبرها، أنه سينتقل معها، لكنه كم سيفتقد صديقه، و فقط عندما رأته الاثنين يحضنان بعضهما ويكيان على الفراق في يوم الانتقال، لما صدقت ما رواه، فهي حتى لم تصدق عينها، «غريب» قالت لنفسها، ففي النهاية هم باقون في لندن، الحيان، نوتينغ هيلل وجيسيك لا يبعدان عن بعضهما مسافة كبيرة، وكان عليها أن تنتظر قليلاً لكي تفهم، لكنها في ذلك الوقت اكتفت بأن ألحّت على طارق ألا يتوقف عن زيارتهما في شقتهما الكبيرة الجديدة، عندهما مكان كافٍ، قبيلة كاملة تستطيع النوم فيها، قالت له ضاحكة، وهي على حق، 120 متراً مربعاً مساحة الشقة في الطابق الأرضي، هي أرادتها في الطابق الأرضي، بسبب رغبتها بامتلاك حديقة، مثلما كانت بناية من الطراز المعماري الفكتوري القديم كما أرادت، حوت على ثلاث غرف كبيرة جدّاً، وعلى صالون هو الآخر مساحته كبيرة، على حمامين وتواليتين، شقة بالضبط

على هواها. لم يستغرق بحثها عنها طويلاً، عثرت عليها بنفسها قبل شهرين من انتقالهما حقيقة، لكن مراوغة ناصر في البداية جعلتها تؤجل القرار، طلبت من السمسار أن ينتظر، قالت له ستعطيه ألف باوند زيادة عن كل شهر تأخير إذا حجزها لها، كانت واثقة من شراء أبيها لها، أيضاً واثقة من انتقال ناصر معها، وقّع أبوها عقد شراء البيت الذي أرسله السمسار عن طريق السفارة السعودية في لندن، قال لها أبوها: «مبروك بنتي، منذ اليوم عندك بيت في لندن»، كم أفرحها ذلك، أه شعور غريب لكنه حلو، أن تعرف أنها تملك شيئاً، بيتاً وأين؟ في لندن.

ولكي تكتمل فرحتها، أبلغها أبوها، أنه حوّل لها مبلغاً آخر لكي تؤثث الشقة على هواها، وأنه سيزورها مع أمها في عطلة الصيف ويريد أن يرى شقة يقولون عنها، بأنها شقة لأميرة، وهي من طرفها قالت له، كم ستفرحها زيارته، أخيراً ستسعد برؤيتهما، وأنها كم اشتاقت للبيت، وأنها لم تعتقد يوماً أنها ستشتاق لإخوانها وأخواتها ولأولادهم أيضاً، كم اشتاقت لمدينتها الحُبْر، هي نفسها تفاجأت بذلك الشوق، رغم أنها كانت تتحدث مع أمها كل يوم لأكثر من ساعة أحياناً ولو لم تطلب أمها منها أن تقفل وهي تعاود الاتصال بها لارتفعت فاتورة التلفون أكثر، ومن الأفضل أن تري أباها فاتورة التلفون، وأقله أن تري ناصرأ ذلك، فلو كان يعلم لضرب على رأسه، هو العاطل الذي يبحث عن العمل، وهي المبذرة إلى كل الجهات، لكن أباها كان دائماً إلى جانبها، لا يهم المبالغ التي دفعها ويدفعها، كان فرحاً باسترجاعها، ظن أنها أذعنّت لاقتراحه، تزوجت بابن خالها، ناصر، وأنها قطعت علاقتها بخالد النسّاج، وكما قال لأمها مشاعل: «ابنتي وأعرفها جيداً، كل ما جرى هو قصة طيش عابرة انتهت سلامات والحمد لله»، وهي الجملة ذاتها التي كتبها في ورقة استرحام لأمير المنطقة الشرقية، كي يرفع أمر إلقاء القبض عليها وعلى زوجها ناصر، قال لها والدها، في أول زيارة له وأمها لابنته وزوجها ناصر في شقتهم الجديدة في لندن، أخبرها كيف أنه لم يغمض له جفن منذ سماعه

بأن ابنته وزوجها مطلوبان للعدالة، وكيف أنه طوال هذا العام بحث عن وسيلة أو طريق للوصول إلى أمير المنطقة الشرقية، وشكراً لصديقه المقاول اللبناني رفيق أبو ديغول الذي ما إن عرف منه ما يقلقه حتى شجعه على كتابة ورقة استرحام، قائلاً له: «سأتحدث مع أمير المنطقة الشرقية في أول مناسبة أنتقيه». بالفعل وفي مأدبة غداء بعد حفلة صيد في مزرعة الأمير في حفر الباطن، حدثه أبو ديغول عن القصة، فوعد الأمير «أبو ديغول» بدراسة القضية، وما زال ينتظر، لكنه متفائل، الأمير عادة لا يرد طلباً لـ «أبو ديغول».

قَبِلت سارة أباها على خده وشكرته، ناصر هو الآخر شكره. أربعة أسابيع أقامت العائلة في الشقة معهما في لندن، كانوا يخرجون كل يوم، سارة وأمها تدوران على محلات السوبرماركت، اشترتا كل ما يحتاجه بيت جديد من لوازم، وغازي وحده أو مع ناصر كما حدث في الأسبوع الأول، أو في زيارة بعض المعارف والأصدقاء، كان الاثنان فرحين بابنتهما، خاصة الأم التي فكرت، كيف أن ابنتها تزوجت في النهاية ابن أخيها كما حلمت منذ طفولتها، وهي حريصة على مساعدة الاثنين، حتى فيما يتعلق بالعمل، طلبت من ناصر ألا يقلق، تحدثت معه في الأسبوع الأول، «نحن عند عيناكم يا ولدي، لا تفكر بالعمل، الخير واجد عندنا، وعمك غازي الجاسي جاه وثروة»، ولم يشك ناصر بكلامها، يعرف صدق خالته، لكن ماذا عليه أن يفعل، هل يقول لها: «كلا، يا عمتي، أنا لا أستحق هذا الكرم منك، لأنني لست زوج سارة: أنا وسارة نكذب عليكما؟» هل يصرحها بأنه وبعد مرور سنة أو أكثر على زواجهما ولم ينأما إلى جانب بعض، لا في غرفة واحدة ولا على سرير واحد، وأنهما فعلاً ذلك للمرة الأولى بسبب وجودهما؟ هل يقول لها، بأنه لو كان الأمر متروكاً له الآن لطلب من سارة أن تسكن هنا وحدها وتركه هو يذهب إلى صديقه؟ هل يقول لها إنها لا تزال على علاقة بخالد «النساج»، وإنها ما تزال تراسله، تطلب منه الحضور إلى لندن؟ كلا، بدل ذلك

أخبرهما ناصر أنه لا بد أن يسافر إلى مدينة أخرى، وسيتركهما مع سارة، ودّعهما قبل أسبوعين من ذهابهما، وذهب إلى بيت صديقه في نوتينغ هيل، لم يشأ لعب دور الزوج أمام عمته وزوجها، النوم مع سارة في سرير واحد، كم أربعه ذلك، في الليلة الأولى لم ينم، وسارة التي لاحظت ذلك، سمعته يتنفس بصعوبة، يخنق تنفسه لكي تظن أنه نام، وعندما بدأت تتنفس بعمق شعرت به ينسل من السرير ويأخذ شرفاً لينام على الأرض، «أمر غريب» قالت لنفسها.

كانت تلك المرة الأولى التي فكرت فيه بالموضوع، هل هي قبيحة إلى هذا الشكل؟ هل فيها ما يجعل رجلاً ما ينفر منها؟ كانت تشك بذلك، وهي تعرف محاسنها، ليس بسبب عدد الشباب والرجال الذين تغزلوا بها وحسب، بل تعرف أيضاً كل تفاصيل جسدها، وكانت على دراية كيف أنه نما، على دراية كيف تصلب صدرها وتفتحت حلماته، تعرف أن كل زاوية من جسمها تجعل الرجال يسيل لعابهم إذا رأوها، ولكن ناصر؟ ماذا جرى له، فهي تلبس ثوب نوم شفاف التصق بجسدها، وتدلى شعرها، تضع عطرًا فاحت رائحته في جو الغرفة، كل ذلك لا يغيره؟ أرادت أن تسأله، ما هو مرامه؟ لكنها تركته في الليلة الأولى ينام على الأرض على هواه، في اليوم التالي تعمدت أن تستبدل ملابسها أمامه، قالت له، أعتقد أن ثوب النوم هذا مريح أكثر من الآخر، ثم رمت الثوب ناحيته، ويلمح البصر رآته يغير اتجاه عينيه، لم يشأ النظر إليها، وعندما اقتربت منه، رأت كيف تصبب عرقه، وازداد تنفسه، قالت له بصوت حنون: «أرجوك لا تتم الليلة على الأرض، السرير بسعة جمل»، ولا تعرف أن طلبها هذا بالذات ما كان يخشاه، كم أربعه أن تبدأ سارة بالاقتراب منه، وعندما تمت له ليلة سعيدة، عرف أنه لن ينام في تلك الليلة، سيستحوذ عليه أرق متواصل، ربما ستغمض عيناه في ساعات الفجر الأولى، أرق متواصل، ليس في تلك الليلة وحسب، بل في كل الليالي التي تلت في الأسبوعين اللذين أجبر نفسه فيها على النوم إلى جانبها على السرير،

قبل أن يلجأ إلى عذر سفره إلى مدينة أخرى، وفي الليالي التي تلت بعد ذهاب أهل سارة، حاول أن يبقى بعيداً عنها، «لا بد أن تعود إلى الشقة في جيسيك». قال له صديقه طارق بعد ثلاثة أسابيع من ذهاب أهل سارة، ولولا إصرار صديقه لما عاد، كم خيب ظنها، كانت تعتقد أنه سيعود في اليوم التالي من رحيل أهلها، أو أن يأتي إلى مطار هيثرو لوداعهما، لكنه لم يأت، وعندما اتصلت في الشقة في نوتينغ هيل، رد طارق على التلفون، قال لها إنه ما يزال مسافراً بسبب عمل في مدينة أخرى، كذبة انطلت عليها أيضاً، لكنها عندما اتصلت مرتين أو ثلاثاً، عرفت أن طارقاً يقول ذلك بترتيب من ناصر، قالت له: «قل له، بأنه إذا لم يأت خلال أسبوع سأتي وأخذه بيدي»، يعرف أنها جادة، ولكي لا يفقد ماء وجهه، ظهر بعد يومين من تهديدها في الشقة، «حسناً عدت»، قالت له، أخاف النوم وحدي، الشقة كبيرة والجو بارد، وأنت معي، ندفتي أنفسنا على الأقل بالذكريات.

في تلك الليلة حاولت سارة إقناعه بالنوم معها في الغرفة نفسها والكف عن النوم في غرفة منفصلة، قالت له، إنها اعتادت نومه هناك، وإنها بعد رحيل أهلها تشعر بوحدة قوية، وافق على مضمض، ظناً منه، أنها ليلة عابرة وحسب، حتى إنه نام بصورة جيدة، وهي من طرفها أيضاً فعلت كل ما في وسعها أن يساعده على ذلك، في اليوم التالي قالت له بصراحة، بأنها تريد أن يبقى ليالي أخرى، وعندما سألتها كم، قالت له، بأنها ستقول له في حينه، ولم يعرف أن «في حينه» هذه ستدوم أياماً وأسابيع وشهوراً. ففي المرة الأخيرة عندما أراد العودة للنوم في غرفته الخاصة به، بكت وقالت له، إنها بالضبط في هذه الأوقات تحتاجه، خاصة وأن خالدماً كتب لها، بأنه لن يأتي في وقت قريب، فرفض ناصر، وعندما رأته مصرّاً، قالت له: «هل أنت بدون رجولة؟».

كان عليها ألا تقول تلك الجملة، ولم ينفعها أنها اعتذرت له، لكنها لم تستطع لا التخفيف من نظرته الحزينة التي اختلط فيها العتب بالاستسلام ولا منعه من

مغادرة البيت، ليس في تلك الليلة وحسب، بل في الليالي التي لحقت أيضاً، كل ليلة بعد الانتهاء من العشاء، وعادة ما كانا يطلبان بيتزا، تجلس هي عند التلفزيون، أما هو فيذهب لتعديل هندامه، يرش عطرًا، ثم يقول لها، إنه خارج، ولا يعود إلا في ساعة متأخرة من الليل، كفت عن سؤاله إلى أين، لأنه يجيئها دائماً بالجواب نفسه، لكنها تظل يقظة تنتظره، وعندما تطلب منه المجيء للنوم على السرير إلى جانبها، يقول لها، إنه تعب، لأنه تعرف على سيدة نزقة صدفة في إحدى الحانات. طوال تلك الفترة التي نسيت عددها كان عليها أن تعيش قلقه، وأرقه، وتصيبه عرقاً ليلاً، في المرحلة الأولى فكرت بمعالجة الأمر على طريقة الأمهات، اتصلت بأמהا وسألته عن بعض وصفات للأعشاب لمن عنده أرق ولا ينام، وعندما شهقت أمها تسألها: «كيف، أنتِ لا تنامين؟ ليش؟» فأجابتها كلا، بسبب ناصر، قلق دائماً بسبب العمل، الإقامة، وهي بالفعل فكرت بذلك، فسرت كل قلقه على هذا الأساس، حتى اقتراحها عليه بالنوم إلى جانبها هو نوع من التضامن، فهي تعرف، أنه لا ينام مرتاحاً حتى عندما ينام وحده في غرفته. وصفات مختلفة حضرتها له، أعشاب غريبة ونادرة، وكانت تذهب من أجل ذلك إلى أسواق الهنود في ساوث هول، وشكراً لامرأة عراقية تكبرها على الأقل بثلاثين عاماً تعرفت إليها صدفة هناك، اسمها سندس علمتها خلط وصفات جديدة بعد أن استنفدت وصفات أمها.

روت لها سندس كيف أنها تأتي إلى السوق كل أسبوع لكي تشتري أعشاباً طبية، لا بدّ أن تفعل ذلك لكي يبقى زوجها معها، وإلا لذهب وتزوج امرأة صغيرة أو على الأقل بعمره، قالت سندس، ولا تدري ماذا ستفعل إذا لم تنفع تلك الصفات في النهاية، لأنها وبعد ثلاثة أو أربعة أسابيع من لقائهما الأول في ساوث هول لم تعد تراها، لا بدّ أن زوجها الذي يصغرها على الأقل بعشرة أعوام طلقها، كما اعترفت لها ذات يوم وهي تصف أسباب خوفها، وإلا فإن لا واحدة

من الصفات التي نصحتها بها كانت ذات مفعول، لا وصفات أمها ولا وصفات العراقية ساعدته على النوم، بل ولا رقتها وعنايتها به، لا تعرف ماذا حصل له، كان مثل من عاش مرحلة كآبة، في النهار لا يغادر البيت، وفي الليل لا ينام، بل كان يتجنبها تماماً، يتحرك في البيت دون ضجة، مثل من أخفى جريمة.

ذات ليلة قررت أن تلمسه، لبست ثوب نوم شفاف وسرحت شعرها بشكل مغرٍ ووضعت عطرها المفضل، لكن لمستها له جعلته يقفز من السرير مثل الملدوغ ويلجأ إلى زاوية البيت، مثل امرأة تدافع عن نفسها أمام رجل يريد اغتصابها، كانت تلك اللحظة الحاسمة التي لم تشأ سارة تركها للصدفة بعد الآن، اقتربت منه، مسكته بذراعيه الاثنتين، وقالت له بصوت قوي، نبرته حازمة: «حان الوقت أن تقول لي، ماذا حصل لك». في تلك الليلة أولاً وبعد أن استرد أنفاسه قليلاً وشرب كوب ماء، أباح لسارة وهما جالسان في الصالون كل ما جثم على صدره، روى لها، كيف أنه لم يفكر بامرأة في حياته يوماً، وأنه منذ طفولته يحب صديقه طارقاً، وأنه وافق على الزواج ليس تضامناً معها وحسب، بل أكثر لكي يكافح هذا الميل عنده، لم يصارح أحداً بالقصة، حتى طارق لا يعرف بالقصة، ولا يدري إذا خمن ذلك أم لا، لكنه يعرف بالضبط، أن طارقاً هو الذي شجعه على الزواج بها، وهو الذي شجعه على الانتقال إلى الشقة معها، ولا يدري إذا كان صديقه يكافح هو الآخر هذا الميل، ولا يدري إذا كانت مقاومة الاثنين لميولهما لها علاقة بتكوينهما الجسدي أم بسبب خوفهما من المجتمع الذي يعيشان فيه، فهو لا ينفي ميله للنساء تماماً، ولسارة بالذات، لكن ميله للرجال، وطارق بالذات، أكبر من ميله لها بكثير، مجرد التفكير بذلك يرهقه، قال لها، من ناحيته لو سألته فإنه سيبوح لها للمرة الأولى، بأنه يحبها، وبأنه أراد عن طريق حبّه لها مقاومة حبه لطارق. «وكما يبدو تماديت كثيراً في سيرتي، وأنا لا أعرف لي مرسى، هل أنا معك هنا، أم مع طارق؟ من أخلص له ومن أخون؟». قال لها بصوت اقترب

من الهمس: «لا أستطيع الاستمرار على هذه الحال، لا بد أن يحدث شيء»، بتلك الجملة ختم حديثه، قبل أن ينام، كان تعباً. في ساعة متأخرة من الليل أو في ساعات الفجر الأولى في لندن، تركت سارة رأسه على صدرها، وقالت له بعزاء: «لا تقلق، كل شيء سيكون على ما يرام»، وبنبرة لم تخل من سذاجة، قالت له: «سأشفيك»، كأنه مريض منذ زمن طويل بمرض يئست من علاجه.

كانت المرة الأولى التي عرفت فيها، أنها في الحقيقة أحببت ناصرًا منذ البداية، منذ أن جاء لزيارتهم في طريقه للبحرين، وأن حبها للنساج خالد لم يكن صدفة مطلقاً، إنها خططت له دون وعي منها، كان حباً مقصوداً، تلك هي دائماً سارة تلمي نداء حواسها لا غير، حواسها لا تكذب، كانت دائماً تقول لنفسها، إن ابن خالها ناصرًا يختلف عن بقية الشبان، وإنها ولكي تقاوم حبها له أحببت خالدًا، ناصر أحب طارقاً، وهي أحببت النساج، كل واحد ذهب في طريق آخر لكي يلتقيا في نهاية الطريق، كان لا بد وأن تفكر بهذا الشكل، حتى لو اتهمها أحد بسذاجة ما تقول، مع تلك الأفكار نامت في تلك الليلة، إلى جانبه على الصوفا العريضة في الصالون.

في اليوم التالي كتبت لخالد تطلب منه ألا يأتي، أن ينظر إلى قصتهما بحكم المنتهية، إنها تعيش مع زوجها بسعادة وكفى، وكانت تعرف ماذا تقول، في اليوم التالي أيضاً طلبت منه أن يلبس أحلى بدلة عنده لكي يذهب للعشاء، وعند عودتهما من المطعم حاولت جلبه للنوم معها، شجعته، قالت له: «لنجرّب، ربما»، فأذعن على مضض، ربما أراد ألا يخيب ظنّها، أن يجبر نفسه على فعل الجنس مع امرأة من أجلها، رغم ذلك لم ينجح، قالت له سارة: «لا ضير»، عليه ألا يحزن، لا بد أن يحدث في ذلك يوماً، دون أن تدري بأنها ستلتقي مرة أخرى بعد يومين أو ثلاثة صدفة وفي أسواق الهنود في ساوث هول بالعراقية سندس، بدت المرأة سعيدة جداً، امتلاً وجهها بالأصباغ، فسألتها، إذا ما زالت تعيش مع

زوجها الذي يصغرها بثماني سنوات، فأجابتها وهي تضحك بأنها تركته منذ زمن، وأنها الآن مع رجل أكثر شباباً يصغرها بأكثر من ثلاثين عاماً، وعندما سألتها عن الوصفة التي تستخدمها معه وتجعله يبقى معها، قالت لها، ألا ترين؟ وهي تشير لفستانها المثير والأصبغ، لا أعشاب ولا خلطات هندية أو عربية، بدل ذلك أخرج كل يوم في المساء ولا أعود إلا في الليل، فأروح أحدثه عن الرجل الذي نمت معه، كل ليلة أمارس الجنس مع رجل جديد، وأي جنس، نيك من كل الجبهات والأوضاع والفتحات، «عبالج على خط النار، يعني جنس من هذا القوي اللي ما يتحملة إنس ولا جان». قالت سندس مقهقهة: «هذه القصص تجعله يحمي كثيراً، ويزأر عليها، يريد نكاحها مثل أي حيوان».

«خلي يحمي شوية، عيني»، أوصتها سندس، «رجل شرقي حبيبتني، بس يسمع نكحك واحد ثاني، يعني ناكك، راح يغار وشلون غيرة عيني». قالت: «جرب نار الغيرة»، بإشارة منها إلى أغنية لوردة الجزائرية، ثم سألت مستدركة وهي تضحك بغنج: «عيني خاف زوجك، يحب الولد مثل العراقيين، لو فرخ لو فرخجي؟ في هذه الحالة»، قالت وقد أعلنت من قهقهاتها: «في هذه الحالة، أنصحك تقصين شعرك مثل الأولاد وتلبسين بالليل دشدشة لو بيجامة رجالية للنوم». منذ تلك الليلة لم تبدأ سارة بالخروج ولا تعود إلا بعد منتصف الليل وحسب، بل نفذت ما قالتها سندس، قصت شعرها وعملت تسريحة صبي، واشترت دشدشة رجل وبيجامة رجالية وراحت تلبس إحداهما عند النوم.

في الأسبوعين الأولين وجدته نائماً، أو ربما جعل نفسه نائماً، لكنه في كل مرة كان يستيقظ بالتدريج، في المرة الأولى ظل يحدق بها فقط، قبل أن يدير ظهره لها وينام، في المرة الثانية، قال لها: «لم أعرف أنك تدخنين بهذه الكثرة، ملابسك كلها رائحة دخان». في المرة الثالثة، قال لها: «ولم أعرف أنك تشربين، رائحة الخمرة تملأ الغرفة». في المرة الرابعة، قال لها: «ألا تتعبين من السهر؟».

في المرة الخامسة سألتها إلى أين تذهب طوال الوقت حتى الساعة المتأخرة من الليل. وفي كل المرات كانت تجيبه بشكل مقتضب، بجملة واحدة أو جملتين، مثل «حقاً؟»، «آها؟»، «سأنظف فمي»، فقط في المرة السادسة عندما سألتها: «كل هذه الأتواب المثيرة تلبسيتها ومع كل هذا المكياج والأصباغ. لماذا؟»، سألتها، «لماذا يهمك ذلك؟». وفي كل المرات كانت تنتظر أن يسأل بفضول، في الليلة السابعة على ما تظن، سألتها، قال لها، إنه من حقه أن يعرف ماذا تفعل طوال هذا الوقت، فسألته بصوت كله غنج، إذا كان مستعداً لسماع ما تقول، فهز رأسه بنعم، «إذن هيئ نفسك لما تسمع من كلام»، قالت له، ثم روت له كيف أنها في تلك الليلة ذهبت لتشرب ويسكي في إحدى الحانات، وكيف أنها عندما ذهبت للتواليت، فوجئت برجل يتبعها إلى هناك، وقبل أن تغلق الباب وراءها، دخل الرجل خلفها، مسكها من كتفها وأجبرها على أن تفرص على الأرض ثم أخرج قضيبه ووضعها في فمها وطلب منها أن تلوكة له، فعل ذلك فقط، لم يطلب منها شيئاً آخر، وكان يقول لها كلما دفع قضيبه في فمها أكثر: «خذها يا ولد ابلعه كله»، كم يقرفها ذلك، لكنها كانت وحدها وخافت، كان عليها أن تفعل ذلك. وعندما شعرت بذراعيه تقتربان منها للمواساة، أبعدته برقة وبدلال، قالت له: «نم أرجوك، أنا تعبانة وعليّ أن أنسى هذه القصة».

في الليالي التي تلت روت له قصصاً مشابهة، كل ليلة قصة أخرى، لكن دائماً، كانت تؤكد على قصة مضاجعة الرجال لها، على أساس أنها ولد، وليس كامرأة، وأن بعضهم ظنوها ولداً متكرراً على شكل امرأة، أو ترانسبستي، يطلبون مضاجعتها من الخلف فقط. وفي كل ذلك كانت ترى تطلعه بها بفضول وارتعاشه في بعض الأحيان.

ذات ليلة وقبل أن تخرج من البيت نادته، قالت له بصوت حنون: «ادع لي ألا يحدث لي شيء الليلة»، فاقترب منها واحتضنها بحنان، ولبرهة تطلع

أحدهما بالآخر، رأت شفّيته تتمتان: «ولماذا لا تبقيين هنا الليلة؟». ثم بصوته مثل شخص منكسر يقول: «أحبك يا سارة». ثم صفتن ورأت شفّيته ترتعشان، فيما عرقت جبهته، سألتها: «ماذا لو فعلنا الأمر نفسه؟»، فبدت كأنها لا تفهم ما يعني «أعني، أعني»، سمعته يقول لها بصوت خافت، وشفّته ترتعشان: «أن نفعل، كما تفعلين كل ليلة». وكانت تعرف ما يعني، إنه يريد منها لعب الولد معه، فقالت له: «سأفعل يا ناصر»، بهذا الشكل نام معها تلك الليلة، وأكثر من مرة، وفي كل المرات، كانت تسمعه يقول لها: «أنت حبيبي»، لم يزعجها ذلك، المهم أنهما ينامان مع بعض، وكل واحد منهما يقوم بدوره.

من رآهما في اليوم التالي وفي كل الأيام التي تلت، لظن أنهما عاشقان من الصعب تصورهما سينفصلان عن بعض ذات يوم، ليس بسبب رؤيتهما متلازمين غالباً، ليس بسبب رؤيتهما يدوران من محل أثاث إلى آخر، ليس بسبب سماع حديثهما الذي لا ينقطع عن المستقبل، وكيف أن الأمر إذا تُرك لهما لعاشا مع بعض وبهذا الشكل حتى الموت، كلا، ليس للأسباب المذكورة تلك، بل أكثر بسبب ميلهما للعزلة، عن الناس الذين أحاطوا بهما حتى تلك الليلة، طبعاً يمكن فهم تصرفهما بهذا الشكل، إذا تعلق الأمر بعلاقتهما بالجالية السعودية أو ببعض المعارف من العرب، فكل تلك العلاقات تظل في المحصلة علاقات عابرة، المهجر أو الغربية تفرض على المهاجرين والغرباء نوعاً من العلاقات شبيهاً بتلك العلاقات التي تنشأ بين مجموعة جمعها مازق واحد، محشورين في مصعد معطل مثلاً، أو في حافلة تسير ليلاً في طريق غامض، «حشر مع الناس عيد»، يقول المثل العربي، لكن يظل من غير المفهوم سلوكهما إزاء طارق بالذات، الصديق أو الحبيب الذي لازم ناصر كل سنوات طفولته ومراهقته وشبابه، ولو كان أحد قال لناصر من قبل، سيأتي اليوم الذي تنتهي فيه صداقتكما، لسخر منه، والآن؟ كيف يُمكن تفسير ما حدث لهما، لم يعتقد ناصر من قبل أنه لن يرى صديقه،

سارة قالت له، عليه أن يتدرب على ذلك، هي الأخرى فقدت صديقة حميمة لها، الهنوف، وكانت وسيلتها الوحيدة كتابة الرسائل، لماذا لا يحاول هو مثلها؟ كانت تعرف أن القصتين مختلفتين، الهنوف انتهى إخوتها إلى السجن، كما عرفت صدفة وهي ترى أسماءهم في مقال عن السجناء السياسيين في المملكة منشور في صحيفة الأندبنت البريطانية، التهمة: إنهما شيوعيان، كما جاء في الخبر ذاته، أما الهنوف وأمها، فلا تعرف المصير الذي انتهى إليه، كم اشتاقت لصديقتها، وكم هي عدد المرات التي توهمت بها أنها ستظهر أمامها فجأة ذات يوم.

ليال عديدة ظلت سهرانة تفكر بصديقتها لا تنام، ولا تدري إذا كانت هي الأخرى أحببت الهنوف بالطريقة التي أحب ناصر فيها طارقاً، أم إن ميلها كان نوعاً من التضامن بين فتاتين شعرتا بنفسيهما متميزتين عن بقية البنات؟ والآن عليها أن تقبل المصير الذي انتهت إليه كل واحدة منهما، الناس تقاوم فقدان في المرة الأولى، إنه رد فعل طبيعي عند البشر، وهو الشعور ذاته الذي يستحوذ من حين إلى آخر على ناصر كلما جاءت سيرة طارق، أو كلما احتاج ناصر للتشاور معه بصدد إحدى تجاربه الجديدة المتعلقة باختراعاته، إنها تتفهم ناصر، تتفهم فقدان له لصديقه، لكنها لم تشأ أن تخبره، أنها التقت بطارق في أحد المقاهي في مركز المدينة بعد يومين من تلك الليلة، ليلة اعترافاته لها، أنها تحدثت مع صديقه بصراحة، قالت له، إنها حرصت على لقائها به دون علم ناصر، لأنها تريد أن تبوح بما يدور في ذهنها، «هل تعرف؟» سألت سارة طارقاً، «الواحد منا يفكر ويظل وحيداً مع أفكاره، سجيناً مع أفكاره، ولا يشعر بأنه حرّ إلا عندما يتفوّه بما يدور في رأسه، ولا بأس أن يقول ذلك بصوت عالٍ»، ثم سألته، إذا كان مستعداً لأن يسمع ما تريد أن تبوح به. ربما عرف طارق بما دار في خلدنا في تلك اللحظة، لأنه طاطأ رأسه قليلاً، ربما لخبلة منها، صحيح أنه خجول بطبيعته، لكن يديه اللتين ارتعشتا قليلاً في تلك اللحظة، وشحوب وجهه، وبلعه لريقه، كل تلك

هي إشارات لا تؤكد على خجله أصلاً وحسب، بل تؤكد أيضاً أكثر على خشيته بل خوفه من سارة، كأنه توقع ما ستسمعه أذناه، قالت له سارة، إنها تعرف بعلاقتكما هما الاثنان، ناصر وطارق، تعرف، أنهما يحبان بعضهما وأكثر من صديقين، هي شخصياً لا تعرف ذلك، فهي لم تجرب الجنس مع فتاة حتى الآن، لكنها كلما قلبت الأمر وجهاً ووقفاً توصلت إلى نتيجة استحالة استمرار العلاقة بين الاثنين ولا يهم ما يكئه الاثنان من ولهٍ لبعض، «ستفقد عمك بالتأكيد في السفارة، ليس ذلك وحسب، بل سيرجمونكما بالحجارة»، قالت له، لم تحمل نبذة صوتها إشارة بالتهديد أو ما شابه، بل كما قالت له، إنها حريصة على حياة الاثنين، لا تريد أن يُطردا ويصبحا ملعونين، «بلادنا لا ترحم يا طارق، الحب لا مكان له في هذه البلدان، ولذلك اخترع الناس مئتي كلمة أو أكثر لكلمة حب، لذلك اخترع الناس أسطورة عنتره وعبلة، قيس وليلى، أو غيرها من الأكاذيب، وهم لا غير، سراب في سراب، الحب في بلادنا مقبرة للعشاق، من الأفضل لكما أنتما الاثنان، - قالت له - أن تكفّ عن رؤية بعضكما في المستقبل، القضية لها علاقة بالعادة، بالروتين، عليكم التدرّب على النسيان. - قالت له، قبل أن تضيف وبنبرة لا تخلو من التهكم - كل الناس عندنا تفعل ذلك، نحن شعوب تدرّبت على النسيان».

بعد جلستهما تلك التي لم تستغرق أكثر من نصف ساعة، لم تكفِ حتى لشرب فنجان الكابتشينو، لم يبقَ أمام طارق غير أن يعدها بكتابة رسالة يبلغ بها صديقه بقطع علاقتكما ببعض، وهي تلك الرسالة التي وصلت بعد يومين أو ثلاثة لناصر التي جعلت رأسه يدوخ.

للهولة الأولى لم يشأ أن يُري ناصر الرسالة لسارة، ولم يغير رأيه إلا بعد تردد طويل، قال لها بنبرة حزينة، بأنه لا يفهم ماذا جرى لصديقه، لا يريد أن يصدق أن حرص طارق على المحافظة على وظيفته هو وراء ذلك، كلا لم يكن طارق يوماً بهذا الشكل، لا بدّ أن يكون العولقي هو الذي حرّضه، العولقي

يخوم حول طارق منذ زمن طويل، لهذا السبب وقر له العمل في السفارة،
أعرف ذلك، قال لسارة.

لم تعلق سارة حينها على حديثه، قالت له الكلام ذاته الذي قالته لطارق،
النسيان هو العلاج الوحيد للشفاء، وفي حالته، لماذا يقلق؟ سألته، ففي النهاية
إنها هي معه، أمامهما الكثير من الأشياء، عليهما إنجازهما، ولا وقت عندهما لكي
يضيعاه، وعندما أخبرها بأن لا بدَّ له من الحديث مع طارق حول الموضوع،
قالت له، بأن من الأفضل له ترك الموضوع، فإذا كان حريصاً على صديقه عليه
أن يفعل ما اقترحه طارق عليه. «هل نسيت نظرة الناس إلى طارق؟ هل نسيت
وصف أبيك له ولأبيه؟ كم هي عدد المرات التي نعتته فيها بأنه ليس غير «ابن
العبد القادم من جازان»، أنا نفسي سمعت منه تلك التعليقات وأنا طفلة في
كل زيارتنا التي قمنا بها لكم في بريدة، من السهل طرد صديقك من وظيفته،
لا أحد سيقف خلفه أو سيحميه، لا اسم عائلة أو قريب، وهذا وحده سبب كافٍ
لكي تحرص عليه». قالت له، عليهما ألا يريا بعضهما بعد الآن، ليس من المهم
معرفة إلى متى يدوم ذلك، المهم هو ألا يلتقيا إلى حين، إلى أجل غير مسمى
كما يقول الناس عادة في هذه المناسبات، من الخطأ أن يواصل علاقته به كما
كانت حتى الآن، ليس لأن عليه أن يكون حريصاً على بقاء صديقه في وظيفته
في السفارة وحسب، بل لكي يعتق صديقه من حبه له، «اتركه يبحث عن حب
جديد»، قالت له بلهجة شبه أمره، ولأنها تعرف أن علاقته بطارق لم تكن حميمة
لهذا السبب وحده، إذ جمعهما اهتمامهما المشترك أيضاً، الاختراعات، أخبرته
كيف أنها أخلت له سرداب البيت، كيف أنها نظفته، وهيات له فيه كل ما يحتاجه
من جوّ ومعدات، لكي يبدأ بعمله متى شاء، أما من طرفها هي، فعليه ألا يقلق،
طالما أن أباهما يبعث لهما بالمال فهي لا تحتاج إلى العمل الآن، سجلت في
أحد المعاهد الاقتصادية في لندن، ثلاث سنوات وتنتهي من الدراسة وبعدها

لكل حادث حديث، لكنها على قناعة تامة، بأنهما بهذا الشكل، هو باختراعاته وهي بخبرتها التي ستكتسبها عن طريق الدراسة في المعهد سيعيشان في لندن بالشكل الذي يريدان، وعندما قال لها: «لكننا نعيش الآن كما نريد»، أجابته «أقصد العيش دون مساعدة من أحد، من قريب أو بعيد».

منذ حديثهما ذاك، راح الاثنان يستيقظان على الأغلب في الساعة السابعة صباحاً يفطران معاً، بعد ساعة ونصف أو أكثر بقليل تذهب للدراسة في معهد الدراسات الاقتصادية والسياسية في لندن، وهو ينزل إلى سرداب البيت الذي تحوّل إلى مختبر كبير لكي يعمل على تجاربه واكتشافاته. وفي الأيام التي لا تكون فيها دراسة، في أيام العطلة مثلاً، تصحو على صوت انفجار في السرداب، إحدى التجارب التي يقوم بها تبددت في الهواء، كما كان يوضح لها، مع الوقت اعتادت واعتاد معها الجيران على أصوات الانفجارات تلك والتي يمكن أن تحدث وتكرر في مختلف الأوقات، تقطع ساعات الفطور أو الغداء، أو العشاء أحياناً، إذا تأخر ناصر في السرداب، ولو لم تطلب منه التوقف عن العمل مساءً لبقى في سردابه في الليل أيضاً، حتى عندما انتهت سارة من دراستها في المعهد بعد 3 سنوات، واصل الاستيقاظ صباحاً في الوقت ذاته، هذه المرة تذهب إلى مكان عملها الذي حصلت عليه، في شركة إنكليزية للبحث عن المواهب الإدارية «شركة تريبير لصيد العقول» تقع في مكان ليس بعيداً عن بيتهما، في بادينغتون، فيما ظل هو مواظباً على عمله في مختبره الذي كبر وتوسع، ومن يراه يلبس معطفاً خفيفاً من قماش أبيض يشبه معطف الأطباء، سيتذكر لا محالة العديد من أفلام جيمس بوند، الرجل الشرير يقف أمام قواريره في سرداب ضخم، يجرب ويُجرب ومعه عشرات المساعدين، الفارق هو أن ناصر وهو يجرب لم يملك فكرة شريرة في يوم ما، كلا، كل ما ملكه ناصر في تلك الأيام هو تلك الفكرة الغامضة التي صاحبتة منذ الطفولة، صناعة إنسان آلي «سعودي».

على هذا المنوال توزع عالمهما، وعلى السنوات الخمس من إقامتهما في ذلك البيت، كان الاثنان مشغولين بعالمهما، هو في مختبره، أو في زيارة سوق الخردة بحثاً عن المواد التي يحتاج إليها، لا يهمه أنه فشل في اختراعاته أكثر من مرة، وأنها هي التي كانت تهتم بشؤون البيت والمصاريف، في السنوات الثلاث الأولى عاشا على الفلوس التي كان يرسلها لها أبوها، وفي السنتين اللاحقتين أضافت راتبها الذي حصلت عليه من الوظيفة، ليس لأنها طمعت بفلوس أبيها، بل لأن دخلهما الشهري لا يكفي لتغطية مصروفاتها وحدها، فكيف بمصروفات مختبر ناصر وما يحتاجه من معدات ومواد؟

نهاية الإنسان الآلي السعودي

خمس سنوات وناصر يحلم بتحقيق الاختراع الذي يسعى إليه، لم يثنه عن ذلك فشله أو شكاوى الجيران، خاصة في تلك المرات التي قاربت فيها أصوات الانفجارات في المختبر أصوات انفجار قنابل أو ديناميت، بعض الجيران لم يترددوا من طرق الباب عليهما، وعندما يكون هو في السرداب يكون مشغولاً مع نفسه لا يسمع الطرق على الباب، وكثيراً ما طالت وقفة الجيران عند الباب، يطرقون ويطرقون حتى يستسلموا ويعودوا أدراجهم محبطين بانتظار انفجار جديد، فقط في تلك الأوقات التي تكون فيها سارة في البيت، تفتح هي الباب تبسم لهم، تعتذر إليهم، ثم تحدثهم عن عبقرية زوجها ناصر الذي سيرى العالم يوماً ما سيخترعه تحت في السرداب.

خمس سنوات ظل الاثنان محبوسين في عالمهما، حتى في نهاية الأسبوع لم يتوقف ناصر عن الذهاب إلى سوق الخردة أو العمل في السرداب، فقط باستثناءات قليلة، في تلك الفترات من السنة التي يزورها فيها غازي الجاسي وحده أو معه زوجته، أم سارة، مشاعل، وعادة يكون ذلك في شهر أغسطس/ آب، وكان ناصر يضطر للبقاء مع عائلة زوجته، مع حماته أو مع حميه، يخرج معهما، يفسحهما في بعض الأوقات عبر لندن، رغم أنه لم يعرف المدينة

جيداً، لكنه كان يعرف سائقاً هندياً، يثق به، يؤجره في أوقات زيارتهما، أما أمه فلم تنجح إلا مرة واحدة في زيارتهما، ساعدتها في ذلك مشاعل، أعطتها في تلك المرة جواز سفرها لتسافر به مع غازي الجاسي إلى لندن، «الإنكليز ما راحوا يلاحظون الفارق بالصورة»، قالت لها مشاعل، «بالنسبة لهم، كل السعوديين شكلهم متساوٍ خاصة النسوان»، وكم كانت رمال فرحة، كم شعرت بالسعادة وهي ترى بعينيها ابنها ناصراً من جديد، يعيش سوية كما تمت مع الزوجة التي أرادت لها منذ الطفولة، يعيش سعيداً، لا يهم أنه يقيم بعيداً عنها، ففي النهاية يزور العاصمة البريطانية آلاف السعوديين سنوياً، كما قالت لهما، «الواحد منا ما يشعر بغربة وهو يمشي بشوارع لندن، دائماً يسمع سعوديين يرطنون، دائماً يشوف سعوديين على يمينه ويساره»، وأكثر شيء يسعدها ويجعلها تفتخر هو مواصلة ناصر لاختراعاته، لم تشعر من ناحيتها باليأس يوماً من أنه لن يحقق حلم الطفولة الذي صاحبه، صحيح أنها لا تعرف أو لا تفهم ما يريده من اختراعه، لكن قلبها يقول لها، «شلون ناصر يريد التقدم لأهله وبلده»، قالت الأم، مثلما تعرف، أن ناصراً يختلف عن بقية إخوانه التسعة عشر، الذين ضاعت أخبارهم، ويعلم الله إلى أين ذهبوا، وأين صاروا، كلا، ناصر يختلف عن كل الأشرار في العالم، لا يهدف إلا إلى الخير، في كل شيء يفعل، وغداً وبعد غد وتشوف بعينه كيف يتحقق الحلم، كما قالت لسارة.

كم فرح ناصر وهو يسمع أمه تتحدث عنه بهذا الشكل، لم تكن تلك هي المرة الأولى، لقد سمع ذلك منها وهو صبي صغير، كانت تشجعه دائماً على اختراعاته، في ذلك الوقت أيضاً كان عنده مختبره الصغير، قريباً من المطبخ شيدته على شكل صفائح، وعندما شبّ فيه حريق ذات يوم، ضربه أبوه ضرباً مبرحاً وسجنه في غرفة المؤونة، المستودع مع الخدم الهنود لمدة أسبوع، وأمّه التي حررتة بعد يومين، بعد سفر أبيه، تُرى ماذا سيقول الداعية الشيخ يوسف

الأحمد لو رأى مختبره الجديد في لندن؟ يقيناً سيلعنه من جديد، «تصنع إنسان آلي سعودي يا ملعون؟»، سيعيد عليه جملته المحببة وهو يصب لعناته عليه، كما سيذكره كيف أن «الإنسان السعودي فوق الجميع»، لأن «الله باختياره بيته على أرض المملكة، فضله على البشر أجمعين»، وأن ما يقوم به ابنه هو «عمل من رجس الشيطان الرجيم»، لحسن الحظ، لم يزره أبوه في لندن، ليس بسبب مشاغله التي زادت منذ انتقاله للإشراف على هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حفر الباطن، وليس بسبب عدم رغبته بزيارته في مدينة لندن، «إحدى المدن الفاسقة التي صبَّ الله عليها لعناته في كتابه العزيز، القرآن»، أو ليس بسبب أنه لم يُبَدِّ ذات يوم ميلاً ناحية الابن الوحيد الذي اختلف عن بقية إخوانه «المؤمنين»، الابن العاصي بالنسبة له «الذي فضل أباطيل العلم على الدين»، بل لأنه ومنذ حادثة فندق شيراتون الدمام، منذ ليلة العرس «المشؤومة» تلك، شطب على هذا الابن من حياته كأب تماماً، قال لزوجته، قولي له: «إنه ليس ابني بعد الآن، وأنا ألعنه إلى يوم القيامة».

لم ينزعج ناصر أو يحزن عندما سمع ذلك من أمه، على العكس شعر بالراحة للمرة الأولى، فهو لم يشعر يوماً بالفخر بأن أباه يحمل وظيفة كبير الدعاة، على عكس العديد من زملائه في المدرسة أو أبناء جيله الذين تفاخروا بعمل آبائهم في المجال نفسه، منذ أن أسست ما أطلق عليها الصحوات وشاع عمل الدعاة في سنوات الثمانينيات، بل على عكس أخوته التسعة عشر الآخرين، ستة عشر نصف أشقاء، فقط من ناحية أبيه وثلاثة أشقاء من أمه وأبيه، لم يشأ يوماً الاستفادة من اسم أبيه، كان يعرف مكانته عند الكثيرين، وكان مجرد ذكر اسمه يثير الرهبة في نفوس السامعين، «الشيخ يوسف الأحمد كبير الدعاة وراعي الصحوات»، كما قال له العولقي ذات يوم عندما أراد طمأنته بأن عليه ألا يهتم لطرده من العمل في السفارة، فهو وبسبب مكانة أبيه في العالم الإسلامي وبين الدعاة بالذات،

يستطيع العمل في أكبر الجوامع الإسلامية في لندن دون مشاكل، وقد سأل الشيخ أبا قتادة، إمام الجامع عن الأمر، فقال له: «الكل سيفرح بتعلم أبنائهم على يد ناصر، أولاد المسلمين يحتاجون تعلم العلم لضرب العدو»، قال له أبو قتادة بالحرف الواحد، وكان ردّ ناصر دائماً ذاته، كان يقول للجميع: «إذا عملت يوماً فأعمل بسبب مؤهلاتي وليس بسبب أبي، متى اخترنا آباءنا أو أمهاتنا؟»، وإن ما يخترعه يخصه وحده، لا يستطيع تعليمه لأحد طالما أنه لم ينته منه، وكان يعرف أنه وحده يعتقد بذلك، فباستثناء سارة وحتى وقت قريب طارق ليس هناك أحد يشاركه أفكاره، لا يهمه ما يفكر به الآخرون، سيواصل حياته مع سارة، سيظان في لندن ولن يغادر المدينة حتى ينتهي من اختراعه، لا يهم ما يُعرض عليه من مغريات أو ما تعرض له من مضايقات.

ذلك ما قاله لحميه غازي الجاسي عندما أخبره في السنة الخامسة من إقامتهما في لندن، بأنه هذه المرة يزورهما ويحمل معه الخبر - البشارة، أخيراً وافق صاحب السمو أمير المنطقة الشرقية على طلب الاسترحام الذي قدمه له باسمه صديقه المقاول اللبناني رفيق أبو ديغول، فحسب ما نقله صديقه الذي سعد نجمه بسرعة ليس كصاحب ثاني شركة مقاولات في المملكة وحسب، بل أصبح رئيساً لحكومة بلاده، بأن على ابنته وزوجها أن يطمئنا، فقد عمم صاحب السمو الأمير قرار العفو عن ناصر ابن الشيخ يوسف الأحمد وعن سارة بنت غازي الجاسي على كل المطارات، خصوصاً على مطار الدمام، «بإمكان ولدنا وابنتنا أن يعودا إلى ربوع مملكتهما في الوقت الذي يشاءن»، هذا ما نقله صديقه رفيق أبو ديغول عن صاحب السمو الأمير بالحرف الواحد، أليس هذا هو الخبر السار الذي انتظرتماه؟ لم يفهم غازي الجاسي حينها، لماذا قطب الاثنان جبينهما، بل لم يفهم رفضهما العودة وفي أقرب وقت، قالت له سارة وبطريقة دبلوماسية، لكي لا تجرح مشاعر أبيها: «إذا أردت سماع الحقيقة يا والدي فقد

تعودنا على لندن، العودة للمملكة وللخبر صعبة علينا، ناصر في المراحل الأخيرة من اختراعه وأنا أعمل في شركة محترمة، أعطنا الوقت للتفكير». أما ناصر فكان أكثر حزماً ومباشرة في جوابه، قال له: «يا عمي، أنا لا أريد العودة قبل أن أنتهي من اختراع ما عزمت عليه»، وحتى عندما أخبرهما غازي الجاسي، لا مشكلة في عودتهما، عليهما ألا يقلقا من ناحية مستقبلهما الوظيفي، «بإمكان سارة العمل في شركة آرامكو، تلفون بسيط مني لمدير الشركة والوظيفة تكون بين يديك»، قال لهما بالحرف الواحد. أما ناصر فبإمكانه متابعة اختراعاته، سيوفر له كل ما يحتاج، سيبنى على قطعة الأرض التي اشتراها هدية لابنته في حي إسكان الخبر، رغم ذلك كرر الاثنان رفضهما العودة.

رجع غازي الجاسي في سبتمبر/أيلول في ذلك العام إلى المملكة خائباً، لكنه لم يئس من إقناعهما بالعودة، فبعد قرابة عشرة أيام من عودته إلى وطنه من زيارته تلك، بالضبط في يوم الحادي عشر من سبتمبر، عندما صحا العالم على الهجمات الانتحارية على برج التجارة العالمي في نيويورك وعلى مبنى البنتاغون في واشنطن، في ذلك اليوم الذي شاع فيه الخبر بسرعة في العالم أجمع، أن سبعة عشر من الشباب التسعة عشر الذين نفذوا تلك الهجمات قادمون من جهة واحدة في العالم، من الخليج عموماً، خمسة عشر شاباً قدموا أصلاً من المملكة العربية السعودية وحسب واثنان من الإمارات، حزم غازي الجاسي حقائبه من جديد وقرر أن يزورهما في لندن من جديد، زيارة قصيرة، ثلاثة أيام فقط، في الحقيقة لو لم تكن ابنته وزوجها يعيشان في لندن لما كلف نفسه عناء السفر من جديد، «سفر السعوديين أصبح مشقة وبهدلة أحوال»، قال لهما مباشرة بعد وصوله وهم ما يزالون في مطار هيثرو، «تشوفون كيف أصبح السعودي الإنسان المشبوه الأول في العالم؟»، سألهما بصوت مرتعش لم يخلُ من الانفعال، ثم أوضح لهما وهو يحدق بالناس يميناً ويساراً، وبعد أن عدل

غترته للمرة العشرين أو الثلاثين، كيف أنه لا يريد أن يحدثهما عن إجراءات التفتيش التي تعرض لها في مطار هيثرو في لندن، ليس المهم ذلك، المهم أنه جاء لكي يأخذهما معه، «من اليوم وصاعداً المكان الوحيد الذي يحمي السعودي هو البقاء في ربوع المملكة»، قال لهما جملته تلك التي كررها عليهما أكثر من مرة، طوال إقامته القصيرة، لكنه ولدهشته لم يتوقع أن طلبه سيصطدم هذه المرة بالرفض أيضاً، وكأن الاثنين اتفقا على الأمر.

«ما علاقتنا نحن بما حدث، تلك الهجمات هي جزء من الحرب الدائرة في العالم، في كل مكان. أمس ضحايا هناك، اليوم ضحايا هنا»، قالت له سارة، «الدول الكبرى تلعب الكرّ والفرّ». أما ناصر فقال له: «على العكس، اليوم أنا أكثر إصراراً على اختراعاتي»، لأن ما حدث منحه قناعة أكبر، كم هو على حق، عليه أن يبذل كل ما في وسعه، لكي ينتهي من تصنيع إنسان سعودي جديد، اليوم شارك خمسة عشر سعودياً في الهجوم، غداً سيكونون جميعهم سعوديين، «المملكة بحاجة لإنسان جديد»، قال بصوت حازم، والواجب الملقى على عاتقه، يقول له: لا بدّ أن يمنع ذلك. مرة أخرى شعر غازي الجاسي بالخيبة، ومرة أخرى كانت الحجة ذاتها التي تدرّج بها الاثنين، سارة قالت له، إنهما اعتادا على حياتهما في لندن، وإن العودة للمملكة وللخُبر صعبة عليهما. أما ناصر فالأمر لا يحتمل النقاش معه، قال له، إنه في المراحل الأخيرة من اختراعه، ولا يريد العودة قبل أن ينتهي من اختراع ما عزم عليه، لم يعرف غازي الجاسي كيف يتصرف، لو تعلق الأمر بناصر وحده لترك الأمر، لكنه يخاف على ابنته، الطريقة الوحيدة لحملهما على العودة هي الإيجار، في اليوم التالي قرر زيارة مكتب السمسار الذي اشترى عن طريقه البيت، ليتفق معه على إجراءات بيعه هذه المرة، ستة شهور كأقصى حدّ، تلك هي المدة التي منحها للاثنين، قال لهما أو قال لابنته سارة أولاً، وهذه المرة كان أكثر حزمًا، كيف أنه لم يبقَ أمامه غير أن يمنحهما فرصة ستة شهور،

وعليهما ألا يندھشا عند انتهاء المهلة إذا جاء مالك البيت الجديد يطلب منهما إخلاء البيت، «لا أهل يأوون الغريب غير أهاليه الأصليين»، قال لهما غازي الجاسي قبل أن يودعهما في مطار هيثرو، ظن أنه الإنذار الأخير، ظن أن الاثنين سيدعنانا لاقتراحه لا محالة، ليس لصعوبة عيشهما بدون المبلغ الذي يرسله إلى سارة شهرياً، بل أكثر، بسبب المختبر الذي بناه ناصر في السرداب، ليس هناك صاحب بيت سيسمح له ببناء مختبر مشابه في حالة انتقالهما إلى بيت آخر، انتهت مدة الستة شهور بالفعل، رفض الاثنان العودة.

الشيء نفسه حصل، عندما اتصلت أختها أسماء بها، بعد شهرين من عودة والد سارة من لندن، لتخبرها كيف أن أبها يرقد في المستشفى، «ماذا أقول لك؟»، قالت لها وهي تبكي، «كله بسبب خالنا، خال البين، الشيخ يوسف الأحمد، هو الذي حرّضه»، ثم روت لها، كيف أن الشيخ الداعية يوسف الأحمد عرف في النهاية أين تعيش «عمتنا سارة»، ألقى رجال الهيئة عليها القبض وهي تقود سيارتها الـبيك آب، كانت متنكرة بزى رجل، كعادتها عندما تقود سيارة، كانت تحمل موضة في طريقها إلى المدرسة.

«أنتم ما تدرّون، أنا ساعدتها، تدرس عندي في المدرسة»، قالت لها أختها أسماء بنبرة كلها فخر لعدم إفشائها السر طوال هذا الوقت، ثم أكملت وهي تبكي: «منذ أن بدأت العمل في حفر الباطن، وأنا أساعد موضة»، ثم بأسف: «طوال هذا الوقت ولا واحد كان يعرف، والآن عرفوا بعد التحقيق معها، أنها تعيش مع موضة وزوجها فهد المنقور في وادي الباطن»، ثم روت لها، كيف أن أباهما عرف بمكان سكنها عن طريق الهيئة، «خالنا شيخ الشر يوسف الأحمد سمي له المكان، وفراسة راجو جعلته يستدل على المكان بسرعة»، ليذهب في اليوم نفسه، حاملاً سلاحه، هناك حصل تبادل إطلاق نار مع زوج العمّة، «أبونا نقلوه اليوم للمستشفى»، قالت لها أسماء، «آه»، بقية القصة عرفتها سارة لاحقاً من عمّتها نفسها، لكن في تلك اللحظة،

عندما سمعت الخبر من أختها أسماء، قالت في نفسها وهي تخرج حسرة، لماذا يحدث كل شيء معكوساً لها، كم هي فرحة بمعرفة أن عمته، أخت أبيها، سارة، التي سُميت هي على اسمها تيمناً بها، ما تزال ليس على قيد الحياة وحسب، بل ما تزال تلك المرأة المختلفة، الخارجة عن المألوف من النساء، لكي لا تقول المتمردة، كم عمرها الآن؟ بالتأكيد في أواسط أو أواخر الأربعين، لكنها رغم ذلك لم تتعب من الكفاح، تقود سيارة، تجلب موضة التي هي بالنسبة لها ابنتها إلى المدرسة، تعيش في الصحراء، تمارس العمل اليدوي، كل ما يمكن أن يمنح القيمة والاحترام لإنسان، لا يهمها ما يقوله عنها الآخرون، متشبثة بالحياة، وليبق الآخرون مع غيهم، كم يفرحها معرفة ذلك، وكم كان بودها أن تقوله لأختها أسماء، لكن عليها في الوقت نفسه، أن تحزن، بسبب ما حدث لأبيها.

كان ذلك أكثر ما كانت تخافه في حياتها، أن ينفذ ما نواه في داخله: «غسل العار»، رغم أنه لم يطلق النار على أخته، بل حاول قتل زوجها فهد المنقور، من يعلم، ربما لو لم يجرحه فهد المنقور، لما كان اكتفى بقتل زوج أخته، ربما كان قد قتل أخته أيضاً، كم بودها أن تسأل أباه، لماذا فعل ذلك؟ من الصعب عليها أن تحبه بعد الآن، لقد خذلها، مرة أخرى خضع لمنطق الشيخ الداعية الشيخ يوسف الأحمد، وليس لمنطقه الخاص به. ربما فكرت لحظة بالعودة، لحظة سماعها الخبر من أختها، ربما كان رد فعلها تلقائياً، جاء بسبب الصدمة، لكنها إذا فكرت بالأمر بامعان، فإنها لا تجد سبباً يستدعي عودتها، على العكس، من الأفضل أن تبقى على مسافة من أبيها، ليست تلك هي المصيبة الأولى في حياتها، «حياتي مجموعة من المصائب لا غير»، قالت في نفسها. لبرهة قررت أن تجمع قواها، أن تكون أكثر شجاعة، ولا يهم، أن ما ستقوله سيصدم أختها أسماء، وبقية أفراد العائلة، وأمها في المقام الأول، لأنها ظنت بأنها ما تزال حية، ولم تعلم، أن أختها وخوفاً عليها من الصدمة، أخفت عنها خبر وفاة

أمها مباشرة بعد حادثة إطلاق النار، «شظل عندي يا أختي؟»، لم يعد لديها ما تفقده، قالت لأسماء بصوت حازم: «أعتمد عليك يا أختي، تعرفين ظروفني ما تسمح لي بالعودة»، وعبثاً ردت عليها الأخت قائلة: «لكن والدك محتاجك يا سارة»، أو: «تعرفين حبه لك أكثر من كل واحد منا»، «أعرف يا أسماء»، ثم وبصوت أكثر حزماً، «ولأنه يحبني، ولأنني أحبه، أفضل البقاء في لندن». لم تشأ سارة العودة، كانت حازمة في قرارها، وحسناً أخبرت سارة ناصراً بالقصة، لأنه فقط بهذا الشكل كان مهياً للجواب، عندما اتصلت به أمه، تطلب منهما العودة فوراً «بعد ما حدث من مصيبة»، قالت له، بشكل مقتضب، ظناً منها أنه يعرف التفاصيل، لكن لا الأم ولا أختها أسماء عرفتا، مثلما لم يعرف قبلهما غازي الجاسي الذي رقد مضرجاً بجراحه في الكوما هذه المرة، أن الشرطة البريطانية، شرطة اسكوتلانديارد وعملاء الاستخبارات العسكرية أم. آي. فايف وكل أجهزة الشرطة السرية البريطانية الأخرى ستفخذ لهم ما أرادوا. على الأقل فيما خص مدة الستة الشهور، التي منحها غازي للجاسي للثنتين، إذا لم تجعل قرار عودتهما أمراً تقرره الأجهزة الأمنية البريطانية لهما.

ذات صباح شتائي بارد، صحا الجيران في حي تشيسيك اللندني، في ساعات الفجر الأولى، في الساعة الخامسة صباحاً، أو ربما قبلها بكثير على مشهد أقرب لأفلام الخيال العلمي، عشرات سيارات الشرطة والجيش طوّقت الحي الراقي، بعضها مجنزرات ضد القنابل والرصاص سدّت مداخل الشوارع التي تقود إلى البيت الذي أقام فيه سارة وناصر، فيما حامت في الجو أكثر من عشر طائرات هيليكوبتر، مئات من رجال الشرطة والجيش، حمل قسم منهم الرشاشات والقسم الآخر حمل على كتفه مدافع الهاوون، توزعوا في الشوارع المحيطة، أغلبهم حصّن نفسه في حالة تأهب خلف متاريس بُنيت بسرعة في الشوارع وعلى السطوح، وفي مقدمة تلك الجموع تقدم عسكري طويل القامة، لبس بدلة واقية

ضد الرصاص وغطى وجهه بقناع، فيما مسك في يده مايكروفون حثّ الناس على مغادرة بيوتهم حرصاً على أرواحهم قبل حدوث مواجهة مسلحة أو انفجار، كما قال بصوت عالٍ، وخلف هذا العسكري بالذات تحرك فريق تلفزيوني تابع لمحطة تلفزيون بي. بي. سي.، ضم ثلاثة أشخاص، مصوراً حمل كاميرا كبيرة، وتكنيكي صوت حمل على كتفه جهاز تسجيل، ومعلقٌ بشرته سمراء غامقة، ربما هندي الأصل أو باكستاني أو عربي، لبس خوذة عسكرية وسترة واقية من الرصاص، فيما مسك المايكروفون بيده اليمنى، وفي الأخرى ورقة صغيرة، يعلق بشكل مباشر ويؤشر حواليه، حيث خرج الناس بعضهم في ملابس النوم، العديد منهم لفقوا على أنفسهم بطانيات، بدا المعلق مرتبكاً، كأن تلك كانت تجربته الأولى مع الخطر.

كانت ساعات الصباح الأولى وكانت هناك ريح باردة قوية، حتى تلك اللحظة، لم يعرف الاثنان، لا ناصر ولا سارة اللذان استيقظا على عادتهما للتوّ، بأن كل الجيوش المدججة تلك، بكل ما جاء معها من سيارات مجنزرة وطائرات حامت حول البيوت في الجو، جاءت من أجلهما هما بالذات، أو لنقل جاءت من أجل شخص واحد، شاب بشرته سمراء شاهده الناس يوماً يدخل سرداب البيت ببدلته البيضاء التي تشبه بدلة طبيب أو بدلة محلل كيميائي يعمل في مختبر ما، يدخل في ساعات الصباح الأولى ولا يخرج إلّا في ساعات متأخرة من المساء، يجري تجارب لا أحد يعرف ما هي حتى اليوم، ولم يمرّ يوم ولم يسمع فيه الجيران أصوات مفرقات تشبه الانفجارات قادمة من السرداب، كما جاء في النشرات الإخبارية في ذلك اليوم، وفي صحف اليوم التالي، التي اعتمدت جميعها في نقلها للخبر على المعلومات التي قدمتها شرطة اسكوتلانديارد وأجهزة الشرطة السرية الأخرى، أم. آي. فايف مثلاً وغيرها من من أجهزة المخابرات، «أية معجزة»، كتبت بعض الصحف المشهورة، صحيفة التايمز مثلاً: «أن تنجح أجهزة الشرطة

البريطانية للمرة الأولى في تاريخ عملها المخبراتي بالتنسيق فيما بينها لإلقاء القبض على الإرهابي السعودي النائم هذا، وشكراً». كما كتبت صحيفة أخرى، صحيفة «صن» مثلاً: «بأن العالم بدأ يعرف الآن أن العدد الأصلي للذين خططوا لهجمات 11 سبتمبر لم يكن تسعة عشر إرهابياً في الأصل، بل هو في الحقيقة عشرين، أما الإرهابي رقم عشرين الذي كان عليه الالتحاق بهم فقد تخلف في لندن بسبب تحضيره لهجوم كبير كما اتضح الآن، قال لهم، كيف نهجم على أميركا فقط؟ ماذا عن حليفتها بريطانيا؟ أية مفاجأة إذن». كتبت صحيفة أخرى، ديلي ميورور: «أن يكون الإرهابي النائم هذا، السعودي الجنسية، يقيم ويعمل بيننا، طوال كل هذه السنوات وبحرية، في حي أرستقراطي مثل تشيسك، رغم أنه ليس في حوزته إقامة أو أوراق شرعية؟ هل من المعقول أن أحدهم يعيش بدون أوراق كل هذه السنوات؟».

هكذا بدل أن يجري يومهما كما جرى طوال مدة إقامتهما في البيت، سارة تخرج مبكرة للدراسة أو للعمل، وناصر ينزل للسرداب، فوجئ الاثنان برجال مسلحين ومقنعين يركلون أبواب البيت بأقدامهم بعنف، يدخلون عليهم فجأة ويطلبون منهم رفع أيديهم، «هاندز آب»، بسرعة البرق سمع الاثنان صوت قيد اليدين، الكلبش وهو ينغلق حول معصم كل منهما، قادهما رجال الشرطة بعنف وهما يدفعانهما إلى الأمام بأعقاب البنادق، لم يسمحا لهما حتى بجمع ما يحتاجانه من ملابس، لحسن حظها كانت سارة لبست فستانها وصففت شعرها ومكيجت وجهها، كانت على أهبة الخروج لعملها، أما ناصر، فلسوء حظه كان ما يزال يلبس الدشداشة، لم يحلق ذقنه أو يمشط شعره، وعندما أصبحا في الشارع ورأيا حشود الناس تشير إليهما، لم يفهما ما كان يدور حولهما، لا الشرطة ولا أحد من الذين وقفوا هناك يراقبون المشهد، استطاع مساعدتهما لمعرفة الأمر، كان من الصعب توضيح ما حدث لهما، ولحسن حظهما انتبها إلى مصور

تلفزيون محطة بي. بي. سي. يصبو الكاميرا ناحيتهما، وزميله المعلق الهندي أو الباكستاني أو العربي الأصل يشير ناحيتهما، لم يخطر على بالهما في تلك اللحظة غير أن يصرخا وبصوت عالٍ بأنهما بريئان:

«وي آر إنيسونيت، رلي، وي دونت واي أول أوف دِس؟» قال الاثنان بصوت واحد، دفعهما رجال الشرطة إلى داخل سيارة لنقل السجناء، كانت السيارة مغلقة من الداخل، ما إن جلسا في داخلها وتنفسا بعمق وهما يحدقان ببعض، لا يفهمان ما يدور حولهما، ألبسهما الشرطي والشرطية كبوساً على رأس كل واحد منهما، في ذلك اليوم اقتيد الاثنان إلى سجن بلمارش، ناصر في سجن الرجال وسارة إلى سجن النساء، منذ ذلك اليوم وناصر ابن الشيخ يوسف عبدالله الأحمد يحمل لقب: الإرهابي العشرين، أما سارة بنت غازي ذيبان الجاسي فتحمل منذ ذلك اليوم وحتى إطلاق سراحها لقب: عشيقة الإرهابي العشرين، لأن الشرطة لم تعثر على عقد زواج في البيت أو وثيقة رسمية تشير إلى زواج الاثنيين!

في عودة سارة واكتشافها كتاب «إثم سارة»

لم تبَقْ سارة في السجن أكثر من شهر، ليس بسبب براءتها أو بسبب براعة كبار المحامين الذين وكلتهم للدفاع عنها، بل بسبب خطأ ارتكبه وزير الداخلية البريطاني، ديفيد بلانكيت، ولكي يُبعد السياسي العمالي عن نفسه التهمة التي أطلقها الصحافة والمعارضة عليه، أنه يطبق القانون الجديد لمكافحة الإرهاب بشكل عشوائي، سواء فيما حدث عند اعتقال الاثنيين، سارة وناصر، أو في حالة إطلاق سراح اثنين مشتبه بهما سبق وأن أُعتقلا بناء للقانون نفسه مع تسعة مشتبهين آخرين، أُلقي القبض على ثمانية منهم في منتصف كانون الأول/ديسمبر من عام 2001، واعتُقل واحد في نهاية ديسمبر، في يوم الكريسمس الماضي، أما الاثنان الأولان فقد اعتقلا قبل اعتقال سارة وناصر بيوم واحد، وجّه الوزير رسالة خطية إلى مجلس العموم البريطاني قال فيها، إن كافة المعتقلين مودعون رهن الاعتقال لانتهاكهم قوانين الهجرة ولا يواجهون أية اتهامات جنائية، وإن اعتقالهم كان «ضرورياً ومتكافئاً». صحيح أن القانون الجديد يسمح بإيداع الأجانب الذين يشكلون خطراً أمنياً، ولكن لا يمكن ترحيلهم أو مقاضاتهم، رهن الاعتقال إلى أجل غير مسمى دون تهمة أو محاكمة، إلا أن ما فات الوزير، هو أن سارة غازي ذبيان الجاسي على عكس ناصر يوسف عبدالله الأحمد، كانت تملك حق الإقامة والعمل لعام آخر، وأنها تعمل موظفة في شركة «تريبير»

لصيد الأدمغة العلمية الفذة، المفاجأة تلك التي جاءت في ريبورتاج بثته قناة التلفزيون البريطانية بي. بي. سي.، واشتغل عليه ليس غير ذلك الصحفي الأسمر، الهندي أو الباكستاني كما تبين من اسمه، سانجاي روانداي، الذي صور اعتقالهما، وقع على رأس وزير الداخلية مثل الصاعقة.

في اليوم التالي على بث التقرير، وبعد أن تأكدت وزارة الداخلية من صحة المعلومات أطلق سراح سارة فوراً، ولكي يُنهي الوزير اللغط الذي نشأ حوله حتى إنه لُقّب تهكماً «بغ بلانكيت» بإشارة لـ «بغ بروذر»، لقوانينه الصارمة، صرح ناطقه الرسمي في مؤتمر صحفي عقده بهذه المناسبة في لندن، «بأن الفتاة السعودية الشابة هذه كانت ضحية إرهابيين أوقعوها في حبالهم، فالشاب هذا، ناصر الشيخ يوسف الأحمد، الإرهابي رقم عشرين، وعدها بالزواج وجلبها معه إلى لندن، لكنه استخدمها كواجهة علنية للتستر على إقامته غير الشرعية وعلى مخططاته الإرهابية، فهل هناك أفضل من العيش مع امرأة غير محجبة، امرأة عصرية، لا تختلف كثيراً عن الفتيات البريطانيات الأخريات، لكي يمنح المرء الانطباع بأنه يعيش في الغرب بصورة طبيعية؟». قال الناطق الصحفي بحماس لا يختلف عن كل هؤلاء الناطقين الرسميين باسم حكومات أو وزارات، ثم قام بعرض صور تفصيلية للمختبر الذي شيده وعمل فيه ناصر في سرداب البيت، كل قنينة كانت بالنسبة له تحوي على مواد كيميائية لصناعة قنابل و متفجرات، كل خريطة تفصيلية لتجارب ناصر حوت بالنسبة له الخطط التي رسمها ناصر. «أما صورة الإنسان الآلي السعودي الجديد الذي لبس في المخطط دشداشة أنيقة وغترة بيضاء خفيفة لم تغطّ كل رأسه كما تفعل الغترة التقليدية، فهو ليس غير نموذج تشريحي للإرهابي رقم عشرين لمعرفة وضع الأحزمة الناسفة في مكانها الصحيح، كما أنها ليست المرة الأولى التي يعمل فيها على مخططه، لقد سبق له وأن أجرى تجارب على عمل في المنامة عاصمة البحرين، لندن هي المكان

النموذجي لمخططه الشرير». قال الناطق، ولكي يثبت ذلك عرض أمام الحاضرين صوراً إضافية لغرفة ناصر في القسم الداخلي عندما كان ما يزال طالباً في جامعة المنامة، والتي لم تبدُ غرفة طبيعية لسكن طلابي، بل بدت مثل مختبر كامل التجهيزات، «كما ترون». قال الناطق الصحفي وهو يعدل نظارته الطبية السميقة ويتمخط: «نحن الآن أمام نموذج جديد للإرهابي النائم، الإرهابي رقم عشرين الذي لم ينجح بالتحاقه بإرهابيي نيويورك التسعة عشر، أيها السيدات والسادة، إنه مثال حي للصورة التي ستكون عليها صورة الإرهابي الجديد الذي ستراه في القرن الحادي والعشرين». بتلك الكلمات ختم الناطق الصحفي مؤتمره.

كلمات جعلت سارة تضحك وتضحك عالياً، لكن أيضاً تبكي وتبكي، أي إرهاب أو بطيخ، «بالمشمش»، علقت ساخرة، وعندما طلبت من محاميها التدخل لإطلاق سراح ناصر، لأن كل ما تحدث عنه الناطق الصحفي لوزارة الداخلية سخيف، قالوا لها، إن عليها أن تنتظر، فهم لا يستطيعون مساعدته في الوقت القريب، ناصر على عكسها، لم تكن في حوزته إقامة شرعية، أما قصة عمله في المختبر لأغراض علمية سلمية فلا يصدقها أحد لا في الشرطة ولا في الصحافة، وهي تعرف أنهم على حق، لا أحد يصدق قصة المختبر وقصة الإنسان الآلي السعودي الجديد. المحققة التي حققت معها، طلبت منها أن تغلق فمها. ولكي ي اخترع المرء قصة، لكي ينسج المرء قصة من صنع الخيال عليه الاعتماد ولو على النذر اليسير من الوقائع. «أنتِ تستطيعين أن تقولي لي الشمس تشرق في الغرب وتغيب في الشرق، لكنك لا تستطيعين أن تحدثيني عن قصة سعودي له علاقة بالعلم أو الاختراع؟ النفط والقمار والإرهاب وممارسة الجنس مع الجمال، تلك هي ماركتكم الموحدة»، قالت لها.

كم ضحكت سارة في داخلها، لكنه ضحك أشبه بالبكاء، كم ضحكت، في بلادها لا أحد يصدق أصحاب المذاهب الأخرى، يقولون عنهم، روافض، وكل

رافضي هو متهم إلى حين إثبات براءته. والآن في أوروبا وفي كل مكان لا أحد يصدق سعودياً، كل سعودي متهم إلى حين إثبات أنه بريء، أية مفارقة، فهي بلغت قرار عدم السماح لها بزيارة ناصر على مضض، لكنها عندما طلبت من محاميها رفع دعوى ضد وزارة الداخلية للحصول على تعويضات، قالوا لها، من الأفضل لها ألا تفعل ذلك، من الأفضل لها نسيان ذلك ومغادرة لندن إلى حين، إنها متهمة بتمويل عمليات الإرهاب، وعليها التفكير بالأمر بجدية، ليس هي وحدها، أبوها هو الآخر متهم بالتهمة نفسها، وحسب القانون الجديد لمكافحة الإرهاب يُمكن الحجز على حساباته أو تجميدها في البنوك الغربية، قالت لهم، «أبي مريض قعيد الفراش منذ شهور»، فأجابوها، «نعم»، يعرفون أن تلك التهمة سخيفة لا صحة لها، لا تعتمد على أساس، لكن الوقت لا يجري في صالحهم في هذه الأيام، إنهم بانتظار قرار محكمة الاستئناف أولاً فيما يتعلق بالدعوة التي رفعوها على وزارة الداخلية ضد اعتقال ناصر بتهمة الإرهاب، إذا حصل ونجحوا بإطلاق سراح ناصر، فسيكون لكل حادث حديث، لكنها إذا أرادت نصيحة منهم، فإنهم ينصحونها بمغادرة بريطانيا قبل انتهاء مدة إقامتها، لكي لا تعتقلها السلطات من جديد بحجة نفاذ مدة الإقامة.

لا حاجة لهم لأن يقولوا لها، هي تعرف ذلك، تعرف أن هذه المدينة لندن التي أحببتها أصبحت غريبة عنها تماماً، لا تعرف ماذا تفعل فيها بعد الآن، كل شيء ضاع ببساطة، والوحدة التي بدأت تشعر بها قاتلة، لكن كيف تغادر وتترك ناصرًا وحده؟ تذكرت عنادها القديم عندما كانت ما تزال طفلة صغيرة، عندما كانت تسأل نفسها، من أنا: آرامكو أم سارة؟ ما الذي عليها أن تصبح عليه الآن؟ لكن مع هؤلاء لا ينفع عناد ولا بطيخ، وهي لم تتخيل يوماً أن شخصاً «أعمى» يحتل منصب وزير، وأيّ وزير؟ وزير داخلية، ما يجري يفوق تصورها، حتى العميان في هذا البلاد بلا قلب، قالت لنفسها، ولو كانت في حوزتها قبلة في

تلك اللحظة، لكانت أول ما ألقته على موكب الوزير «الأعمى» هذا، للمرة الثانية لا تستطيع إنقاذ مَنْ تحب؟ فمثلما لم تستطع مساعدة صديقتها الهنوف لم تستطع مساعدة ناصر هذه المرة، لكن ماذا تفعل فتاة عزلاء مثلها؟

لم تعرف ماذا تفعل؟ حتى في البيت، بيتهما، وبالرغم من أنه ما زال مسجلاً على اسم أبيها، بقي على الأقل شهر آخر حتى تنتقل ملكيته لشخص جديد، لم يُسمح لها بعد مغادرتها المعتقل بالإقامة ولو مؤقتاً فيه، بل لم يُسمح لها حتى في دخوله، وضعوا شريطاً أحمر عليه خطوط بيض، تحول إلى مكان للجريمة كما كتبوا على قطعة صغيرة عند مدخل البيت.

رغم ذلك لا تريد أن تهرب، ما زال ختم الإقامة على جوازها لم ينفذ مفعوله، أمامها بعض الوقت، شهور أخرى، عليها أن تقضيها في لندن مهما كلفها ذلك من جهد وحرق أعصاب، في الشركة، شركة «تريير» لصيد الأدمغة العلمية الفذة لم يعد لها مكان، مباشرة بعد اعتقالها أصدرت الشركة قراراً بتسريحها، ما تزال عندها بعض الفلوس في حسابها، لحسن الحظ لم يُجمد حسابها كما أراد وزير الداخلية في البداية، سحبت كل ما ادخرته في البنك، دفعت للمحاميين أجور أتعابهم مقدماً، ونزلت في غرفة صغيرة، «بيد أند بريكفاست» سرير وفطور في منطقة كوينزوي، قريباً من محطة بادينغتون، تدفع إيجارها أسبوعياً، عليها أن تكون حذرة في مصروفها لكي يكفيها المبلغ الذي تحت تصرفها الوقت الكافي، كانت مصرّة على البقاء على الأقل حتى معرفة جواب المحكمة على الدعوى التي رفعها المحامون ضد اعتقال ناصر، لم تشأ أن تستسلم، بل لم تشأ طلب المساعدة من أحد، لا من طارق ولا من العولقي، وأقله من السفارة السعودية، الأول لم تفكر بالذهاب إليه، لأنها هي التي طلبت منه الانفصال عن صديقه فبأي وجه تذهب إليه؟ الثاني، تعرف أنه يحوم حولها، مرات عديدة وجدته ينتظرها عند مغادرة مكان عملها، وفي كل المرات كان يكذب، يقول لها، إنه

جاء مصادفة هناك، تعرف من نظراته، من عينيه اللتين تنفتحان على سعتهما عند رؤيته لها، أو من طريقة حديثه معها، تعرف أنه يشتهيها، يريد النوم معها، لأنها بالنسبة له «عاهرة» تصلح للنكاح لا غير، ولو أنها تعرف، أنه سيغادر لندن بين ليلة وضحاها، قبل مغادرتها هي المدينة، وسيظهر بعدها قائداً إرهابياً في اليمن، كما قرأت في بياناته وتهديداته التي نقلتها الصحافة والتي كان يطلقها من مخبئه في صنعاء أو حضرموت، لما شغلت نفسها بالتفكير بأمره أبداً. إذن لهذا السبب كان يطلب من ناصر أن يكون معلماً للفيزياء في الجامع الكبير في لندن، قالت لنفسها، أما ما يخص السفارة السعودية، فبأي وجه ستسألهم المعونة، سيقولون لها: «ها تعرفين بلدك في الشدائد فقط؟»، سياساومونها، ويفرضون عليها شروطهم، والتي هي غالباً مجحفة، لا علاقة لها بشروط أنها مواطنة أو بحقوق إنسان، كلا، كانت مصرة على الاعتماد على نفسها، تعتقد أنها قادرة على إخراج ناصر من سجنه في بلمارش.

في كل القصص التي قرأتها في طفولتها يحزر الأمير الفتاة البسيطة المسحورة من سجنها، هذه المرة تريد أن تكون هي الأميرة التي تحرر الفتى البسيط المسحور من سجنه، هذا الحصن المنيع في حي تيمزويد في جنوب شرق لندن، ولا يهمها ما ستفعل، وطوال إقامتها الأخيرة في لندن لم تئس سارة، كانت تستيقظ يومياً، تتصل بالمحامين، تجمع قصاصات الجرائد، تُسجل تقارير الراديو والتلفزيون، خصوصاً الريبورتاج الذي عمله سانجاي روانداي، الصحفي الهندي أو الباكستاني في قناة بي. بي. سي.، تتصل بالمحامين، بمنظمات حقوق الإنسان، بأحزاب المعارضة، فقط الجوامع لم تدخلها، وكلما نهضت في الصباح متفائلة، نامت في الليل حزينة ومتشائمة لأنها لم تعثر ما يساعدها.

ما منحها العزيمة أكثر، هو اتصال أختها أسماء من حين إلى آخر، أيام الجمعة مساءً بالتحديد، ليس لأنها كانت بحاجة لوقوف شخص واحد على الأقل إلى

جانبتها، يخفف عنها وحدتها، بل لأنها كانت أيضاً بحاجة لطرده أي شعور بالذنب يمكن أن ينشأ عندها، بأنها بقيت في لندن وأبوها في حال الغيبوبة قعيداً في الفراش، في كل مرة كانت تسأل أختها عن حالته، فتجيبها الأخت، بأن وضعه ما يزال كما هو، فتخرج سارة حسرة، وتقول لأختها: «ثقي يا أختي، لو كان الأمر بيدي لغادرت اليوم قبل باجر لندن»، وفي هذا كانت صادقة بما تقول، كانت زهقت بالفعل وضاقت بها العيش في لندن، وليس لأنها اعتقدت بأنها يمكن أن تفعل شيئاً لأبيها، كل هذه الأوراق الرسمية وحرق الأعصاب، ليس من السهل إثبات براءة أحد دُمع بتهمة الإرهاب، لكنها لا تريد أن تترك ناصراً وحده، فمن له غيرها، وإذا لم تنقذه هي، فمن سيهمه المصير الذي سينتهي إليه، تعرف أنها امرأة تقاوت الصخر بجسد من زجاج، لكنها ستكافح، ستفعل المستحيل، حتى آخر يوم من إقامتها، لا يهم أنها بدأت تدبل، تفقد من وزنها، يشحب وجهها، لا يهم أنها كل يوم أكثر يأساً، وجهها عابس، تنام قليلاً، وإذا نامت، فإن نومها عذاب، الكابوس يلي الكابوس، مرات عديدة تقفز في الليل مذعورة، حتى العجوز صاحبة البيت، العجوز الطيبة التي أجرتها غرفة، أخبرتها، أنها سمعتها تصرخ «هلب» في بعض المرات، لا يهم كل ذلك، ستبقى في لندن.

كانت في تلك الأيام أيضاً التي بدأت فيها سارة تشرب ليلاً قنينة من الكونياك الرخيص، ليس لأنها اكتشفت سحر الشراب القوي ذلك بنفسها، بل لأن الصدفة قادتها من جديد أن تلتقي بتلك المرأة العراقية التي سبق وأن التقت بها مرتين أو ثلاثاً في ساوث هول أو في إيلينغ بروودواي، لا تتذكر بالضبط، المرأة التي تكبرها ربما بثلاثين عاماً على الأقل والتي كان اسمها سُنْدَس أو نرجس أو ياسمين أو ما شابه، هذه المرة التقتها سارة بعد ثلاثة شهور من إطلاق سراحها، في منطقة راقية، في محلات هارو في نايتبريدج وهي تتأبط شاباً يصغرها بالتأكيد بأكثر من عشرين عاماً بدا عليه من طريقته

بالمشي وحركات يديه وتأبطه للمرأة والماكياج الذي على وجهه، أنه جنسي مثلي، «ابن أختي»، قالت لها المرأة، منعاً لأيّ التباس أو لأيّ سوء فهم يمكن أن يصدر من طرف سارة، ثم سألتها، كيف حالها مع حبيبها، هل تغير عن حاله في المرة الأخيرة، «أكو تظميس»، قالت لها، وقد ضمت كفها الأيسر بشكل شاقولي وراحت تضرب عليه بالكف الأيمن، حتى يخرج الكفان صوتاً أشبه بالعفاط، ثم وهي تغمز بعينيها، «يعني صار شوية دخول وخروج»، ثم قربت فمها من أذنها، لكي لا يسمع الشاب، «يعني صار نيك؟».

كم كان بودّ سارة أن تضحك لحركات المرأة التي لم تناسب سنّها، لكنها كانت في حال يمكن القول عنها بسهولة، بأنّها حال من طلق السرور بالثلاثة، حال لا تشجع على الضحك، كما أنها لم تشأ أن تروي للمرأة قصة السجن، لكن على الأقل، ولكي تجاريها بالتسلية، فكرت لماذا لا تجيبها بقصة مختلفة؟

أخبرتها سارة بأن حبيبها تركها وذهب إلى مكان بعيد، وهي حزينة تجلس طوال الليل وحدها لا تنام، فقالت لها المرأة العراقية بنبرة منكسرة مواسية لا تخلو من الافتعال: «يا عيني عليك، خطية، واحدة مثلك مثل العسل، ما لازم تحزن بهذا الشكل، عيني»، ولكي تقتل حزنها، لكي تنسى، نصحتها المرأة بأن تشرب ليلياً قنينة كونيكا ماركة ماتيلده، صحيح أنه تصنيع في الصين، لكنه ماركة قوية، «اطلبوا الكونيكا ولو كان في الصين»، قالت لها المرأة ضاحكة بإشارة منها لحديث نبوي، «اطلبوا العلم ولو كان في الصين»، كم كان بودّ سارة أن تضحك لسماعها هذه الجملة التي ذكرتها بغشاء البكارة الإصطناعي المصنوع في الصين أيضاً، والذي كان يُباع في الثّقبة والبحرين، لكنها اكتفت بابتسامة بسيطة، كان عليها الإصغاء لهذه المرأة الاستثنائية والمرشدة.

«الكونيكا دواء فعال»، قالت لها هذه المرة، ثم أوصتها أن تشرب زجاجة كاملة، «بُطل»، كما قالت المرأة بلهجتها العراقية، وبعدها لا ترى سارة نفسها

إلّا وهي نائمة دون علمها، محلقة في سماء سابعة، «حتى النيك يصبح زائداً عن الحاجة»، قالت لها، «ها عيني لا تنسين، كونياك ماركة ماتيلده، تصنيع الصين، زين عيني؟ لا تفكرين، لا بالنيك ولا بقراءة أيّ كتاب، كونياك وبس»، أكدت عليها المرأة مرة أخرى قبل أن تودعها، وهي تضرب بأطراف أصابعها على الكتاب الذي حملته سارة بين يديها، كما اعتادت في تلك الأيام، الرغبة بالجنس كانت ماتت عندها منذ أن نزلت هذه التهمة «الإرهاب» على يافوخ رأسها، وإذا كانت الكتب ألقتها في الأيام الأولى بعد مغادرتها الاعتقال، فإن رغبتها بالقراءة خفت مع الوقت، وكانت حائرة بالفعل كيف تقضي أيامها ولياليها، وها هي شكراً للكونياك ماركة ماتيلده تنام على الأقل كل ليلة بثامن سماء وليس بسابعها كما وعدتها سُندس أو ياسمين أو ما شابه.

ليالي عديدة، لم تحصها سارة، ولا تريد أن تعرف عددها، وهي تواظب على شرب السائل الحارق للمعدة، وإذا سكرت، تردد مع نفسها أو تهتف بصوت عالٍ، ربما سمعته العجوز صاحبة البيت، «تعيش الصين»، بإشارة منها لمكان تصنيع الكونياك، أو تردد جملتها الأكثر تحبباً، «دبليو. تي. أف.»، اختصاراً للشتيمة «وَت ذه فك»، بإشارة منها إلى تلك الجملة التي وجدتها الأكثر ملاءمة لوضعها والتي قرأتها صدفة في حوار مع كاتب أميركي «مجهول» في مجلة النيويورك صدف في تلك الأيام. بهذا الشكل مرّت لياليها، بين تحمل حرقة الكونياك، واللعب بالكلمات والسخرية من نفسها أو شتيمة العالم جميعاً، «وَت ذه فك» واليأس ينخر بالعظام، حتى استيقظت ذات صباح، عاينت نفسها في المرآة، كان وجهها حزيناً أكثر من أيّ وقت مضى، كانت تعرف أنها نهاية الأسبوع وعليها دفع قسط الأسبوع القادم إذا أرادت البقاء، عاينت محفظتها، فلم تجد أكثر من مئتين وسبعين باوند.

في ذلك اليوم أخبرت صاحبة البيت، أن تمهلها يومين أو ثلاثة لكي تغادر،

فهي ليس في نيتها البقاء أكثر، كانت المؤجّرة امرأة عجوز، طيبة، قالت لها: «لك ما تشائين، ليس عليك دفع إيجار الأسبوع كاملاً، أنت فتاة طيبة، غوت بلّس يو»، قالت لها العجوز، لم تعرف سارة إذا كانت ستقول لها الكلام نفسه، لو عرفت قصتها، أو هي قالت ذلك لأنها تعرف قصتها، بالتأكيد رأت صورتها في الجرائد أو في التلفزيون، طبعاً كان بإمكانها أن تطلب من أختها أسماء أن ترسل لها ما تحتاجه، لتبقى المدة المتبقية من إقامتها، كان ما زال أمامها شهران أو ثلاثة شهور وتنتهي مدة إقامتها رسمياً في لندن، لكن ماذا سينفَعها ذلك، إذا كان البقاء كل يوم زائد ليس غير مراكمة للحزن واليأس لا أكثر ولا أقل، جواب المحكمة بما يخص إطلاق سراح ناصر على الأقل بكفالة لم يأتِ حتى الآن، وكما يبدو لن يأتي في وقت قريب، كما أخبرها المحامون، أما والد ناصر، الشيخ الداعية يوسف الأحمد، فقد أضاف للقضية تعقيداً جديداً، بدأ يصرح أمام الصحافة المحلية والأجنبية، كم هو فخور، بأن ابناً له هداه الله أخيراً بالسير على الصراط المستقيم، «لقد أنعم الله على قلبه بالإيمان»، لماذا؟ لأنه عن طريق إيمانه لم يشأ التكفير عن ذنوبه الكثيرة وحسب، بل أراد التكفير في المقام الأول عن ذنب قديم، عن «إثم سارة».

لا أحد يعلم، لا هي ولا المحامون ولا ناصر، إذا كان الشيخ الداعية يوسف الأحمد تعمد إطلاق تلك التصريحات، لكي يلحق الضرر بابنه وبزوجته المفترضة، وجدها فرصة مناسبة للانتقام من الاثنين، أم إذا كان يعتقد فعلاً، أن ابنه ناصر أصبح «مؤمناً» كما تمنى له الشيخ والداعية من قبل؟ بعد كل هذا ماذا ينفع بقاؤها شهراً واحداً أو شهرين إضافيين بل وحتى ثلاثة شهور؟ حتى ناصر قال لها في زيارتها الأخيرة له في سجن بلمارش، لن تضيف هذه الشهور لها شيئاً، لن تجلب لها ما هو جديد، عليها أن تعود، إنه يحتاج صوتها في المملكة أكثر، عليها أن تثبت للناس، أنه ليس إرهابياً، وأن أشد ما يحزنه، أن يصدق الإنكليز

ادعاءات أبيه، وأن أشد ما يحتقره هو هذا: أن يُقرن بأبيه، كما يقرأ من حين إلى آخر، يقولون بأنه «ابن أبيه»، كلا إنه ليس ابن أبيه، لم يسر على خطى هذا الأب يوماً، ولن يرغب بفعل ذلك في المستقبل، «الإرهابي هو الشيخ الداعية يوسف الأحمد»، قال لها بحزم، «ليس أنا».

ماذا بقي لها في لندن؟ كل الوقت الذي مضى وهي تكافح من أجل إثبات براءته، عبثاً، لن يصدقها أحد، محاموها قالوا لها كلاماً شبيهاً، لا حاجة لها بالبقاء، بإمكانها الاتصال بهم، وقتما تشاء، على الأقل تستطيع إقناع أبيه بالكف عن ادعاءاته، لأنها ليست في صالح ابنه، ولم تقل لهم، لكن متى فكر هذا لصالح ولده؟ في ذلك اليوم من نهاية الخريف والبارد أيضاً، اتصلت سارة بأختها أسماء، تخبرها بقرارها بالعودة، وأنها بحاجة لتذكرة طائرة، لم تصدق أختها سماع الخبر، قالت لها، كم هي فرحة بعودتها لهم من جديد، «أكيد راح يحيا أبونا إذا شافك»، فردت عليها سارة، بأنها هي الأخرى سعيدة، مشتاقة للجميع، «لقد تعبت يا أختي»، قالت لها، «لا بدّ من العودة»، اشترت لها أختها في اليوم نفسه تذكرة في أول طائرة للخطوط الجوية السعودية متوجهة من مطار هيثرو للدمام بعد يومين، وفي صباح يوم مغادرتها لندن، دفعت سارة للعجوز إيجار اليومين الأخيرين، في المبلغ الباقي، ثمانين أو تسعين باوند أرادت أن تتناول آخر وجبة لها للغداء في لندن مع زجاجة نبيذ ماركة جيدة هذه المرة، فرنسي أو إيطالي، تعرف مطعماً هندياً قريباً من الغرفة التي سكنت فيها، في شارع ويستبورن غروف، قررت الذهاب إليه، لكنها وقبل أن تصل إلى المطعم سمعت فتاتين تسيران أمامها بحميمية، تتحدثان بصوت عالٍ وهما تشيران إلى واجهة مكتبة عربية كبيرة مواجهة للمطعم، الساقى، مكتبة سبق لها وأن زارتها بعض المرات: «تشوفين الكتاب هناك؟»، قالت الفتاة التي على اليمين وهي تشير إلى كتاب أنيق وُضع بشكل لافت تقدم الكتب المعروضة في الواجهة الزجاجية،

«كتاب الآثام الخمسة»، قالت الفتاة: «لا بدُّ أن تقرأه كل امرأة في العالم، رواية من أجزاء عديدة، خاصة الجزء الأول «إثم سارة»، الذي يروي قصة فتاة سعودية، حياتها تهدمت، أصبحت خراباً، كل ذلك بسبب خالها، في النهاية لم يبقَ أمامها غير أن تقتل خالها الذي رقد جريحاً بسبب إطلاق النار عليه في مستشفى عسكري في حفر الباطن»، ختمت الفتاة كلامها وهي تجر صديقتها إلى داخل المكتبة، ولو لم ترَ الفتاتين تسييران أمامها، وتدخلان إلى داخل المكتبة متأبطتين، مثلما كانتا هي وصديقتها الهنوف تتأبطان بعضهما في جولتهما وهما صغيرتان، لظنت أنها تحلم، أو أنها إحدى تلك الهلوسات التي اعتادت عليها في الليالي الأخيرة منذ أن بدأت بصحبها الليلية قبل أن تنام مع الكونياك ماركة ماتيلده.

لبرهة توقفت سارة أمام المكتبة، تذكرت أنها لم تقرأ كتاباً منذ زمن طويل، المرة الأخيرة كانت رواية سعودية اسمها «حقول الرياض» قيل إن امرأة كتبتها باسم مستعار، هذه المرة تعثر على كتاب يناديها في واجهة العرض أمامها، «كتاب الآثام الخمسة» لكاتب كانت سمعت به من قبل، إذا لم تكن قرأت إحدى رواياته السابقة، اسمه هارون والي، الجزء الأول من الكتاب وكما يقول لها العنوان الذي تقرأه من خلف الزجاج، يحمل اسمها بالفعل، «إثم سارة» لا بدُّ أن تقرأ الكتاب، أحصت المبلغ الذي في حوزتها من جديد، مبلغ كافٍ لشراء الكتاب أيضاً، دخلت إلى المكتبة، وطلبت الكتاب، سألتها البائع إذا أرادت أن يضعه لها في كيس بلاستيك. كلا، قالت له. وضعت الكتاب في حقيبتها اليدوية وغادرت المكتبة، عبرت الشارع، ودخلت إلى المطعم، تناولت غداءها بهدوء، صحن نباتي متنوع مع خبز تنور ولبن.

تركت فكرة شرب النبيذ مع الأكل، لا بدُّ وأن تتمرن على امتناع شرب الخمر منذ اليوم، لا نبيذ ولا كونياك صيني أو فرنسي، أو ما شابه، بدل ذلك دفعت فاتورتها وخرجت، وصلت إلى غرفتها في وقت سريع، أغلقت حقيبتها الكبيرة

التي رتبت فيها أغراضها فيها ليلة أمس، باستثناء بعض الملابس وضعتها في حقيبة بلاستيك صغيرة، اتصلت بسيارة ميني كَبْ، هي التي كانت لا تصعد إلا في أحدث السيارات وأغلاها ثمناً، أو هي التي لا تصعد إلا في التاكسيات الفاخرة الغالية، تجلس الآن في سيارة ميني كَبْ مهلهلة، موديل فورد قديم، وصلت إلى المطار قبل ساعتين من إقلاع طائرتها، أنهت إجراءات الحجز بسهولة، سلمت حقيبتها إلى شريط الحقائب وتوجهت إلى المدرج، عاينت أضواء محلات الأسواق الحرة، مئات البضائع المعروضة هناك، في الماضي كانت تحار أيّ عطر تشتريه، والآن؟ لا شيء.

دخلت إلى دورة المياه المخصصة للمعوقين، أخرجت من حقيبة البلاستيك الصغيرة التي حملتها معها ملابسها السعودية التي لم تلبسها منذ رحلتها التي قدمت بها مع ناصر، ثوب أسود طويل، تحته أيضاً بنطلون أسود طويل وشال أسود رقيق، حشرت بدل ذلك ملابسها التي نزعته في كيس النايلون، بنطلون جينز أزرق وبلوزة خضراء، لفت شعرها في الشال، تمشت قليلاً في أروقة المطار، وعندما سمعت صوتاً ينادي بتوجه المسافرين على متن الخطوط السعودية إلى الدمام إلى طائرتهم، اتجهت ناحية الخرطوم المؤدي للطائرة، سارت بهدوء وهي تحاول أن تمسك نفسها، كأنها مقبلة على قرار خطير، عند باب الطائرة أخذت من الصحف المعروضة هناك صحيفة الدنيا، جلست على مقعدها، ثلاثة عشر الحرف ألف عند الشباك (عجيب، عادة لا يوجد مقعد بهذا الرقم في الطائرات في أوروبا!!)، عند الشباك، حدقت عبر النافذة وسرحت نظرتها في البعيد، كان رأسها فارغاً، أو شاءت له أن يكون ذلك، لبرهة صحت من خدرها على صوت المرأة جارته على المقعد المجاور، امرأة إنكليزية على ما يبدو، لكن محجبة، تحيّيها بصوت لطيف: «هاي»، تطلعت بها سارة، لا تدري لماذا ذكرتها المرأة بالمجندة الأميركية التي ظهرت ذات يوم فجأة على كورنيش الخبر، تمشى تلبس

الشورت وصدرها منتفخ أمامها والتي شاع خبرها آنذاك سريعاً وجعل الشباب يقودون سياراتهم ويدورون حولها على الكورنيش وهم يصفرون لها، ربما لأن المرأة الجالسة إلى جانبها حملت ملامح المجندات، أو ربما لأن الصفحات الأولى للصحف الإنكليزية التي ارتكنت في حضن المرأة، حملت صور بارجات حربية وجيوش؟ «هذه المرة مجندات بالحجاب، لم لا؟»، قالت سارة في نفسها، ثم ابتسمت للمرأة وأجابتها بالإنكليزية أيضاً: «هللو». تحركت الطائرة على مدرج المطار، ومع تزايد سرعتها وقبل أن تقلع بقليل تذكرت سارة رحلتها آنذاك قبل ست أو سبع سنوات من الدمام إلى لندن، في تلك الرحلة كان ناصر معها، آه، كم كانا سعيدين، والآن؟ ها هي تعود ولا شيء غير العودة، مثلما يقول المثل، تعود بخفي حنين، حياتها خراب في خراب، وفي اللحظة التي أقلعت فيها الطائرة عرفت سارة، كم هي صحيحة تلك الجملة التي قرأتها أو سمعت بها ذات يوم، أن طريق العودة لا يشبه طريق الذهاب، جاءت مع ناصر، رأسها يكتظ بالأحلام والمشاريع، وها هي تعود وحيدة، خالية اليدين، حتى محافظة نقودها خلت باستثناء بعض السنوات، ولكن ربما العزاء الوحيد في حالتها، قالت لنفسها وهي تفتح حقيبتها اليدوية، أنها تعود ومعها غنيمتها من لندن، كتاب، لا يهم أنه حمل هذا العنوان الغريب: كتاب الآثام الخمسة، وأن الجزء الأول الذي حمل عنوان «ثم سارة»، حمل اسمها بالتحديد.

على الأقل هذا ما فكرت به، في اللحظة التي حلفت بها الطائرة، باتجاه الدمام، ولم تعرف، أنها ثوانٍ وحسب، وستكون على شفا اكتشاف عظيم، إذ ما إن تبدأ الطائرة باستدارتها الروتينية، واحدة باتجاه الشمال وأخرى ناحية اليمين، وهي تشق طريقها باتجاه علوها المطلوب، وأن سارة، ربما لكي تطرد الخوف الذي استحوذ عليها كما يستحوذ على البعض في لحظات الإقلاع، لكي تلهي نفسها بشيء، أي شيء، ستفتح الصحيفة العربية وترى صورته، كبيرة احتلت

الجانب الأيسر، أعلى الصفحة، كُتِبَ فوقها بحروف سود ثخينة: «إطلاق النار على رئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الشيخ الداعية يوسف الأحمد يرقد في حالة كوما، غيبوبة في مستشفى خالد بن عبد العزيز العسكري»، ثم تقرأ تحت، «إنها أعجوبة، إنه لم يسقط صريعاً، كما حصل لمرافقيه».

في تلك اللحظة، عرفت سارة، لماذا كان عليها أن تعود، وأن شراءها كتاب الآثام الخمسة لم يكن كما ظنت، صدفة، فهي وحتى قبل أن تبدأ بقراءة الجزء الأول منه، «إثم سارة»، تعرف أن عليها الانتهاء من هذا الرجل الراقد في المستشفى العسكري، نعم، قالت ذلك في نفسها، وهي تحضن الكتاب وتغلق عينيها، لا بدّ وأن مصيرها رُسم هنا بين سطور هذا الكتاب، ولكي تتأكد من ظنونها، لكي لا تخونها وساوسها، فتحت عينيها على سعتهما وتطلعت في الكتاب، لبرهة فتحت الكتاب على الصفحة الأولى، وبدأت تقرأ: «ذلك هو، يرقد على سريره هناك، لا يفصله عنها غير قطعة قماش بيضاء شفافة، عليها فقط التقدم قليلاً، لكي تزيحها من مكانها وتصبح عند رأسه لتنقض عليه...»، ومع تحليق الطائرة عالياً، تحلق هي أيضاً مع ذكرياتها، ذكرياتها التي كانت والتي ستكون، تتخيل حياتها القادمة التي عليها أن تعيشها بعد الآن، تحلق عالياً وعالياً، ومع كل جملة تقرأها، تشعر بأنها أكثر خفة وطيراناً، فتقرأ وتقرأ، وتعيد القراءة ثانية: «ذلك هو، يرقد على سريره هناك، لا يفصله عنها غير قطعة قماش بيضاء شفافة، عليها فقط التقدم قليلاً، لكي تزيحها من مكانها وتصبح عند رأسه لتنقض عليه...» إلى آخر مدخل الكتاب: كتاب «إثم سارة».

عودة إلى نهاية الإثم

من كان يصدق، أن الأمر سينتهي كما تخيلته وهي جالسة في الطائرة في ذلك اليوم؟ نعم، من تخيل ذلك؟ هي الأخرى، لو كان أحدهم قال لها، لا عليك، إنك ستنجحين بالوصول إليه، لما كانت صدقته، مثلما لم تصدق، أنها مسألة وقت وسيصبح كل شيء في عداد الماضي، ولا يهم حجم الشك الذي استحوذ عليها في البداية، فإنها نسيته ما إن لامست عجلات السيارة التي قادتها إسفلت الطريق السريع، وضغطت على دواسة البنزين، وأنها مثلما شعرت بنفسها تحلق عالياً مع تحليق الطائرة التي أقلتها من لندن إلى الظهران، شعرت بنفسها تحلق هذه المرة مع كل كيلومتر تقطعه السيارة، تحلق حيثما تريد، غبار ورمال، لا شيء غير غبار ورمال حولها، فيما انفتح أمامها طريق سعته الأفق.

آه، كم كانت خفيفة في ذلك النهار، والطريق الذي كان يطول ويطول عادة، قطعته هذه المرة بسرعة عجيبة، نصف ساعة فقط، ووصلت إلى الفيلا الكبيرة، بيتهم، كل شيء بدا هادئاً، توقفت أولاً أمام البوابة، أبعدت الباروكة ببطء، عدلت من شعرها الطويل في المرآة، رمته على كتفها، ثم أخرجت من حقيبتها قلم حمرة خفيفة، ومررته على شفيتها، أرجعته إلى حقيبتها، ضغطت على زر الريموتير، انفتحت بوابة البيت الضخمة، دارت في السيارة خلف الحديقة، أدخلتها إلى المرآب الخاص بها، أخرجت عباءتها السوداء من كيس مطاط أخفته تحت المقعد الأمامي، لفت العباءة على جسمها، نزلت من السيارة، بدت مضحكة في لباسها، لكنها تعرف أن باستثناء الخدم ليس هناك أحد غيرها في البيت، أغلب الأوقات تأتي أختها مع الأطفال، لكن غالباً ما تقومان بزيارتهما في يوم الجمعة، في نهاية الأسبوع، عادة يتصلان بها قبل المجيء، لكن حتى إذا كانتا في البيت،

فإنهما الأخریان تكونان نائمتين، لا أحد يظل يقظاً في الساعات الحارة هذه، حتى الخدم سيكونون نائمين.

«إنها ساعات النوم الوطني»، تمتعت في نفسها مازحة، دخلت إلى البيت من الباب الخلفي، صعدت إلى غرفتها في سطح البيت، دفعت الباب وراءها، لا تزال الغرفة كما تركتها بعد استيقاظها هذا الصباح، تلك هي أشياءها مبعثرة في كل مكان، ملابسها على الأرض، بيجامة النوم الخضراء على السرير، سروالها الأخضر القطني الذي تحبه كثيراً يخرج من طرف الدولاب، باب الخزانة هو الآخر مفتوح، تطل منه أحذيتها بكل أنواعها، أما مجفف الشعر والكمبيوتر وصينية فنانجين القهوة وكتاب «الآثام الخمسة» الذي أدمنت على قراءته منذ عودتها من لندن إلى الظهران، من البداية حتى النهاية، ومن النهاية حتى البداية، في الحقيقة قرأت الجزء الأول منه فقط، «إثم سارة»، (لأن من غير المعلوم إن كانت ستصدر الأجزاء الأخرى، «الآثام الأربعة الباقية»)، كل تلك الأشياء استقرت جميعها على الصوفا الصغيرة إلى جانب السرير، دخلت إلى الحمام، نزعت ملابسها الرجالية ورمتها في كيس تجمع فيه الغسيل، أنزلت لباسها القطني الأخضر، بالت، غادرت الحمام دون أن تسحب السيْفون، سحبت كرسيّاً من زاوية الغرفة، وضعته أمام دولاب الملابس، صعدت على الكرسي وسحبت حقيبة صغيرة استقرت فوق الدولاب، رمت الحقيبة على السرير المواجه لمرآة الدولاب، أبعدت الكرسي وفتحت الدولاب، اختارت بسرعة وبدون تمييز البعض من فساتينها، بيجامة نوم نظيفة هي الأخرى خضراء، وبعضاً من الملابس الداخلية أغلبها خضراء، توجهت إلى التواليت، أخرجت من الجرار بعض الحلي، حشمتها في شنطة الماكياج، وضعت كل ما اعتقدت أنها ستحتاجه في الحقيبة، ثم ضغطت على الحقيبة بكل ثقلها لكي تتمكن من إغلاقها، اتجهت إلى الصوفا، تناولت الكتاب، رفعت الحقيبة بيدها اليمنى وفي اليد الأخرى مسكت الكتاب، أرادت أن تغادر الغرفة،

لكنها ما إن تطلعت بنفسها في المرأة، رأت نفسها ما تزال عارية، في ملابسها الداخلية وحسب، كلسون وسوتيان أخضر شفاف، ضحكت، ستكون مفاجأة سارة لرجال الحسبة، كما أظن، ينقص فقط رسم سيف على اللباس، وسيقولون: «ماذا تلبسين علم مملكتنا؟ أي دنس أنت؟ وت ذه فك»، قالت لنفسها، «يس: دليو. تي. أف.»، فتحت الدولاب من جديد، ولبست تنورة برتقالية وبلوزة سوداء، ثم غادرت الغرفة، أغلقت بابها، ونزلت السلم بهدوء بيدها الحقيقية، فتحت البوابة الخلفية، هذه المرة لم تتجه إلى المرآب حيث تركت السيارة، بل سارت حتى أطراف الحديقة، حيث بيت الصفيح الصغير، ضربت على الباب ونادت «راجو»، مرت لحظات حتى خرج إليها السائق، بدا ذلك من ملامحه وملابسه أنه كان نائماً، اعتذر وقال بعربية مكسرة «أفواً آنسة»، فأجابته، «لا ضير»، ثم طلبت منه أن يهتئ السيارة لأن أمامها رحلة طويلة، رش راجو بعض الماء من جرة استقرت عند مدخل كوخ الصفيح، إشارة التفاؤل بالخير كما يظن، ثم لحق بها إلى الكراج الثاني، حيث سيارة جي. أم. سي. السوداء، السيارة التي كانت تعود لأبيها أصلاً والتي كانت لا تستخدمها إلا لقطع مسافات طويلة، أخذ راجو منها الحقيقية، وضعها في الصندوق الخلفي للسيارة، عندما فتح لها الباب وجلست على المقعد الخلفي، سألتها راجو «نروح وين؟»، فطلبت منه أن يسير باتجاه الشمال فعرف أنها تقصد بالشمال إلى بيوت الشعر الخاصة بعمتها، وعندما أصبحت الفيلا التي عاشت فيها سنوات عمرها، طفولتها وشبابها وراءها، عندما أخرجت من حقيبتها اليدوية عدة الماكياج مع مرآة صغيرة وبدأت بمكيحة وجهها، عندما وضعت نظارة راي بان مرة أخرى على عينيها، عندما لفت شعرها بمنديل حملته في حقيبتها، عندما مدت لسانها تبلل شفيتها وكانت انتهت من تمرير أحمر الشفاه، وعندما طلبت من سائقها أن يزيد الضغط على دواسة البنزين، أن يضاعف من سرعة السيارة، في كل ذلك الذي مرَّ بها سريعاً في تلك اللحظات، عرفت سارة

أنها منذ ذلك اليوم، وفي كل ما فعلته، بل وفي كل حركة منها، أنها وُلدت من جديد، وأنها منذ ذلك اليوم ستحتفل بعيد ميلاد جديد!

كانت السيارة انحرفت بهم منذ وقت قصير، ودخلا في طريق صحراوي، اشتد فيه هجوم - العواصف الرملية، وأصبحت فيها الرؤية صعبة، لكن راجو الذي جاء معها مرات عديدة إلى هنا، يعرف المكان بالتأكيد عن ظهر قلب، ليست تلك هي المرة الأولى التي تهب فيها الرمال، رغم ذلك لم يضل طريقه ذات يوم، كان يقودها دائماً حتى مضارب عمته، يوقف السيارة بالضبط على بعد أمتار قليلة من باب بيتي الشعر، ومهما كانت الرمال كثيفةً في هبوبها، فما إن يخفف السرعة، حتى تعرف أنهما وصلا، مرة سألته، كيف يستدل طريقه بالرغم من أنه لا يملك خريطة، فيضحك، ويقول لها بزهو، من يعمل في التهريب لا يحتاج خريطة، فتشير له بيدها أن يسكت، لأنه سيبدأ يروي لها القصة ذاتها، كيف أن أباه اختاره لهذا السبب بالذات، جاء ذات يوم على عادته إلى مكتب اللويتنانت دانييل بروكس في القاعدة العسكرية الأميركية في الظهران، وشكا له أنه يبحث منذ أيام عن سائق «جاوة» لا يجيد السياقة وحسب، بل خبير في التهريب على الطريق الصحراوي أيضاً، «ولماذا على الطريق الصحراوي؟» سأله اللويتنانت الثاني، «لأن المهربين عن طريق الصحراء خبراء في الفراسة وميكانيك السيارات»، فقال له دانييل بروكس، «أفهم»، ثم بعد تردد قصير، أضاف: «اسمعني يا غازي لأنك كنت طيباً معي طوال عملنا المشترك، سأتنازل لك عن «راجو»، كيف لا، وراجو كان أشهر سائق في الدمام؟ حتى والدها نفسه تفاخر به، وهو يشكو من اختفاء الكثير من سواق التهريب الماهرين في هذه الجهة، أغلبهم اتجه للعمل بالتهريب صوب الحدود مع البحرين وقطر، أو الحدود مع اليمن وعمان، الحرب جعلت أغلبهم يخاف، تحول عملهم إلى مخاطرة لا يُعرف حُسابها، مع الألغام التي جلبتها الحرب لا تنفع فراسة.

لكن راجو أو «الهندي» كما سماه أبوها، الذي مارس التهريب في بداية شبابه، وتوقف عنه بعد عمله عند اللويتنانت دانييل بروكس، صاحب فراسة استثنائية، قال أبوها متفاخراً، يتكهن بالمخاطر، يستطيع شمّ حتى الألغام التي جلبتها الحرب، كم كرهت راجو في بعض الأحيان، ربما لأنها تعتقد، لولا عثور أبيها عليه ربما سارت حياتهم في طريق آخر، لكنها تعرف أيضاً، لم يكن من الصعب على أبيها العثور على شخص آخر في حالة عدم تنازل دانييل بروكس عن سائقه المخلص.

لحسن حظه سكت راجو هذه المرة، أراد أن ينقل الحقيبة التي أخرجها من الصندوق، فطلبت منه أن يتركها لها، ستحملها هي بنفسها، سألتها، متى يعود ليأخذها من بيت عمتها، «غداً صباحاً»، قالت له، ولأنها أغلقت تلفونها النقال منذ يومين، أوصته، إذا اتصل به أحد وسأل عنها، وهي تقصد إخوانها وأختها في المقام الأول، عليه أن يقول، بأنها سافرت إلى البحرين بسبب الامتحانات في الجامعة. عليه أن يأتي يوم غد، قالت له ذلك فقط، لكي لا يعرف ما نوت عليه مع عمتها وابنة عمتها وينقله للآخرين، إختوتها مثلاً، سيرى ذلك بنفسه، عندما سيأتي ولن يجد سارة في المكان نفسه. حملت سارة الحقيبة واتجهت إلى بيت الشعر الآخر الذي أصبح بمثابة بيت إقامتها الثاني، لم تدخل بيت الشعر الأول، كانت تعرف، أنها الساعة التي لا تكون فيها عمتها ولا موضة في البيت، بالتأكيد ما زالت العمّة مع بضاعتها في سوق قريبة للأعراب، وهي مثلها لا تقود سيارتها إلا في مثل هذه الساعات، ساعات القيلولة، أنزلت حقيبتها إلى الأرض ورمت نفسها على الفراش مباشرة.

لا تدري كم ساعة نامت، وهي في الفراش، عندما سمعت أصوات أقدام تقترب من فراشها بهدوء، وكان عليها أن تبذل جهداً لكي تفتح عينها وتعرف ما يدور عند طرف الفراش، بالرغم من الغشاوة التي رأتها أمام عينها، لبرهة

شعرت بعمتها وموضة تجلسان عند رأسها، تمسكان كل واحدة من جانب يديها بحنان، وتضعان بتناوب قطعة قماش مبللة على جبهتها، فيما شعرت بيد تفتح فمها وتسد محرراً بين شفثيها، فعرفت أنه دكتور باندي، الطبيب الهندي الأصل، الذي يعرف عائلة عمتها منذ سنوات والذي غالباً ما كان يأتي إلى بيت الشعر ذاته لمعاينة أبيها حتى موته وإعطائه بعض المسكنات، بالتأكيد مرّ وقت طويل على نومها، وهي لا تدري إذا كانت فقدت الوعي فجأة، وإلاً لماذا جلبت عمتها طبيباً لها؟ بالتأكيد ظل السؤال هذا يشغلها ساعات طويلة أخرى، بالتأكيد جعلها تنام ساعات طويلة أخرى، كأن الساعات التي نامتها كل ساعات النهار لم تكن كافية، لو لم تسمع صوت الدكتور باندي يخاطب عمتها وموضة: «أعتقد أنها كانت تعبانة جداً، تحتاج قليلاً من الأكل، لم تأكل كما يبدو منذ يوم أمس». ثم نهض، ونهضت معه الاثنتان، أرادت أن تقول لعمتها وموضة، أنها لا تملك شهية، وأن عليهما ألا تقلقا، إنها مسألة وقت وستنهض لكي تشرع معهما بالرحيل، كما اتفقت معهما ليلة أمس، عليهما أن يتركاها تنام ساعات قليلة أخرى، وسيكون كل شيء على ما يرام، سيرحلن من مكان إلى آخر، كما فعلت عمتها وموضة في الماضي، هذه المرة بصحبة سارة كما تمت في الأحلام، لكنها لم تجد القوة الكافية لأن تفتح فمها، رأتهم يغادرونها جميعاً، وقبل أن ينزل القماش على المدخل ويسده مثل باب، رأت أشعة شمس ضعيفة تتراقص أمامها، إنها ساعات الغروب إذن، هل يعقل أنها نامت أكثر من أربع وعشرين ساعة؟ هذا يعني، أن سائقها راجو جاء وذهب أيضاً، أو ما زال ينتظرها؟

تطلعت حواليتها، فرأت حزمة من الضوء تدخل من الفتحة العليا، في زاوية بيت الشعر البعيدة، هناك رقد أبوها، على مدى شهرين، وهي التي اقترحت عمل تلك الفتحة في تلك الزاوية الحادة، كان لا بد أن يتنفس قليلاً، كما أوضحت لعمتها، التي خشيت دخول الغبار من تلك الفتحة، «جسمه بحاجة للضوء»، قالت لعمتها،

انظري إليه كم نحل جسمه منذ جلبيه من المستشفى، ربما كانت فضلت العمه بقاءه في المستشفى، لم يكن عندها ما تخسره، سواء كانوا استجوبوه أم اعتقلوه، لم يفرق الأمر بالنسبة لها أية نهاية كان سينتهي إليها، عدم الاكتراث كان بائناً على وجهها، وإذا أخرجت العمه أباهما من المستشفى، فإنها فعلت ذلك من أجلهم، من أجل عائلتهم، لم تشأ أن يكتشف العسكر الأمر، ويلقون بأبيها في السجن، ربما لم يكن أمامها خيار آخر، عندما رأت في الأيام الأولى العسكر يحوطون بسريره في المستشفى، كما روت العمه لها في أول لقاء لها بسارة بعد عودتها إلى الظهران من لندن، كان من السهل على عمته تركه في المستشفى، لم يهتمها موته أو شفاؤه، اعترفت أمامها العمه، مثلما كان من السهل عليها خلع بيتي الشعر وجمع أغراضها والرحيل مع ماشيتها إلى مكان آخر كما فعلت سنوات طويلة هرباً من ملاحقة أخيها غازي الجاسي، كانت تعرف رغبته بالعثور عليهما يوماً، هي وزوجها، هكذا عاشا، يتنقلان من مكان إلى آخر، هي تحيك الصوف وزوجها يصنع حدوات الخيول، قبل أن تعثر على موضة وحيدة في الصحراء نصف مية تقريباً، وقبل أن تبدأ هي الأخرى موضة مع هوايتها الاستثنائية ما إن كبرت، صنع التحفيات من الجماجم التي تعثر عليها مدفونة في الصحراء، وما كانت العمه قررت الاستقرار في هذه الضواحي، لو لم تبدأ بالاهتمام بتعليم موضة، ودخولها إلى المدرسة.

«التعليم أكبر ثروة للبنات»، كان ذلك هو شعار العمه، وكانت واثقة أن موضة قادرة على أن تتجاوز كل الصعوبات، وما شجعها على ذلك أيضاً، هو عمل أسماء في مدرسة قريبة، كما سمعت البعض من زميلاتنا البائعات يتحدثن عن «أسماء الجاسي» المعلمة «الطيبة» من مدينة الخبر، وكم امتلك الفضول العمه بالتعرف إلى ابنة الأخ هذه، كانت فرحة بالعثور عليها، أخيراً تستطيع موضة دخول المدرسة، ستحميها ابنة أخيها، أسماء، وما زاد من سعادتها، هو أنهم كانوا يسكنون في ضاحية بعيدة، في عمق الصحراء، من غير الممكن وصول أخيها

إليها أبدأً، هذا ما ظنته العمدة آنذاك، دون أن تدري أنه سيعرف عنوانها عن طريق رجال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كانوا أوقفوا سيارتها ذات يوم، قيادة سيارة جريمة بالنسبة لرجال الهيئة، لكنهم لم يشؤوا عمل فضيحة كبيرة منها، تلك هي عادتهم، لا يريدون أن يشجع تمرد امرأة نساء أخريات على التمرد، خاصة وأنها بدوية، «لو كنت من نساء المدينة المتبرجات لما أطلقنا سراحك»، قالوا لها، اكتفوا بتوبيخها، سجلوا اسمها وعنوان المكان الذي تسكن فيه، ثم تركوها طليقة بعد أن أخذوا منها تعهداً بالألا تعود إلى قيادة سيارة مرة أخرى، ولو كانت تعرف أن رأس الشر، خال سارة، وليس غيره هو المشرف على جهاز الهيئة ومقره في مكان قريب، وأن ما حدث كان بمثابة هدية نزلت عليه من السماء، لما كانت أعطت عنوانها الصحيح.

«الصحراء كبيرة»، قالت لها عمتها، لكن هكذا شاء لها القدر «المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين»، علقت العمدة بصوت يائس، كان يجب أن يحدث ذلك، ذهب خالها لأبيها، وقال له: «أنثى وتقود سيارة؟ انظر إلى الحضيض الذي وصلنا إليه؟ أنت زوج أختي يا غازي، شرف عائلتك هو شرفي أيضاً، حان الوقت لكي تكون رجلاً وتنقذ سمعة العائلة يا غازي». كان يعي ما يقوم به من تحريض، طبعاً فإسألة راجو الصحراوية ساعدته بالاستدلال على مكانها بالضبط، وأنها هي مسألة وقت وسيصل إليها، هكذا بزغ أخوها، غازي الجاسي، أمام زوجها فجأة ذات يوم، وأطلق عليه النار، ولم يعرف، أن الرمي ممنوع في هذه المناطق، إنها منطقة صيد خاصة بالملك وحاشيته، تحرسها قوات الحرس الملكي ليل نهار، تبادل الاثنان إطلاق النار، مات زوجها، أما أخوها ففُرح بشكل بليغ، هرع رجال الحرس الملكي على صوت الإطلاقات إلى مكان الحادث، سألوها عن هوية الرجلين، قالت لهم، بأن الميت أخوها، وأن الرجل الجريح هذا زوجها، «أمك لم تتحمل الخبر»، قالت العمدة لسارة، «ماتت أمك في اليوم التالي»، لم تنتظر حتى

ولو ليوم واحد لتتأكد من الخبر، «ما قيمة حياتي بدون غازي؟»، كانت جملة الأم التي نقلها الناس عنها وهي تقول لأبنائها وبناتها «أخبروا سارة بذلك، عندما تعود»، قالت الأم، ولو كانت العمّة تعرف عنوان البيت الذي سكنت فيه عائلة أخيها في مدينة الخبر، لكانت ذهبت هي بنفسها إليهم في يوم الحادث المشؤوم نفسه مباشرة، أو كانت أرسلت موضة لتخبر زوجة أخيها أم سارة، مشاعل بما حدث، لكنها انشغلت مع أخيها الجريح في المستشفى، أرادت أن تحميه، حملة الحرس الملكي إلى المستشفى، ليس حباً به، فماذا يعني بدوي جريح في العراء، كلا، إنهم فعلوا ذلك، لكي يقوموا بالتحقيق معه لاحقاً، لم يعرفوا أنه غازي الجاسي صاحب شركة الأحلام، مجهز القاعدة الأميركية في الظهران، كلا، ظنوا أنه أحد المهربين الخطرين في هذه المناطق.

كم أحزن عمتهما ما سببته من حزن وموت لعائلة أخيها، لكن ماذا كان عليها أن تفعل، لم يكن أمامها أي خيار آخر، كما أباحت العمّة لسارة لاحقاً، فبعد فقدانها لزوجها لم تشأ أن تفقد أباها أيضاً، كان لا بدّ أن تستبدل هوية الاثنين، انتظرت أن يتعافى أخوها قليلاً لكي تنقذه، قبل أن يأتي رجال الحرس الملكي ويحققوا معه، لم تشأ أن يكتشفوا القصة، ويدخلوه السجن إن ليس كقاتل فلأنه انتهبك حرمة أراضي صيد الملك التي ممنوع على أحد دخولها بتاتاً. هيات كل شيء لأن تكون إقامة أخيها مريحة، انتقلت مع موضة إلى منطقة أخرى، إلى الطرف الآخر من وادي حفر الباطن، حيث هما الآن، هزّبت عمتهما أباها من المستشفى بالتعاون مع موضة وأخت سارة، أسماء، جلبته إلى هنا، حيث الخيمتين المفتوحتين في الصحراء، كان عليها أن توافق على بقاءه معها في بيت الشعر إلى أن يتعافى ويقرر هو بنفسه المصير الذي يختار أن ينتهي إليه، وفي الأيام التي لم تستطع أسماء، الأخت الكبرى لسارة المجيء، كانت العمّة هي التي تعتني به، غضباً عنها، على مضض، لا تكلمه،

هذا ما اتفقت عليه مع أسماء، «لا كلمة لي معه»، هكذا كان الأمر، «حتى عودتك، لم أحدث مع أبيك»، قالت العممة لسارة، لكن سارة تعرف، كيف أن وجودها هي الأخت الصغيرة، حرر أختها أسماء من هذا العبء، فمباشرة بعد عودتها من لندن، تكفلت هي بالعناية بالأب، راحت تزور عمتها دون أن يعرف إخوتها بذلك، أوصت السائق راجو أن يخفي زياراتها، رغم معرفتها أن ما تقوم به لن يقود إلى نتيجة.

كانت هي الأخرى مثل عمتها والطبيب باندي، تعرف أن أيام أبيها معدودة وسيموت، لم تعد تتذكر عدد الأيام التي رقد فيها في زاوية بيت الشعر، بالضبط على الفراش الذي ترقد عليه الآن، لم ينطق بكلمة، كان قد دخل في غيبوبة، وشكراً للدكتور باندي، كان يزوره من حين إلى آخر، يعطيه بعض المسكنات والحقن، في النهاية حدث ما توقعوه، مات غازي الجاسي، دفنوه في مكان قريب من المضارب، كم بكت سارة حينها، جلست ثلاثة أيام عند قبره، كان من الصعب عليها أن تفهم ما حصل، أن أباهما يرقد جثة هامدة هناك، وأين؟ عند مضارب خيمة أخته التي أحبها وهو طفل، أمر لم تفهمه لا بالأمس ولا اليوم، أمر كلما فكرت به، أصيبت بالدوران، وهي مهما فكرت طويلاً، مهما فسرت وفسرت، فإنها تعود إلى تلك النقطة: خالها، الأخ الأكبر لأمها، من الصعب عليها تخيل ما جرى بدونه، ليس ما حصل لها هي بالذات شخصياً وحسب، ليس ما حصل لأبيها، وليس ما حصل لعمتها، بل كل ما لحق بالجميع من أضرار، كان خالها هو السبب، نعم، كان هو السبب ولا أحد غيره، مرات عديدة لا تحصى فعل خالها كل ما في وسعه، كل ما خبأته نفسه من شر لكي يستفز أباهما، يحرضه على أخته، حتى في تلك الفترات التي كان الأب نسي قصة هروب أخته مع رجل آخر، عامل يدوي، كم عدد المرات التي سمعته فيها يقول لأبيها ذلك، خاصة في تلك المناسبات التي تعلق بها الموضوع بتأنيب أو «تربية سارة»، كما كان يحلو للعم أن يقول،

كان يقول له، إن عليه أن يصلح من أمر أخته، نعم، إنه خالها الذي كان يفعل ذلك، خالها صاحب الدشداشة القصيرة واللحية المصبوغة بالحناء، والذي كان يتفاخر بأنه وصل إلى هذا المنصب العالي في الحسبة، أو الهيئة، أو ليكن اسمها هيئة الشيطان، أو «وَتَ ذَه فَك»، لأنه من نسب أصيل، كأن بقية الناس عبيد، كأن خالها كان يعرف الهمّ الذي أكل روح أبيها وهو صغير، كيف أن ذكرى أخته التي اختلط الغضب فيها مع الحب، لا تحتاج إلّا إلى مناسبة لكي تطفو على السطح مجدداً، دبوس صغير. تتذكر، مرات عديدة سمعته يتحدث مع نفسه وهي إلى جانبه، «خوفي على مصير هذه البنت»، كأنه كان يخاف من أمر ما سيحدث في أية لحظة، في تلك اللحظة أو بعدها بقليل، كأن يفقدها فجأة، كما فقد أخته الوحيدة، إذا لم يحدث ذلك في تلك اللحظة، فسيحدث بعد أيام، سيحدث في وقت ما؟ والآن تكتشف كم هو على حق، فما هي الأخرى، لا تعرف أيّ مصير ينتظرها بعد الآن؟ ماذا حدث لو عرف، أنها أخيراً قتلت أكثر الناس الذين أعاظوه في حياته؟ هل سيرتاح، أم هل سيقول لها باستنكار: «ابنتي لا يمكن أن تكون قاتلة، مهما حدث أو كان؟»

كانت تلك المرة الأولى التي شعرت فيها في تلك الظهيرة بوخزة في الجهة اليسرى من صدرها، وضعت يدها على قلبها، مسدت عليه، لا تدري، إذا جاء التقلص الصغير من ألم عضوي، كأن يكون قلبها شاخ قبل الأوان، أم جاء بسبب الهاجس الذي بدأ يلح عليها منذ اليوم، أن ليس هناك ما يجعلها تشعر بالراحة لما يخبئه المستقبل؟ بالتأكيد لغموض ما ستجلبه الأيام القادمة معها، ليس لأنها ندمت على فعلتها، كلا، فهي لو استعادت قوتها مجدداً، لذهبت إلى المدينة الطبية من جديد وكررت ما قامت به، ولو كانت شعرت بالندم بالفعل، لكانت عاشت كوايبس طوال الساعات الماضية، على العكس، فهي كلما عصرت رأسها في تلك اللحظة، تذكرت، أنها نامت ساعات طويلة وبعمق،

لا كوابيس زارتها، وأن المرأتين اللتين جلستا حتى لحظات عند رأسها هما سلواها لما تبقى لها من حياة، لا يهم ما حدث في ذلك اليوم، إنها ليست نادمة، لقد أجزت ما كانت نوت عليه منذ لحظة جلوسها في الطائرة في لندن، وهي في طريقها إلى الظهران، عليها ألا تقلق الآن، طالما هاتان المرأتان ستكونان معها منذ الآن، يقيناً ستتعافى، ستحيا، ستعيش مع الاثنتين، تنتقل معهما من مضرب خيام إلى آخر، من وادٍ إلى وادٍ، ألم تكرر ذلك أمامهما؟ معهما وحسب ستعيش حياتها بحرية، معهما حتى أبعد مكان في الصحراء، وإذا شكت لحظة بذلك، فعليها فقط أن تفتح عينيها على سعتهما، أن تتطلع حولها، لكي تعرف أنها ليست في حلم، أنها هي التي رقدت هناك، وليست سارة التي قرأت قصتها في الكتاب، وأن الصوت الذي يصلها عذباً من قريب وبعث في قلبها السلام، هو صوت عمته، «حان وقت الرحيل»، هتفت العمّة وكانت قد طوت الخيمتين وجلست في مقدمة السيارة مع موضة في الانتظار، نعم إنها لا تحلم، إنها هي وليست غيرها التي ما زالت ترقد على فراش بسيط في العراء، لا أحد غيرها ولا شيء غير كتاب استقر تحت الفراش، إذن لا تردد ولا شك، لا حزن ولا يأس بعد اليوم، وأن كل ما تحتاجه الآن، هو أن تنهض، أن تطوي الفراش، أن تحمله وتوجه ناحية السيارة، وترميه هناك، هذا ما تخيلته، وهذا ما فعلته في تلك اللحظة وبحماس، نهضت، طوت فراشها البسيط، اتجهت ناحية سيارة البيك آب التي وقفت تنتظرها في العراء، رمت الفراش إلى سطحها، وصعدت إلى مقدمة السيارة، وفي اللحظة التي ضغطت فيها العمّة على دواسة البنزين، في اللحظة التي انطلقت فيها السيارة، وأخذت فيها سارة موضة بالأحضان، سعيدة بحياتها معهما، في تلك اللحظة فقط تذكرت سارة أنها نسيت الكتاب مرمياً على الأرض، «كل شيء على ما يرام؟»، سألتها عمته، ربما لأنها بدت ساهمة، تفكر بشيء، «أبداً»، أجابت سارة، وبدل

أن تلتفت أو تفكر بالرجوع، تطلعت إلى الأمام، وفكرت، بأنها ربما ستفتقد الكتاب، لكنها من الناحية الأخرى فرحة، كأنها لم تترك قصة سارة أخرى هناك، بل تركت قصتها هي وراءها، في مكان ما في الصحراء، في وادٍ من تلك الوديان العديدة هناك، قصة يقرأها العابرون، وإن جاءت على شكل قصة في كتاب حمل هذا العنوان الغريب... عنوان: «إثم سارة».

ملحق

عزیزتی سارة

أظن أنها رائحة الخوخ التي ذكرتني بك، فقبل أيام في الأسبوع الأول من سبتمبر، وأنا أجلس مع مجموعة من الصديقات والأصدقاء في إقليم بورغينلاند في النمسا، وفي اللحظة التي بدأت فيها الشمس تتدحرج مثل كرة مشتعلة إلى الجهة الأخرى من الكون، شممت رائحة جعلتني أغلق عيني قليلاً، كانت رائحة لذيدة، «أعرف هذه الرائحة العطرة»، قلت بصوت مسموع وأنا أتنفس بعمق، «إنها رائحة الخوخ، وهل هناك من لا يعرفها؟»، سمعت مضيفتنا تعلق وهي تشير ناحية الأشجار الصغيرة التي أحاطت بنا في الحديقة التي جلسنا فيها، «أعرف... ولكن»، أحببت دون أن أكمل جملتي، كان بوذي أن أقول، لكن الرائحة التي أشمها الآن، هي رائحة أخرى، إنها رائحة الخوخ الخاصة التي شممتها في حديقة سارة.

إنها هذه الرائحة العطرة أيضاً التي جعلتني هذه المرة أكثر إصراراً على رواية القصة: قصتك.

كان لا بد وأن أروي لك ذلك، وأنا أطلب منك السماح لي، لأنني تجرأت أخيراً على نشر الكتاب الذي هو كتابك أصلاً. أعترف لك، بأنني وحتى ذلك المساء المعطر برائحة الخوخ، خوذك، لم أفكر: لا بالعودة إلى كتابة القصة التي عرفتها منك أو بنقلها من الدفتر الصغير الذي سلمته لي ونشرها كما دونتها أنت في كتاب يحمل اسمك. لقد حاولت ذلك مرات عديدة، حتى أسلمت الأمر، حلفت ألا أعود للقصة ثانية. أولاً لكي أبقى أميناً للوعد الذي قطعته لك، ألا أنشر القصة

بدون إذن منك، وثانياً كلما عدت إليها، شعرت بالإحباط، بأنني قد لا أنجح بإعادة كتابتها بالشكل اللائق الذي تريدين، من الأفضل تركها راكنة في الجرارات إلى مصيرها المجهول، لكنها الرائحة العطرة هذه التي حملتني من جديد إلى القصة وإليك. مارسيل بروست كتب البحث عن الزمن الضائع، بعد أن شمّ الراوي رائحة كعكة ذكرته برائحة كعكة صنعتها عمته، قارئه نهمة مثلك وكاتبة موهوبة (دفترك الشاهد)، لا بدّ وأنها تعرف، تعرف من أين تبدأ الذكريات، وأنا؟ رائحة الخوخ هي الأخرى ألحّت عليّ، حملتني على تذكر تلك الأمسية الجميلة التي قضيتها معك في حديقة البيت الصغير.

الآن وأنا أكتب إليك، تمثل صورتك أمامي، وأنت جالسة هناك بثوبك الشذري المطرز بالورود الحمر، كانت أيضاً أوائل أيام شهر سبتمبر/أيلول، أحد الأيام الاستثنائية في بلادك بسبب برودتها النسبية التي سمحت لنا بالجلوس في شرفة البيت، مستمتعين بالجو المعتدل وبمنظر البحر الذي امتد أمامنا وبالزهور، تلك التي غرستها في الأحواض والأخرى التي زرعتها في الأرض، نستنشق هواءً استثنائياً، صافياً، لا غبار علق فيه، لا ريح سموم هبت، كان كل شيء هادئاً من حولنا باستثناء صوتينا، أو باستثناء صوتك بالأحرى الذي كان مثل نسيمات علية يطير في الفضاء، فيما بدا القمر الذي كان على شكل بدر مكتملاً في تلك الليلة، مثل سلطان تلالأت جواهره على شكل ذهب مذاب فوق سطح المياه، كان الشاطئ يكاد يكون خالياً إلّا من بضعة منازل خاصة، يأتيها أصحابها في النادر، كما قلت لي، وكنت فخورة بالحديقة التي صنعتها بيديك، فعلى عكس البيوت المجاورة، لم تكن أرض الحديقة التي تقدمت بيتك يباباً، بل جعلت منها، أنت «عاشقة الجنائن» كما أطلقت على نفسك مازحة أمامي، حديقة صحراوية، وكلما سنحت لك الفرصة، أحضرت صخوراً مختلفة الأحجام من مناطق قريبة وزرعت بينها أنواعاً من النباتات الشائكة

والصبار، ولكي تثبتي لي ذلك، قلتِ لي: «حتى الخوخ، ألا ترى؟»، بإشارة منك إلى الشجرة الصغيرة أمامنا، ثم نهضت وأخذت ورقة من الشجرة الصغيرة، دعكيتها، وطلبت مني أن أشمها، «إنها رائحة الخوخ الجميل»، ثم قلتِ لي بحسرة: «تذكر سارة أرجوك، كلما شممت رائحة خوخ»، وهي الرائحة التي علقت بأنفي، وعلقت معها في مخي كل حكايات ذلك المساء الاستثنائي.

أتذكر أيضاً أنك قلتِ لي: «في هذه البلاد، عليك أن تعيش الحرب منذ الطفولة، ترضعها مع حليب الأم، من تولد امرأة هنا، عليها أن تقاتل الصخر بجسد من زجاج، لا شيء يفرح في هذه البلاد»، سمعتك تقولين بحسرة: «كل شيء معكوس، حتى مع الطبيعة»، ولكي توضح لي ذلك، سألتني، «ألا ترى؟ كل نسمة رقيقة وكل هبة ريح هنا لا بدّ وأن يصاحبها الغبار، فما بالك بالعواصف الرملية؟ فكيف لا يكره الناس هنا فصل الربيع، ومعه يبدأ موسم الهواء الشرقي المحمل بالأتربة، ولا ينفع أن تلجأ لحشو مخارج المنزل وأسفل الأبواب بخروق القماش المبلل بالماء، الغبار يدخل إلى كل مكان، يملأ البيوت، يستنشقه الناس، طبقات كثيفة منه تنتشر فوق كل قطعة أثاث، وإذا توقفت العاصفة، تكون تركت خلفها أكواماً من الرمل الناعم متراكمة على مداخل البيوت والشرفات، الغبار يبقى لأيام عديدة هائماً في الأجواء في الداخل والخارج. حسناً أنك وفت زيارتك في فصل الخريف» قلتِ لي، وكنت أريد أن أقول لك: «إنني لست أنا من اختار الزيارة، بل اختارها لي القنصل الثقافي الألماني، لكنني سكت، كان عليّ أن أصغي إليك، كان صوتك يحمل أسي وأنت تشبهين حريك التي عشتها منذ أن كنت طفلة، منذ أن دخل عليك وأنتن تلميذات صغيرات ذلك الشيخ ذو اللحية المصبوغة بالحناء، بحريك المستمرة مع الغبار في مملكة الغبار». حتى الأرض هنا كانت يباباً، وهي يداك التي حولتها إلى حديقة جنان، «كلا ليست يد القاتلة»، قلتِ لي وأنت تفرشين يديك.

أعترف لك، أنني شعرت بالاضطراب في حينه، لم أفهم ماذا كنت تعنين
بجملتك تلك، «يد القاتلة»، كنت أظن أنها دعابة منك، نوع من الفكاهة السوداء،
أمر معلوم، لم أكن قرأت دفترك بعد، وكنت بالنسبة لي - أستميحك العذر - حتى
تلك اللحظة شخصية غامضة، لم أعرف منك، غير تلك الورقة التي سلمني إياها
أحد منظمي أمسية القراءة، قال لي، ونحن نخرج، لا بدّ وأن أسلمك هذه الورقة،
أعطتني إياها إحدى الزائرات، ثم أشار إلى صالة النساء، حيث جلستن تتابعن
الأمسية عبر شاشة مونتور كبيرة، كنتن ترينني، وأنا لا أراكن، أسمع صوتكن
فقط، تسألنني وأنا أردّ، لماذا لا يكون الرجل الذي أعطاني الورقة المطوية التي
كان عليّ أن أفتحها لأعرف مضمونها، نصب شركاً لي، كنت أقول لنفسي، نعم
أعرفه بالاسم، هو شخصية معروفة في بلادكم، لكن أليس كما تقولين، كل شيء
في بلادكم هو العكس؟ «قل للسائق أن ينزلك على الشاطئ الشمالي من... هناك
وعلى شمالك ستري منزلاً أبيض تحيطه شرفات بقناطر تطل على البحر... الليلة
هي اكتمال البدر، ستعثر على البيت بسهولة، وإذا ضللت الطريق اتبع رائحة
الخوخ»، ذلك ما قرأته على الورقة فكيف لا أرتاب؟

كان عليّ أن أنتظر قليلاً لكي أنهي شكّي، أترد الخوف الذي هجم عليّ
بالتدرج، وأعترف لك هنا، شكراً لصوتك الذي كل نبذة منه، كل رنة يحملها،
تبعث الاطمئنان، «أهلاً وسهلاً»، قلت لي، وكنت سبقتني بالجلوس على الشرفة،
ثم حكيت لي، كم أنت سعيدة لأنك عثرت عليّ أخيراً، وأين؟ هنا في... لم
تصدقي عينيك، عندما قرأت خبر دعوتي للقراءة هنا في النادي الأدبي لمدينتكم،
«لا بدّ وأن ألتقي به»، قلت لنفسي، ليكن ما يكون، لا أحد غيره يجروء على رواية
القصة، «لا أحد غيرك يا هارون»، قلت لي، ثم أريتني دفترًا صغيراً استقر في
حضنك، كان دفترًا صغيراً أسود اللون، ماركة «موليسكين»، الدفتر الذي اعتاد
حمله الصحفيون والكتّاب في رحلاتهم، حتى أنا حملته معي في جولاتي السابقة

وأنا أطوف المدن والبلدان، أخبرتني، بأنك لا تعرفين شخصاً تثقين به أكثر مني، منذ أن قرأت أول كتاب لك، وأنا أتمنى أن ألتقي بك، قلت لي «أرجوك احتفظ بالدفتر لنفسك، أكملت، اقرأه بإمعان، أترك لك حرية التصرف به، بالتأكيد ستجد فيه ما يتقاطع مع همومك، وأرجو ألا أكون أخطأت الظن، لكن لا يهم، في كل الأحوال عليك أن تأخذ أمراً واحداً بالحسبان، أرجوك، قلت لي بأدب ورقة وأنت تلمسين طرف يدي، فقط عندما أختفي، لك الحق بالإعلان عنه، لا تكتب عن «إثم سارة»، عن التربية السعودية، وسارة ما تزال على قيد الحياة، هذا إذا كان عندها حياة»، أضفت بنبرة حزينة: «ألا ترى كيف أن كل شيء خانق في مملكة التعاسة هذه؟ فهي مثل من يخوض حرباً مستمرة مع الغبار؟»، كأنك تتحدثين عن شخصية أخرى، تحتمين بتوأم لك، بسارة أخرى، أو بأرامكو، كما كنتِ تفعلين في الطفولة، رغم أن الذي جلس أمامك ليلتها، كان من الممكن أن يقول لك كل شيء، باستثناء أن يجعلك تشعرين بتأنيب.

ما أزال أتذكر كل كلمة منك في تلك الليلة، صوتك الحزين، ولاحقاً عندما قرأت الدفتر، عرفت، من أين جاء حذرك، خوفك، لماذا كنت فيما أنت عليه من حال، فأنا الآخر، لا أخفي عليك، وحتى لحظة كتابة هذه السطور، كنت متردداً، لم أعرف إذا كان نشر القصة أمراً صائباً، أو إذا نشرتها، هل أنشرها باسمك أم تحت اسم مستعار، أو في أسوأ الأحوال تحت اسمنا أنا وأنت سوية، أم أكتفي بنشرها باسمي، بصفتي هارون والي الذي وثقت به؟ ففي النهاية ومن غير المهم الشكل الذي ستظهر فيه القصة، لا أظن أن ذلك سينقذني من ملاحقة الأشرار، فمن يصدق أن القصة هذه لا تعود لي، وأنها تعود لك، تعود لامرأة يكفي ما لحق بها من «إثم» وأضرار، وأنا لا أقوم في الحقيقة إلا بنقل ما دونته هي في دفترها الصغير، لكن ولقول الحقيقة، وأنا أكتب لك عن شكّي وترددي، عن خوفي وحذري، أسمع صدى كلماتك يتردد في مخي، يأتيني من عمق الليل، حيث

المكان البعيد الذي جلسنا فيه، «لا أحد غيرك قادر على رواية القصة بدون رقابة أو تابو»، كما قلت لي، وأنت تستعيرين جملة من رواية سابقة، لكن بتنويعة خاصة بك، وهي كلماتك المشجعة هذه التي تجعلني أقول مع نفسي، ليكن ما يكون، افعل ما تراه أنت على صواب.

عزيزتي سارة، للأشرار قوانينهم، ولنا على الأقل حرية ما نقول، فلتعذريني إذن إنني قررت أخيراً نشر الكتاب وهو يحمل اسم سارة، أنقل ما أباحت به من رغبات، سواء رغباتها تلك التي تحققت، أو تلك التي لم تتحقق بعد، من غير المهم أن هناك ما كان ينقص في الدفتر الذي أودعته عندي، وأن الواجب الذي أراذته مني، هو أن أملأ الفراغات التي تركتها هي بين السطور، ليس عمداً طبعاً، بل على الأرجح لأنها لم تملك ما كانت تحتاجه من الوقت، أو لأنها لم تملك مكاناً تختلي فيه بحرية على الأقل ولو لأيام قليلة وحدها، لكي تكمل ما بدأت به بالتدوين، امرأة مطاردة مثلها، أو امرأة في حرب مستمرة، لا تتنفس بحرية في مملكة الغبار، من الصعب عليها أن تشعر بالطمأنينة أو الأمان في مكان، الأمر الوحيد الذي كانت واثقة منه، هو أن أحدهم سيأتي، وسيكمل القصة، لكل قصة خيط ينسج عليه من عنده الرغبة بالقص، وخيط قصة سارة، هو حكايتها التي تركتها في الدفتر الأسود الصغير، أمل ألا أكون على خطأ في التفسير، أليس ذلك ما أردته أو أملت به في دعوتك لي في تلك الليلة الاستثنائية على الشاطئ الشمالي من... في مدينة... ألم تكن تلك هي رغبتك، أن أكمل ما بدأت أنت فيه؟

عزيزتي سارة، من الجائز جداً، أنني لم أنفذ رغبتك تماماً، فاعذريني، لم أشأ العبث بالإرث الذي تركته لي، بالوصية التي حملتها معي منذ سنوات، ربما كانت جاءت القصة كاملة كما شئت، وما اكتفيت بتعديل القصة في الأماكن التي استدعت التعديل، وهي قليلة جداً، لو كان سُمح اللقاء لنا ثانية بعد لقائنا الوحيد في ذلك المساء على الشاطئ الشمالي من... في مدينة...؟ مثلاً لو كنت

حصلت منك على أجوبة للأسئلة التي دارت في رأسي منذ أن قرأت دفترك الصغير، أو للأسئلة اللاحقة الأخرى التي راحت تلح عليّ، كلما وقعت عيني على الأخبار القادمة من بلادك «مملكة الغبار»: كم كان بودي أن أسألك مثلاً: ماذا حدث بعد رحيلك مع عمّتك وموضّة، التي هي بمثابة ابنتها؟ أو ماذا عن المصير الذي انتهت إليه صديقتك الهنوف؟ وناصر؟ ماذا عنه، هل أطلق سراحه الإنكليز؟ أعرف أن سجن بلمارش لا يزال في مكانه في حي تيمزמיד في جنوب شرق لندن، مثلما ما يزال هذا الحصن المنيع يحتفظ بالسجناء «الإرهابيين»، لكن ربما لهذا السبب بالذات، كانوا أطلقوا سراحه، لكي يجلس في مكانه سجين «إرهابي» جديد؟ وإذا لم أسألك عن ناصر، رغم أنني أشك بذلك، لكنك سألتك، ماذا عن قتل أكثر من داية وشيخ من هيئة الأمر بالمعروف والمنكر في بلادك، التي لا أظن أنك ستعترضين، إذا أطلقنا عليها هذه المرة، «مملكة الظلام»؟ ماذا عن الشيوخ أصحاب الفتاوى «فقهاء مملكة الظلام» هؤلاء، هل أنت وراء عمليات قتلهم بالفعل؟ أكثر من ثلاثين شيخاً أو مفتياً، ليس هناك عدد ثابت ومعلوم، قُتل كل واحد منهم بطريقة مختلفة، آخرهم الداعية الكرية الطلعة والذميم المحيا المدعو صالح الفوزان، آخر مرة ظهر في التلفزيون وهو يفتي، قال بأنه من غير المستحب قول كلمة «آل محمد» في الصلاة على النبي، ولكن يجب أن تقال «اللهم صلّ على محمد وآل محمد وأصحابه» لأن اللفظ الأول يردده الشيعة، أية داعية وكراهية وتفرقة هذا؟ أي دنس ينطق به هذا اللسان؟ لكن هل هو الوحيد في ذلك؟ هل تتذكرين؟

دوستويفسكي قال: إذا كان الله غير موجود فكل شيء مباح. كأن الوهابيين أرادوا الإجابة عليه: إذا كان الله موجوداً فكل شيء للوهابية مباح. أليس كذلك؟ رغم ذلك، أردت أن أسألك، هل من الممكن، أنك أنت وصديقتك الهنوف، وربما فتاة أخرى، معكما كانوا وراء عمليات القتل هذه، كما جاء في وثائق كشفها موظف سابق لمخابرات أجنبية ونشرت بعضها الصحافة والميديا في العالم؟

قيل إن فتاة كانت مبعدة إلى مكان في الصحراء مع فتيات أخريات، وهربت مع فتاة أخرى لتلتحقا بفتاة «أثمة» من المنطقة الشرقية، الفتاة هذه وراء عصابة «إرهابية» لا تعرف الرحمة، تقتل رجال الدين، تهجم على مخافر الشرطة ومراكز دوائر الأمن، وتحرق مباني هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن مخابرات بلدان عديدة في المنطقة تتعاون على إلقاء القبض عليهن، حتى إن مخابرات بلادك طلبت تعاون المخابرات الأجنبية ظناً منها أنها تملك تقنية أفضل بمكافحة الإرهاب؟ السلطات لا تعترف بذلك رسمياً طبعاً، ماذا تقول؟ نطلب مساعدة مخابرات أجنبية بسبب نساء متمردات؟ أنت تعرفين أن أكثر ما يربعهم هو قيام انتفاضة للنساء، نعم، كل شيء باستثناء تمرد للنساء، هذا ما سيجعل ذكوريتهم ترتد وتنكمش بالشكل الذي لا يريدون، هذا ما يفسر حالة الذعر السائدة في المملكة، عمليات الإعدام الجماعية التي تُنفذ هناك، آخرها إعدام مئة وثلاثة وخمسين، أكثر من مئة متهم بالإرهاب، خلال شهر واحد فقط دون محاكمة ومحامي دفاع، لا يهم أنهم أبرياء أم ثبتت تهمة الإرهاب التي دمغوهم بها، أغلبهم لم يحمل في يده سلاحاً يوماً، فهل هناك إرهابي أو قاتل بدون سلاح؟ فقهاء الظلام في المملكة لا يعينهم ذلك، المهم بالنسبة لهم هو أن يمنحوا الانطباع، أن الجناة رجال، ليسوا نساء، كأن كل رجل لا يتفق معهم هو إرهابي وانتهى الأمر، تلك هي حالهم، كل ما هو خارج عن تعاليم الشيخ محمد بن عبد الوهاب باطل ولا يستحق الحياة، ولأن حديثنا عن النساء، لا بدّ وأن أسألك الآن، ماذا عن مرافق الشيخ الداعية يوسف الأحمد الذي وُجد مقتولاً في بيت الشيخ على عكس الشيخ الذي ظلت به بقية حياة؟ هل كان ضابط المباحث هذا، هو المدعو ص. م. ع. نفسه، الذي كان أشهر من نار على علم في المنطقة الشرقية إن لم يكن في عموم المملكة، ليس بسبب شكله القبيح ووجهه الذي نهشه الجدرى وهو صبي، بل بسبب شهرته في صرامته مع السجناء، ليس هناك

موقوف حقق معه ولم يعترف بجريمته فوراً حتى إذا لم يكن هو مرتكبها؟ هل يُمكن أن تكون التي قامت بعملية الهجوم على الشيخ يوسف الأحمد في بيته وقتلت ضابط المباحث الذي كان في زيارته صديقتك الهنوف، وأنها هي وليست غيرها التي تنكرت لاحقاً بملابس رجال وكانت الشخص الوحيد الذي رأيته يتطلع بك وأنت تغادرين المستشفى العسكري؟ لماذا لا تكون الهنوف هي التي تركت خالك عمداً، لم تقتله، وانتظرت منك أن تأتي وتنهى عليه أنت؟

طبعاً إنها مجرد افتراضات مني، لأن في كل تلك التقارير التي جاءت في الصحافة والميديا باستثناء أسماء الضحايا لم تُذكر أسماء الجناة؟ مرة واحدة فقط تمّ فيها الحديث عن جناة «مفترضين»، كانت فضيحة كبيرة، قيل إنهم ألقوا القبض على ثلاثة عمال يعملون في حديقة مستشفى خالد بن عبد العزيز العسكري، عمال بسطاء من الهند أو سيريلانكا أو النيبال، قيل إنهم وراء جريمة القتل، لماذا؟ قالوا، كان القاتل يلبس قبة بنمية، وهؤلاء يلبسون القبة البنمية أيضاً، المساكين، القبعات التي يبللونها بالماء ويضعونها عادة على رؤوسهم وقاية من جحيم شمس الصيف وهم يعملون في العراء، القبعات هذه قادتهم إلى حتفهم؟ لا أحد يعلم المصير الذي انتهى إليه المساكين؟ من يسأل عن عامل أجنبي هناك؟

أسئلة أخرى وأخرى ما تزال تضح برأسي، مثلاً خيراً قرأته عن الصحفي الهندي أو الباكستاني سانجاي رانداي، الذي سبق وأن صوّر اعتقالكما أنت وناصر في لندن، هل أنت هي الفتاة التي التقى بها في صحراء حفر الباطن في... وعمل عنها فيلماً تلفزيونياً بعنوان «إنم سارة: في التربية السعودية»، في التقرير الصحفي يُقال إنه جاء أصلاً بحثاً عن دكتور باندي الذي اختطفه مجهولون، لهم علاقة بمافيات محلية تتاجر بالأعضاء البشرية، تقف وراء خطف العمال الأجانب، تخديريهم واستئصال بعض أعضائهم الداخلية لبيعها، لكن بدل أن يعثر سانجاي

روانداي على الدكتور باندي، عثر على الكتاب: «كتاب الآثام الخمسة»، الجزء الأول منه «إثم سارة»، الذي نسيته وراءك في الصحراء، الفيلم أنتجته محطة بي. بي. سي. البريطانية، لكنها لم تبثه في النهاية بضغط من سفارة المملكة في لندن؟

هل صحيح أن هذا الصحفي الألماني نجح بعد قراءة الكتاب بالعثور عليك؟ ماذا عن موضة، كنز عمته الجميل الذي بعث فيها الحياة، هل هي الفتاة التي التقاها سفير بريطاني سابق صدفة في رحلة صيد في حفر الباطن، وعندما رأى ما تقوم به، عندما تعرف على موهبة فنها بصناعة التحف من الجماجم التي تجدها في الصحراء، أخذها معه إلى لندن ومن هناك إلى نيويورك وهي تعرض تحفها في أشهر غاليريات العالم اليوم، المعرض الأخير في متحف غوغينهايم في نيويورك؟ لا أحد يرى الفتاة، إذا ظهرت فإنها تظهر محجبة من الرأس حتى القدم، كما في البرقع الأفغاني، السفير ومعه رجال الميديا يدعون أن تقاليد الفتاة «المسلمة» هذه لا تسمح لها بالكشف عن وجهها أو بالتصريح علناً أمام الصحفيين، ألا ترين معي؟ بعض النهايات سعيدة وبعضها لا، عثر عمته على موضة في الصحراء نصف ميتة مثلاً وانقاذها، لكنك ستقولين حتى السعيدة منها علق بها بعض الغبار في الحلق، كل شيء معكوس، مثل الطبيعة، فما فائدة نهاية سعيدة إذا كانت فتاة الغاليريات التي من الممكن أن تكون موضة، تعيش حياة كما هي السجن، تحت رقابة ومراقبة السفير البريطاني الذي هو عرابها «مدير أعمالها» شكلياً، لكن عملياً ينتهي إلى جيبه كل ما يبيعه لها من تحف وأعمال؟

تلك الأسئلة ومعها أسئلة أخرى دارت وما تزال في الحقيقة تدور في رأسي، كم أرقنتني وسرقت من عيني النوم، وكلما فكرت بكتابة قصتك، أو لنقل كلما فكرت بملء ما جاء بين سطور ما دونته من فراغات، قلت لنفسني انتظر، فربما ستجمعك الصدفة مرة أخرى بسارة مثلما جمعتك بها ذات مساء، ودعوتها لك لزيارة بيتها الصغير، تراث أرجوك، أنت المعروف بصبرك ورباطك جأشك، لا

تقطع شعرة معاوية، كما يقول المثل عندنا، نشرك للقصة سيجلب لك المتاعب والمنع في مملكة الظلام وحلفائها، وتعرض نفسك بهذا الشكل لملاحقة الأشرار. هل نسيت أن للأشرار قوانينهم؟ لا عفو عندهم ولا رحمة، ينقضون على من يظنونه غريباً لهم في وضح النهار.

عزيزتي سارة: أكثر من خمس سنوات، كنت أعيد قراءة قصتك، أو كنت أسمح لنفسني بإجراء بعض التعديلات عليها، إذا شئت، نوع من التمرين على إعادة كتابتها من جديد، وكلما انتهيت منها، تركت ما كتبته جانباً على الطاولة؛ أحياناً تضيع بين الأوراق، أنساها لزمان طويل، ستة شهور، بل حتى لعام، مرات عمدًا، وفي أخرى من دون قصد، وأثناء ذلك - لا أدري إذا كنت تعرفين - نشرت أربعة كتب، روايتين وكتاب رحلات وكتاباً آخر عن سيرة مدينة عالمية معرضة للمحو والدمار، خلال ذلك سافرت وتجولت في مدن وبلدان عديدة، أحببت نساء ودخلت في صداقات، تزوجت وطلقت، هاجرت وعدت.

لكنني خلال كل ذلك كنت أعود إلى قصتك، أقرأها في كل مرة جديدة، من البداية حتى النهاية، ثم من النهاية حتى البداية، وفي كل مرة أقول: هناك ما ينقص، فأبدأ بالتعديل، أو ما أظنه أنا تعديلاً، لأن من غير المهم ما أفعله، أسمع هاجساً يقول لي: إن هناك ما ينقص، وإن القصة هذه لا تعود لك، إنها قصة سارة وحسب، حتى يستحوذ عليّ هذا الشعور الغريب، أن أشك بأنني التقيت بك، وأن ما أقرأه مدوناً على الدفتر الأسود الصغير، دفتر الموسككين، يعود لي أنا وحدي، إنه اختراع مني لا غير، وما يزيد في الأمر التباساً، هو أنني كلما شككت، بدأت بمراجعة أرشيف الصحف، صحف بلادك على وجه الخصوص، لعليّ أعثر ولو على خبر فيها، صغيراً كان أم كبيراً، مجرد خبر ما يساعطني، يشير إلى اسمك، أو يتحدث عن حادثة قتل داعية أو شيخ، اسمه يوسف الأحمد على يدك أنت، وليس على يد أحد غيرك، نعم، تزدهم ماكنة البحث غوغل بتصریحات وترهات

كل ما نطق به هذا الشيخ الأهميل، بل حتى قصة سجنه وإطلاق سراحه، وإشرافه على هيئة الأمر المعروف والنهي عن المنكر، وتأسيسه لمجالس الصحوات، ودعم السلطات الرسمية له بشخصية وزير الداخلية ورئيس المخابرات، كل ذلك موجود، بل حتى قصة إطلاق النار عليه في صحيفة «الدنيا»، موجودة وتاريخها متطابق بالضبط مع تاريخ صعودك الطائرة وعودتك من لندن إلى الظهران، كل ذلك موجود، قيل «إرهابي أطلق النار عليه»، وإن ظروف التحقيق لا تسمح لهم بالكشف عن اسم أو شخصية مرتكب الجريمة، ولم يقولوا طبعاً إنهم اعتقلوا عمالاً هنوداً أو سيريلانكيين لبسوا القبعة البنمية.

لكن في كل الأخبار الأخرى التي قرأتها لم أعر على اسمك، لا ذكر له، لا في صحيفة أو ماكنة بحث، كأنهم أرادوا لك أن تنتهي إلى غياهب النسيان، كأنهم قرروا محو اسمك، لكي لا تكوني مثلاً لسارات أخرى يسرن على خطاك.

عزيزتي سارة، ذلك كان ديدني، لقد حاولت وحاولت، مرات عديدة، حتى أسلمت الأمر، وحلفت ألا أعود للقصة مرة ثانية، قلت من الأفضل تركها إلى مصيرها راكنة في الجرارات، كأنني كنت على دراية أن الوقت سيحين، ليس لإعادة قراءتها وحسب، بل نقلها، إعادة كتابتها وتعديلها إذا استدعى الحال، وكان عليّ أن أنتظر تلك الليلة، التي سأشم فيها رائحة الخوخ، أين؟ في مكان يبعد عنك بآلاف الكيلومترات، لكن في الأيام الأولى من شهر سبتمبر/أيلول أيضاً، وأنا أجلس مع حلقة من الصديقات والأصدقاء في إقليم بورغينلاند في النمسا، إنها رائحة الخوخ الخاصة بك ليست هي التي ذكرتني بك من جديد وحسب، بل جعلتني أقول لنفسي، الآن وليس بعد، وإلاً سيفوت الأوان، لا بدّ من رواية قصة سارة هذه المرة، لا تردد ولا خوف بعد اليوم، لا أعرف الوقت الذي أخذته مني كتابتها، كم ليلة وكم يوماً، لكن أمراً واحداً أعرفه، هو أنني وطوال الوقت الذي استغرقته مني كتابتها، كانت ماثلة أمامي صورتك، البوصلة، وهي الدليل، بالضبط كما رأيتك في

ذلك المساء الاستثنائي هناك، هل تتذكرين؟ ما أزال أتذكر اللحظات الأخيرة من لقائنا في ذلك المساء، في... عند شاطئ...

أتذكر: كان شاطئ... الشمالي يكاد يكون خالياً إلا من بضعة منازل خاصة، كانت خالية في ذلك المساء. لا أحد غيرنا، وحتى الأنوار القليلة التي ومضت قبل قليل في البعيد، بدأت تنطفئ الواحدة بعد الأخرى، أتذكر، كيف أن صوتك بدأ ينخفض هو الآخر، كاد يقترب من الهمس تقريباً، ها هو زمن الحكايات يقترب من نهايته، قلت لي، لا بد وأن أرحل الآن، أضفت بحسرة وأنت تشيرين ناحية العراء، وقبل أن تقولي لي الوداع، التفت لي، أخرجت دفترًا صغيراً من حقيبتك، قلت لي وأنت تسلميني الدفتر الصغير: أرجوك احتفظ بقصتي، لا تخرجها للعلن إلا متى حانت الساعة، وامتلكت شجاعة القول، ثم مددت يدك تصافحيني: أنا راحلة، قلت لي بصوت واثق، لكن حزين، ثم طلبت مني ألا أقلق من النوم هناك، فراش نومك جاهز، قلت لي، وكنت تقصدين الفراش الذي فرشته على الأرجوحة عند الشرفة، لم أعرف كم كانت الساعة، فأنا أصلاً لا أملك ساعة، أتجنبها دائماً، بل لم أسألك حتى أنت كم هو الوقت، وأقله سألتك إلى أين أنت ترحلين والبيت هو بيتك، بدل ذلك، هززت رأسي ساهماً، تابعت حركتك وأنت تبتعدين، لا أعرف إذا كنت في يقظة أم في حلم، رأيتك تسيرين باتجاه المساحات الخاوية والجبال الجرداء التي لم تفصلها عنا إلا بضعة بيوت صغيرة أو خيام بدو تلاً من واحدة منها أو من اثنتين بصيص نور بدا مثل نقاط غبار صغيرة تومض في نفق الليل، لم يستغرق الوقت طويلاً حتى رأيتك تختفين تماماً وسط السكون والظلام الدامس الذي عمّ المكان، في صباح اليوم التالي استيقظت على شمس سبتمبر/ أيلول التي ما تزال قوية، لم يكن أحد غيري لا في الشرفة ولا في البيت، وكان من الممكن أن أشك بكل شيء، كأن أقول إن شخصاً مغامراً مثلي يعيش الوحدة والبحر، بالتأكيد أغراه منظر البيوت الخالية القليلة التي امتدت على الشاطئ

الشمالي من... في مدينة... كان لا بدّ له أن يراها في طريقه وهو يدخل إلى المدينة، فحدث نفسه، ليس هناك أكثر ملاءمة منها للنوم، نوع من التبديل، ثم إن المكان ليس بعيداً عن الصالة التي قرأت فيها ليلة أمس.

لكن منظر الدفتر الأسود الصغير، دفتر الموسيكليين على حافة الشرفة، يقول لي، إن ما جرى ليلة أمس لا علاقة له بمشهد متخيل من رواية أو فيلم، إنه مشهد حقيقي جرى بكل ما تذكرته من تفاصيل، وإن الدفتر هذا لا يعود لي، ولكي أبعد عني الشك، نهضت واتجهت ناحية الدفتر، تصفحي البسيط له يقول، إنه يعود لك، الاسم المكتوب عليه، شكل خط اليد المكتوب فيه، كل ذلك لا يعود لي، إنه دفترك، لبرهة تطلعت حولي، فرأيت رجلاً عند الشاطئ تحت الشرفة، يحمل حقيبة ظهر صغيرة، ملابسه كاكية، لحيته صغيرة بيضاء، شعره أسود، لبس نظارات طبية، بدا الرجل نشطاً موفور الصحة بالنسبة لعمره، ربما كان في أواسط الستين، كان مشغولاً بعمله، كما اتضح لي، وهو يخرج عدة صيد، ألقيت على الرجل تحية «صباح الخير»، فردّ عليّ التحية، «صباح النور»، قالها بصوت لطيف دون أن يرفع رأسه عن العدة، كأننا أصدقاء نعرف بعضنا منذ زمن بعيد، سألته، إذا كان يعرف امرأة اسمها سارة، لم أشأ أن أقول له، إذا كان يعرف صاحبة البيت، لأن جلوسه عند شرفة البيت بهذا الشكل، يمنح الانطباع بأنه لا بدّ وأن يكون على علاقة بأصحاب البيت، إذ ليس بالضرورة أن تكون سارة ذاتها. ابتسم الرجل وقال لي وهو يشير ناحية البيوت: «كل هذه المنازل التي تراها هجرها أصحابها أو ماتوا، أنت لست أول غريب ينام هنا». ويتحدث عن امرأة رآها في اليقظة أو في المنام، ثم أضاف وهو يرمي الصنارة إلى الماء، «في النهاية لا عجب، نحن قريبان من البحر، الناس تطلق على حوريات البحر سارة لا غير». حتى وإن حوى تعليق الرجل على بعض السخرية، إلّا أنه حافظ على نبرة صوت ودودة وربما لرغبة مني لكي أنهي كل شك، سألته، وأنا أشير ناحية العراء، إذا

كانت هناك خيام بدو تفصلنا عن المساحات الخاوية والجبال الجرداء التي تلوح أمامنا في الأفق، فأجابني الرجل وهو يواصل عمله بهدوء: «في الليل يرى الناس بصيص ضوء لخيمة أو خيمتين، لكن في النهار؟ لا بدو يضربون خيامهم، ولا رعاة عابرون». شكرت الرجل وفكرت، لهجته، لكنته وهو ينطق بحرف الراء، منظره، عمره، كل ذلك جعلني أفكر بالدكتور باندي، قلت لنفسي، لا بد وأن يكون هذا الرجل الدكتور باندي، كأن القصة، قصتك، كان ينقصها ظهوره وحسب، ربما شعر الرجل وهو يسمع نبرة صوتي بالقلق الذي استحوذ عليّ، لأنه لم يرَ وجهي في تلك اللحظة، كان يقف وقد أولى ظهره لي، «لا داعي لأن تقلق»، قال لي دون أن يلتفت، كأنه يتحدث مع حوت أو سمكة مسكت بصنارته في البحر، «المكان آمن»، قال لي، هو الآخر غريب، يأتي إلى هنا من حين إلى آخر، للصيد، فتذكرت بأنك أنت الأخرى قلت لي جملة مشابهة في الليلة التي مضت، فلماذا أقلق؟ تركت الرجل في عمله، عدت إلى مكاني، أخذت ورقة من غصن شجرة الخوخ الصغيرة، دعتها، وأنا أقف في الشرفة وفي يدي الدفتر الأسود الصغير، بالضبط في المكان الذي وقفت عنده في الليلة الماضية، وأنا أراقبك تنسّلين، كان السكون والظلام يعمّ المكان ساعتها، وكان القمر في اكتماله، سلطان المشهد بروعته وبهائه، ينشر ضيائه بسخاء على سطح البحر، ومثلما تلاًل القمر في الليل، رأيت صورتك في الصباح تتلاًل أمامي في البحر كالذهب المذاب وتتلاًل معها العشرات من السارات تتناثر في الأفق وتطير مع رائحة الخوخ في الهواء.

آه سارة... دان ودان يا دان... سارة القلب والأمان... سارة رائحة الخوخ وهي تفوق بعطرها كل عطور الليلك والأقحوان... سارة التي تختصر كل السارات، سارة الكلام المباح، لعليّ أكون أوفيت ولو القليل من وعدي لك بكتابة قصتك أخيراً... قصة سارة، مثلما دونتها أنت، بالضمير الثالث كأنها لا تعود إليك، وشكراً لرائحة الخوخ التي جعلتني أستعيد تلك الصورة مجدداً، لا أعود فقط إلى حديقتك

المزدهرة بالأزهار، حديقتك الخالية من كل إثم، بل جعلتني أروي القصة أيضاً،
قصتك أو قصة سارة كما شئت، بالضبط بالشكل الذي تركته لي، دون تزويق مني
أو تحوير: بدون أو... مع «إثم سارة».

هارون والي

في مكان ما من هذا العالم

11 يونيو / حزيران 2016



Portrait by Philip Kojo Metz

ولد في البصرة 1956، لكنه نشأ وترعرع في العمارة. أُعتقل في بداية عام 1980 في سجون الاستخبارات العسكرية في وزارة الدفاع ببغداد، وتعرض لصنوف التعذيب، قبل أن يُطلق سراحه باعجوبة. درس الأدب الألماني في جامعة بغداد، وغادر العراق أواخر عام 1980، منتقلاً إلى ألمانيا حيث يعيش حالياً في برلين. أكمل دراسة الأدب الألماني في جامعة هامبورغ الألمانية والأدب الإسباني في جامعة كومبلتينس في مدريد. اقام للدراسة فترة في أوكسفورد وأخرى في فلورنسا، ثم في نيويورك. نقل عن اللغة الإسبانية مسرحية "خطبة لاذعة ضد رجل جالس" لغارسيا ماركيز (دار أزمنة 1999)، وعن اللغة الألمانية قصائد "خطوات، ظلال، أيام وحدود" لميشائيل كروجر (المدى، 2015)، و"آلم فيترن" لفولفغانغ غوته (صفصافة 2017) وهي أول ترجمة للرواية مباشرة عن الألمانية. صدرت له ست روايات: الحرب في حي الطرب (1993)، مكان أسمه كميث (1997)، تل اللحم (2001)، صورة يوسف (2005)، ملائكة الجنوب (2009)، بغداد الملبورو (2012)، ومجموعتان قصصيتان: ليلة ماري الاخرة (1994)، فالس مع ماتيلدا (1999)، وكتاب بغداد، سيرة مدينة (2015).

تُرجمت أعماله إلى عدة لغات وصدرت عن دور نشر عالمية مرموقة، كما كتبت عنها صحف عالمية.

حصل على جوائز عالمية عديدة، منها: جائزة برونو كرايسكي العالمية للكتاب لعام 2014، أما روايته "ملائكة الجنوب" فقد وصلت في القائمة القصيرة لجائزة يان ميشلسكي العالمية للأدب عام 2015، كما حاز على جائزة مدينة غراتس العالمية للأدب لعام 2016. نجم والي الذي يعد أحد أشهر الأسماء العراقية والعربية المعروفة عالمياً، يعيش متفرغاً للكتابة في منفاه في برلين.

